

الظاهر بيبرس

obeikandi.com

القصص الشعبي

الظاهر بيبرس

الجزء الثالث

حسن محمد جوهر

أمين أحمد العطار

محمد أحمد برانق



دار المعارف

عرقوص بن معروف

١

ودع إبراهيم داود وشاهين ، ووافاه سعد ، وسارا حتى كانا في الإسكندرية ، وهناك جمعا أصحابهما . وركبوا في البحر ، ومضوا متجهين إلى رومة .

كان الملعون جوان وصاحبه سيف الروم مقيمين عند دوش ابن الملك رومان ، وكان قصره يطل على البحر ، فنظر جوان إلى البحر فرأى فلك المسلمين قادمة ، فقال لصاحبه : هؤلاء المسلمون قادمون إلى رومة ، ولا بد من هلاكهم قبل وصولهم ، فقال « الطنجي » رئيس المدافع : مرني بما شئت ، فقال : صوب مدفعاً كبيراً من مدافعك إلى هذه الفلك القادمة واقذفها بقذيفة تمزقها ، فقال « الطنجي » : سمعاً وطاعة وسأربحك من هذه الفلك ومن فيها ، ثم صوب مدفعه إليها ، وأطلق منه القذائف ، وكان قائد الفلك قد أدرك ذلك ، فحول اتجاه الفلك إلى جهة أخرى ، فلم تصبها القذائف ، وأسرعت الفلك إلى الميناء ورست .

كان جوان قد جاءته نساء الملوك الأسرى عند بيبرس وطلبن منه أن يخلص أزواجهن من يد بيبرس ، فقال لهن : إن أمركن هذا ليس له إلا الملك رومان ، فاذهبن إليه ، فعسى أن يرثي لجالكن ، وسأذهب أنا إلى ابنة ليعاونه في ذلك ، فأطعنه وذهبن إلى رومان ، وذهب هو

إلى ابنه دونش ، ودبر تلك المكيدة التي أراد بها أن يغرق الفلك ، ولكن قائدها لوى عليه غرضه ، وأبطل بمهارته كيده .

رست الفلك ، فأمر إبراهيم أن تضرب الخيام على الشاطئ له وإصاحبيه سعد وأيدمر ، أما أبو بكر فقد بقي في الفلك هو وبقية الرجال والملوك الأسرى ، وجلس إبراهيم ، ومضى الوزيران مارين ومحبثون إلى الملك رومان وأخبراه بمجىء المسلمين ومعهم الملوك الأسرى ففرح رومان واطمأن .

وكان إبراهيم جالساً ، فجاءه بطريق من الكفار ، فقال : أنت إبراهيم الحوراني ؟ فقال : نعم ، فقال البطريق : أعطني ألف دينار أجرة فلكك التي رست في الميناء ، لأنني اشتريتها من الملك رومان ، وجعلت على كل سفينة ترسو فيها ألف دينار ، فقال سعد : يا ابن الخالة ، أعطه ما طلب ، لأنه من حقه ، فقال إبراهيم : اسكت يا سعد ، ودعني أبين للبطريق وجه الحق ، والتفت إلى البطريق ، وقال : نحن ما جئنا تجاراً ولا سائحين ، ولكننا جئنا بملوككم ملبين رجاء ملككم ، ولولا ذلك ما أتينا ، فكيف نأتى بسبيكم وتأخذون منا مالا ؟ ! فقال البطريق : سأخذ منك المال رغم أنفك ، فغضب إبراهيم وضربه بسيفه ، فوقع على الأرض قتيلاً ، وأمر رجاله أن يسحبوه إلى التلال ، فجره وألقوه فيها ، وكان هذا البطريق ابن أخت الملك رومان ، فصاح رجال البطريق غاضبين وهموا أن يقتلوا إبراهيم ، فحمل هو ورجاله عليهم ، ففروا هاربين ،

وانتهى المسير بإبراهيم من خلفهم إلى قصر عبد الصليب الجركشى ، وكان مطلاً على الميناء فأخذه وصار في حوزته ، وأمر أن ينقلوا ما في الفلك من الأموال والزراد إلى ذلك القصر ففعلوا .

أما رجال البطريق المالك فإنهم حملوه وذهبوا به إلى رومان وأخبروه بما فعله إبراهيم ، فغضب رومان والتفت إلى وزيره مارين قائلاً : أينبغى أن يفعل المسلمون هذا ؟ فقال مارين : ما عليهم من ذنب ، وما أخطأوا فيما فعلوا ، ولكن الخطأ كان منك ومن رجالك وأتباعك ، فقال : وكيف كان ذلك ؟ فالتفت مارين إلى مغبثون وسأله : حينما رست سفينتنا في ميناء الإسكندرية ، هل طلب منا أحد من المسلمين نقوداً ؟ فقال : لا ، فقال مارين للملك : ونحن كنا ذاهبين إليهم في أمر يخصنا ، فكيف تأخذون من المسلمين نقوداً ، وقد جاءوا إلينا بملوكنا مليون رجاءنا ؟ فقال رومان : الحق معهم ، ونحن نخطئون ، فأرسل إلى إبراهيم ليحضر لدينا وننظر في الأمر معه ، فأرسل مارين إلى إبراهيم أربعة من البطارقة ، فذهبوا إليه وقالوا : أجب دعوة الملك رومان ، فهض إبراهيم وأخذ معه سعداً والملوك الأخرى ، ودخل هو على رومان ، فأكرم لقاءه وأجلسه بجواره على كرسي من ذهب ، وقال : يا سيدى إبراهيم ، أين الملوك ؟ فنادى إبراهيم سعداً ، فدخل عليهم ، وجعل يقدم لرومان الملوك واحداً واحداً ، وهو يضرب كلاً منهم ويقول له : من أمرك أن تذهب إلى المسلمين وتقاتلهم ؟ فيقول : ما أغرانى بهم إلا جوان . فيقول : سر إلى بلدك وأرسل إلينا خزينة من المال فدية

لك . وما زال كذلك حتى أطلقهم جميعهم وهو يسب جوان ويلعنه .
فقال إبراهيم : لقد جئنا بالملوك ، ونريد خزائن المال لأرسل برجالى
إلى ديارنا ، فقال رومان : انتظر عشرة أيام حتى أجمع المال الذى
تريده ، ثم ترحل مصحوباً بالسلامة ، فقام إبراهيم ومضى إلى القصر .
وذاذ ليلة سار إبراهيم ومن معه فى المدينة ، وبينما هم سائرون سمعوا
دويماً تحت الأرض ، فحفرها إبراهيم بنخجره ، فوجد خلقاً كثيراً ،
وسمعهم يقولون : اللهم أحسن خلاصنا على يد إبراهيم بن حسن الحوراني ،
فعجب إبراهيم وقال : يا سعد ما الخبر ؟ فقال سعد : لا أظن هؤلاء إلا
من الجن ، وهم يستغيثون بك ، ولا أعرف عنهم شيئاً . فقال إبراهيم :
إنى أخشى الجن ، فتعال أنت واسألهم عن حالهم ، فعسى أن يكون
خلاصهم على أيدينا ، فتقدم إليهم سعد وقال : يا خلق الله ، من أنتم ؟
أمن الجن أم من الإنس ؟ فقالوا : نحن من الإنس وقد حبسنا فى هذا
المكان مدة طويلة ، وكنا أربعة عشر ألفاً ، ونحن مؤمنون بالله ورسوله ،
فما منا سبعة آلاف جوعاً وضيقاً ، فلما سمع إبراهيم قولهم قال : لا حول
ولا قوة إلا بالله ، وتقدم إليهم وقال لهم : لا بأس عليكم ، فقد جاءكم
الفرج من ربكم ، وأين باب مكانكم هذا ؟ فعرفوه به ، فذهب هو
ورجاله إليه ، فوجد الحرس جالسين عنده ، وكانوا نحو مائة رجل ، فما
أمهلهم وقتلهم بسيفهم ، وكسر إبراهيم باب السجن ، ودخل على الأسرى
من المسلمين ، وقال لهم : تعالوا معى ، وغداً يفعل الله ما يشاء ، ومضى

هم إلى القصر فأسكنهم فيه وأطعمهم ، وباتوا في فرح عظيم .
 وفي الصباح أخذ إبراهيم الأسرى وذهب إلى رومان فدخل عليه
 غاضباً وقال : يا رومان لقد أقمت الدنيا وأقعدتها ، وحملتنا على الحياء
 إليك من أجل بضعة ملوك لا يزنون جميعهم عندنا قلامة ظفر ، فكيف
 تبيع لنفسك أن تأسر أربعة عشر ألفاً من المسلمين وتحبسهم تحت
 الأرض ، يقاسون الجوع والعطش والظنك حتى مات نصفهم ؟ وأريد
 منك الآن دية من قتل منهم ، فزاد فزعه ورعبه وقال له : اقترح ما شئت
 من الدية والتنفقات فأني معطيكه ، وما أنا براد لك حكماً ، وقرض
 إبراهيم على الملك ما شاء من الأموال وأخذه ، ورجع بالأسرى .

كان جوان في المدينة إذ ذاك ، وعرف ما حل بها من إبراهيم
 وجماعته ، ولم يشأ أن يظهر خوفاً من إبراهيم أن يقتله ، ولكنه دبر مكيده
 لقتله وقتل أصحابه ، وذلك أنه ذهب إلى دونش بن رومان ، وكان أبوه يحبه
 حباً جماً ، وقال له : لم يبق لك فرصة للذبيوع اسمك إلا أن يلعب
 الأربعة الأبطال من المسلمين والأربعة الأبطال من أتباع والدك ليلة
 زفافك ، فأسرع بذلك قبل أن يرحل المسلمون من المدينة ، فذهب
 دونش إلى أبيه وأخبره ، فأمر بما عرضه عليه ابته ، وكان الأربعة
 المسلمون إبراهيم وسعداً وأيدمر والبطرنى ، وكان الأربعة الكفار عبد الصليب
 وشماط القبطان ومسرور الطيار ويعقوب الكناوى ، وكان أيدمر مع
 عبد الصليب ، والبطرنى مع بشماط القبطان ، وسعد مع مسرور الطيار ،

وإبراهيم مع يعقوب الكناوى .

أما أيدير فقد غلب عبد الصليب وقتله ، وذلك أنه حاول أن ينفذ من بين رجله فلم يقدر ، وضغط بهما على رقبته فمات ، وكذلك قتل البطرني بشمات ورماء في البحر ، وأما سعد فإنه قطع بالسيف رأس منافسه ، وأما إبراهيم فإنه استمر يناجز يعقوب ثلاثين يوماً ، وفي اليوم الحادى والثلاثين أشار إلى المسلمين أن يطبلوا ، فلما طبلوا التفت يعقوب إليهم ، وبغته إذ ذاك إبراهيم ورفعته إلى السماء ، وأراد أن يهلكه ، فقال يعقوب : ذلك غدر لا يليق بمثلك ، فقال : ما تغلب به العب به ، ولكنى سأبقيك طمعاً في إسلامك فإن الإسلام أحق بك وأولى ، فاذهب إلى قلعتك ، والزم المقام فيها ، ولا تساعد أهل الكفر أبداً ، فإنك إن رجعت إلى معونتهم قتلتك ، وبودى أن ينتفع بك الإسلام ، فقال : لا بد من الهداية يا إبراهيم ، ولكن لكل أمر وقت معلوم ، ثم رحل بأهله ولزم المقام بهم في قلعه .

ورجع إبراهيم إلى رجاله وأذن فيهم بالرحيل إلى مصر ، فأخذوا يستعدون للسفر ، ولكن دونش ورومان أقسما عليهم ألا يرحلوا حتى يقيما لهم وليمة تكون بينهما رباط صداقة ومظهر وداع كريم .

حضر إبراهيم وسعد وأيدير الوليمة ، أما أبو بكر البطرني وبقية الرجال فإنهم كانوا في الفلك ، فأمر دونش أن يرسل إليهم طعام الوليمة في فلكهم واتهز جوان هذه الفرصة ، ووضع البنج في الطعام المرسل إلى الفلك

بمعونة الملعون دونش ، فلما أكلوه أغمى عليهم جميعهم ، فهض الكفار إليهم وأوثقوا كتافهم ، وأقلعت بهم الفلك ، وجروا بها إلى جزائر الفلق ، وأرسل جوان معهم كتاباً إلى الاصطالود الفلتي ، ودخل الرسول على الاصطالود الفلتي وناولته كتاب جوان ، فقرأ فيه ، من جوان عالم الملة إلى الاصطالود الفلتي ، قدم إليك أبو بكر البطرني ومن معه من المغاربة ، فاقتل البطرني ، واتخذ رجاله أسرى ، تستخدمهم في قطع الأخشاب والحجارة ونقلها ، وبك مني الرضا والغفران ، فاستشار وزراءه في كتاب جوان هذا ، فقالوا : ما أراد جوان بك خيراً ، ولكنه يجرك بهذا إلى الهلاك والبوار ، فأرجع البطرني ورجاله مكرمين ، وسيكون هذا معروفاً لك عنده ، وعند بيبرس ملك المسلمين . فقال : لا أستطيع مخالفة عالم الملة جوان ، كما لا أستطيع قتل البطرني وتعذيب رجاله ، ولكني سأحبسهم في السجن إلى حين ، فإن سئلت عنهم كانوا تحت يدي ، واستخدمت إطلاق سراحهم في دنغ الشر عنى ، وجلب النفع لى ، وإن لم أسأل عنهم نفذت فيهم ما أمر به جوان ، ثم نقلهم إلى سجن من سجنونه ، وألقاهم جميعهم فيه مقيدين ، وأعطاهم شيئاً أيقظهم ، وأزال الإغماء عنهم فانتبهوا ووجدوا أنفسهم محبوسين في أسوأ حال . وكان أمرهم خفياً ، وما علم بهم أحد من أهل رومة إلا جوان ودونش ورسول جوان .

أقام إبراهيم في الولاية ثلاثة أيام وهو غير عالم بما وقع لأبي بكر ورجاله ، فلما رجع إلى قصره طلبه ليأخذ الأهبة للرحيل فلم يجد الفلك ولا أبا بكر

ورجاله ، فغضب غضباً شديداً أغلق في وجهه أبواب الرأى وسد منافذ النظر ، وقال : إن أبا بكر استكثر المال وطمع فيه فأخذه لنفسه وهرب ، وسأتركه بما أخذه ، ولن أرجع إلى مصر بأموال رومة إلا في البر ، فبكى سعد وقال : لا تفعل ذلك يا ابن الخالة ، فإن هذا البر لا يسلكه إلا هالك ، فقال إبراهيم : لا يكون إلا ما قررت ، ونهاه أيدمر ومارين فما قبل ، وقال رومان : لو كان في المسلمين عشرة رجال مثلك للمكوا الدنيا ، فقال إبراهيم : ما كنت عند الملك الظاهر إلا أقل رجاله وأضعفهم ، وأخذ إبراهيم المال وركب طريق البر وارتحل .

ولما سار إبراهيم وجد مارين معه ، فقال إبراهيم : ما شأنك بنا يا مارين حتى سرت معنا ، فقال : إن لي حارساً في قلعة من قلاع المدينة ، وقد أمرني الملك أن آتبه به ، فأردت أن أسير معك حتى أصل إليه ، وفي الوقت نفسه أكون أماناً لك من أى مكروه ، فقال إبراهيم : لولا أنك مسلم وأنا أعلم ذلك لقتلتك فارجم لشأنك ، فرجع مارين بعد أن ودعه ، ودأب إبراهيم في سيره حتى قطع الستين قلعة التي في حكم رومان . ولما بعد عنها بمقدار أربعة فراسخ لقيه جيشان للمكين ، فقال قائلهم لإبراهيم : كيف تأخذون الأموال من رومة ، وترجعون بها إلى بلادكم ، ونحن هنا في طريقكم ، فنادى إبراهيم في جماعته ، قائلاً : يا عصابة الإسلام ، ادفعوا عن أنفسكم الموت ، فن عاش منكم عاش سعيداً ، ومن مات مات شهيداً ، ثم حملوا عليهم حملة رجال صادقين ، وأنزلوا بالكفار البوار ،

فنكصوا على أعقابهم ولولوا الأدبار ، وكان قد قتل من رجاله عدد غير قليل ، واستأنف سيره إلى الديار ، وبعد قليل لقيهم أربعة جيوش في قيادة أربعة ملوك ، فلقبهم المسلمون وأذاقوهم بسيوفهم لباس الهزيمة والفرار ، ودفن إبراهيم من استشهاد من المسلمين ، واستأنف المسير ، ونحاض بعد ذلك معركتين حاميةين هزم فيهما الكفار ، وقتل من معه من المسلمين ولم يبق معه إلا عشرة رجال ، وسعد وأيدمر فقال : أنت يا سعد لحماية المال ، وأنا وأيدمر للقتال ، والعشرة الباقية للحراسة والخفر ، ثم شجعهم وقوى أفتدتهم ، فقال سعد وهو في أشد حالات الخوف والاضطراب : لا تهلك نفسك يا إبراهيم ولا تهلكنا معك فقال إبراهيم : لا تقل هذا ياسعد ، وتوكل على الله فهو حسبنا ، فقال سعد : إن قلبي غير مطمئن ، ولا أتوقع إلا أننا هالكون ، ولسنا براجعين إلى أوطاننا ، وقال أيدمر : ارجع بنا يا إبراهيم ، فما نحن إلا قادمون على هلاك محتوم ، وتذكر الرؤيا التي رآها الملك بيبرس في منامه ، قبل أن نبرح الديار ، وتطأ أقدامنا هذه البلاد ، وتذكر كم كان عددنا ، وكم أصبحنا ، فارجع يا إبراهيم ، ولا تلق بنفسك وبأنفسنا إلى الهلكة ، فقال إبراهيم : أما علمت ما لنا من المنزلة عند الله وعند الملك ؟ أما علمت أن الآجال محدودة ، وأن الموت بإذن الله تعالى ؟ لقد حلفت ألا أسير إلا في البر ، وإن أمطرت السماء جيوشاً من الكفار فلإني أكفيكم شرها ، فاعتمدوا على الله وسيروا .

واستأنفوا سيرهم ، وجدوا فيه حتى كانوا في وادي الأزهار ومنبع الأنهار

فقابلتهم جيوش أكثر عدداً ، فقاتلهم إبراهيم وأيدمر حتى الزوال ، ثم
ولى الكفار هاربين ، فقال إبراهيم ، ما نكص الكفار على أعقابهم في
هذه المرة هرباً مني ، ولكنهم فروا من وجهي لأمر آخر لا أعرفه ، فانظروني
هنا حتى أتبين الأمر وأرجع به إليكم ، ثم استراح قليلا ، وسار وحده
إلى الطريق فوجد غلاماً جميلاً ، ومن حوله ثلاثة وأربعون غلاماً في جماله
وشكله ، فتقدم إبراهيم إلى أحد أتباعه ، وسأله عن هذا الغلام فقال :
إنه ابن الملك مغلون صاحب جزيرة الرتقان ، ومعه أولاد ملوك الجزائر ،
فتقدم إبراهيم إليه وسلم ، فهض الغلام وقال : مرحباً بفارس الزمان ،
اجلس بجانبى ، لا بد لك من طعام الآن ، فقال إبراهيم : شكراً لك ،
فإني لا آكل من طعامكم ، لأنكم تأكلون لحم الخنزير وهو محرم علينا ،
فقال الغلام : اعلم يا أخى أني لا آكل مع هؤلاء مما يأكلون ، ولكني
آكل لحم الضأن ، ولا يقوم بتجهيز طعامي وخدمتي إلا رجال مسلمون ،
فاطمأن قلب إبراهيم ودعا بأيدمر وسعد والرجال العشرة ، وأرسل الغلام
حرساً من عنده لحماية أموالهم ، ثم أحضر لهم جميعهم الطعام فأكلوا ،
وشكروا له كريم ضيافته وهموا بالانصراف ، فقال الغلام : لا بد من
الاستحمام قبل أن تنصرفوا ، ولما نزعوا عنهم ملابسهم رأى الغلام آثار
السيوف في صدر إبراهيم وفي ظهر أيدمر وفي كعب سعد ، فقال : أنت
يا سيدى إبراهيم « بون البون » وأنت يا سيدى سعد طيار ، وأنت يا سيدى
أيدمر فشار ، فقال : إبراهيم : ماذا تعنى بقولك هذا ؟ فقال : أنت تتلقى

الضرب بصدرك ، وأيدمر بظهره ، وسعد بكعبه ، وكره أيدمر من الغلام قوله فيه « فشار » وأصبح عدواً له ، ولكنه كتم ذلك في نفسه ، ولما اغتسلوا وعزموا على الرحيل قال الغلام لإبراهيم : خذ هذا المنديل ، وهذه « النشابة » ، فإن طلع عليك جنود البر وهذان معك ، فلن يثبت أحد منهم أمامك ، فأخذهما إبراهيم وقال : جزاك الله خيراً ، وانصرفوا وكان سعد من أشدهم فرحاً بهذه « النشابة » .

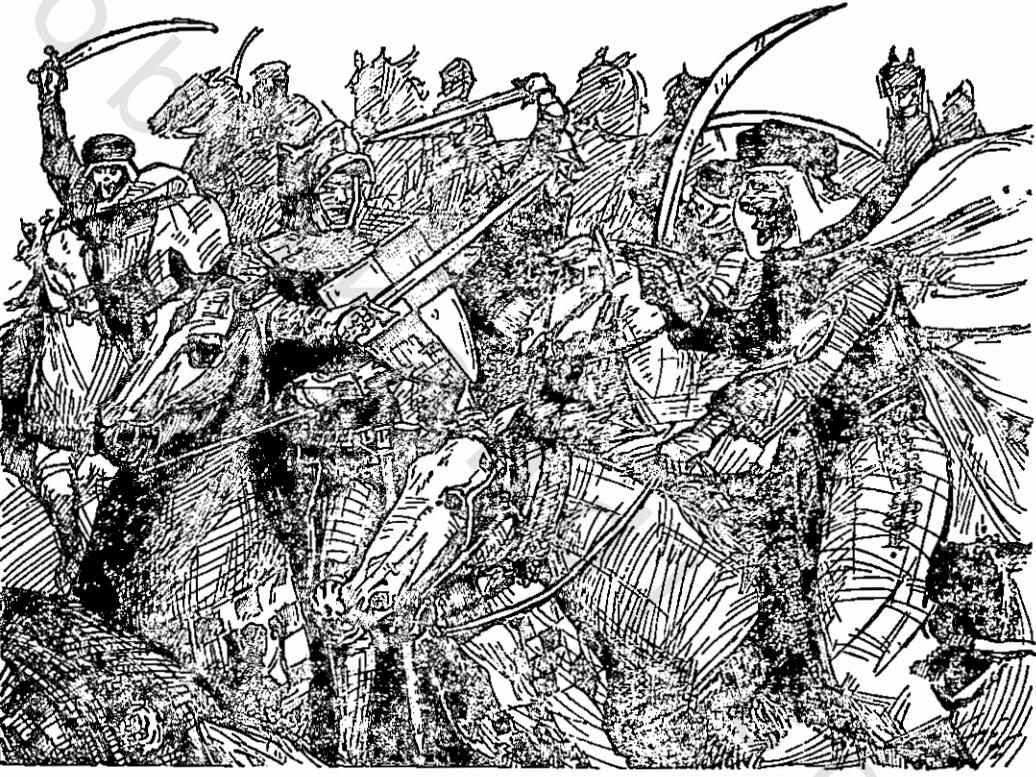
ولما ساروا قال إبراهيم لسعد : إن هذا الغلام شريف ومن نسل شريف ، ولا بد له من الظهور غداً ، فإذا جاء أوانه والتقيت به لأمر من الأمور عايرني وقال : ما حفظك ودفع عنك إلا « نشابتي » ومنديلي ، وحينئذ يكون الموت أهون على نفسى من كلامه هذا ، ورأيت أن من استعان بغير الله ذل ، ثم أمسك النشابة وكسرها ومزق المنديل ، ثم ناول الجميع إلى سعد وقال له احفظها ، فإن طلبتها منك فى أى وقت ولم أجدها معك قتلتك . فأخذها سعد وحفظها فى مكان حريرز عنده ، وسار إبراهيم وصحبه حتى لم يبق بينهم وبين جسر الانجبار إلا مرحلة .

كان هذا الغلام عرنوس ابن الملك مغلون ، فاجتمع به أبناء ملوك الجزائر ، وكان رئيسهم .

ولما قرب إبراهيم من جسر الانجبار ظهرت له جيوش ملأت رقعة الأرض ، وما كان لإبراهيم وأيدمر أن يرفعا سيفاً فى وجوه هذه الجموع ، ولكن إيمانهم بالله واعتمادهم عليه وثقتهم به ، واعتقادهم أنه معهم وانصرهم—

كل أولئك جعلهم يخوضون المعركة ثابتين صابرين ، وجعلوا يجزون الرقاب جزءاً ، ويحصدون الأعداء حصداً ، حتى سقط أيديهم ، وتراكت جثث القتلى من فوقه ، وأصبح إبراهيم يقاتل وحده حتى انقضى النهار وسكت القتال ، ورجع إبراهيم إلى سعد بن دبل وهو متعب مكدود .

وكان جوان هو الذي حرض هؤلاء الملوك على لقاء إبراهيم وقتله في كل موقعة من مواقعه ، وكان إذ ذاك معهم ، وجعل يحضهم على القتال ويؤنبهم قائلاً : كيف تكونون في هذا العدد الذي لا حصر له ولا تستطيعون الفتك بإبراهيم وحده ؟ ! وباتوا وقلوبهم تغلى من شدة وقع هذا الكلام على نفوسهم ، وقال إبراهيم لسعد : إني متعب وأريد أن أنام قليلاً لأستريح فكن حريصاً على ما معك من الأموال ، ونام إبراهيم ثم استيقظ وهو يقول : يا عرث المغيذين ، فسأله سعد عما به فقال رأيت في المنام ما رآه أبي ، ثم نهض واستعد للجهاد والكفاح ، وإذا بملكين قد أتيا إليه فسلما على إبراهيم وقالاه : لقد أتيناك في أمر فيه صلاحك ، وهو أن تعطينا ما معك من الأموال لنحفظها وتأخذ علينا حجة بذلك ، فإن وصلت إلى أمير المؤمنين فسلمه هذه الحجة التي علينا بأموالكم ، لنسلمها إليه بمقتضى تلك الحجة ، فقال إبراهيم : وهل أنتم في طاعة أمير المؤمنين ؟ فقالوا : نحن في طاعته ونعطيه الخراج كل عام . فقال : ولأى شيء كنتم مع جوان وهؤلاء الكفار علينا ؟ فقالوا : أرغمونا على ذلك ، ولا نقدر أن نخالفهم وإلا أهلكونا . فقال : الحق معكم ،



إبراهيم بن حنن ومعه نفر قليل من المسلمين يقاتلون عشرات الألف من الفرنجة

فاكتبوا الحججة وخذوا الأموال ، فكتبوا الحججة وأخذوها ثم قال : كيف أتعب في الحصول على هذه الأموال ، ثم أضيعتها بقطعة من الورق ، وصاح فيهم وطردهم ، فخرجوا من عنده نادمين ، وقال بعضهم لبعض إن المال أصبح في ذمتنا بمقتضى الحججة التي أخذها ، ولا ينبغي أن نفرط فيه أبداً ، لأن إبراهيم لن ينجو من هذه الأمم ولن يسلم .

وفي الصباح نهض إلى الميدان ، وقلبه مطمئن بالإيمان ، وأنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، وكان جوان قد حرض الجموع على اغتياله ، وألبس واحداً من الكفار حلة شريف من الأشراف ، وقال له : اذهب إلى إبراهيم الحوراني وقل حين ورودك إليه : الله أكبر ، فتح ونصر ، ونخذل من كفر ، فإن سألك : من أنت؟ فقل له : إني من أتباع موسى ، وكنت عابراً بهذا الوادي فوجدتك وحدك ، وهؤلاء الألوف من حولك ، فرغبت أن أستشهد في هذه المعركة أو يكون في عوني لك نصر وفوز — قال جوان — ثم تقاتل بجانبه ، وانتهز غفلته ، واقطع بحسامك رأسه .

لبس البطريق الحلة ، وذهب إليه ، وكان قد تهيأ للقتال فقال : الله أكبر . . . فالتفت إليه إبراهيم وقال : من أنت؟ فأجابه بما قال جوان فقال : تأخر عني وقاتل ، فقد فرغت منك ، والاسم الأعظم ما في بدنك رائحة للإسلام ، وإني لني فرع من جوارك وقربك ، وجعل إبراهيم يقاتل والكفار ينهرون عليه انهاراً ، وهجموا على سعد فانبرى للدفاع ، وترك المال وحده ، وهم البطريق الذي لبس حلة الشرفاء أن يغدر بإبراهيم فضربه

بسيفه فأطار رأسه ، ورأى سعد رأس البطريق قد ارتفع في الجو بمقدار
قامة الرجل فظننه رأس إبراهيم فحزن وبكى ، وفر إلى البحر والكفار من
خلفه ، فألقى بنفسه فيه .

أما إبراهيم فقد استمر يقاتل ، ولما دعا سعداً ، ولم يجبه ورأى أمواله
وخزائنه في أيدي الكفار أيقن أن سعداً قد قتل ، فخارت قواه ، وضعفت
يده عن حمل السلاح ، وسقط عن جواده ، وتاه في جثث القتلى من
الكفار ، وكان الليل قد مضى نصفه ، وظن الكفار أن إبراهيم لا يزال فيهم
وهو دائب على قتالهم ، فجعل بعضهم يضرب بعضاً ، ولما بان النهار بحثوا
عن إبراهيم فلم يجدوه ، ففرحوا بفقده ، وهو أن يقتسموا الأموال ، فقال
الملكان الانجبار والمتكبر : إن هذه الأموال في ذمتنا ، وقد أخذت علينا
حجة بها ، ولا بد أن يأتي ملك المسلمين ليثأر لنفسه ورجاله وبلاده ،
ويطلب الأموال التي أخذتموها ، بما في يده من حجة علينا ، فقال جواد
احفظوا هذه الأموال في مكان ، واصبروا مدة من الزمان ، فإن جاء
بيبرس وغلبنا فدينا أنفسنا بهذه الأموال ، وإن غلبناه قسمناها بيننا ،
واتفقوا على ذلك وحفظت الأموال .

° ° °

ألقى سعد نفسه في البحر فابتلعه ، وانصرف الكفار عن طلبه ،
ثم ارتفع على سطح الماء وجعل يعوم حتى أدركه التعب فغطس ، ثم صعد
إلى سطح البحر ، وما زال على هذه الحال حتى أسلم الأمر وانتظر الموت ،

وبيّنا هو كذلك إذ بشيء كالمركب من جريد أخضر ، وله مجدافان من الجريد الأخضر يحمل رجلاً جالساً فيه ، فديده وجذب سعداً من البحر ووضعه بجواره ، ثم أمسك المجدافين وحركهما مرة قائلاً سبحان هاديه ، ثم حركهما ثانية وقال : سبحان مجريه ، وحركهما ثالثة ، وقال سبحان من يعلم ما فيه ، فكان هذا الشيء بقدره الله أمام بلاق بمصر ، وكان هذا الرجل سيدى عبد الله المغاورى ، فوضع سعداً على الشاطئ ، ومضى هو إلى حيث أراد .

ولما طلع الصباح رآه الناس فظنوه غريباً ، ولما تأملوا فيه عرفوه ، فنقلوه إلى مسجد ، وأوقدوا له ناراً ليدفأ ويجربى دمه في عروقه ، ولما أفاق قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، أين أنا؟ فقالوا له : أنت في بلاق بالقاهرة ، فعجب أن وجد نفسه في هذا المكان ، وهو لا يدرى كيف جاء ، وتذكر ابن خالته فبكى بكاء شديداً ، وقام إلى ديوان الملك بيبرس ، ليخبره بما جرى ، ودخل سعد عليه وهو يقول : ذهب الأحباب ، وما جاعنى عنهم خبر ، أين إبراهيم وسعد وأيدمر وأبو بكر ؟ وماذا جرى لهم ؟ ليتنى ما بعثتهم ! فقال الوزير : ثلاثة لا تطلب العجلة فيها : الخبر ، والقمر ، والحمل .

دخل سعد وقال : نعم ، يا ملك الإسلام ، فهض واقفاً وضمه إلى صدره ، وأجلسه بجانبه ، وقال مرحباً برائحة الأحباب ، وأين أصحابك ؟ فجعل سعد يقص عليه ما جرى ، ولما أخبره بموت إبراهيم حزن حزناً

شديداً ، وأقسم أن يجمع الجموع من كل قطر وبلد ويذهب بها إلى هؤلاء الكفار ليثأر لإبراهيم وصحبه ، وأرسل في طلب الجنود من كل أرض تابعة له ، وأولاد إسماعيل ، حتى اجتمع لديه جنود لا تحصى .

أما سعد فإنه انسل من المجلس وسار حتى دخل قلعة حسن الحوراني ، فتلقاه حسن وسلم عليه ، وسأله عن ابنه فحكى له قصته ، فهاج سكان القلعة ، وملاؤا الجو صياحاً وعويلاً ، فلم يجد سعد له في هذا الجو الحزين مقاماً ، وخرج من القلعة ومضى إلى أبيه دبل البيساني في قلعته ، فرحب به أبوه ، وسأله عن ابن خالته ، فأخذ يقص قصته ، وما كاد ينتهى منها حتى كتفه أبوه ، وأمسك خنجره ، وهم أن يذبحه ، وإذا بحسن الحوراني قد أقبل فقال : اقبل شفاعتي فيه ، فقال : إنه نشأ هو وابن خالته ، ولازمه من محياه إلى مماته ، فكيف يموت إبراهيم ولا يموت سعد معه ؟ وكان حسن الحوراني ملثماً ، فقال : ألا تعرفني ؟ فقال دبل : ومن أنت ؟ فكشف اللثام عن وجهه فعرفه ، فقال حسن : لا تعلم الرجلين ، وشفعني فيه ، فقال : أما قتله فقد قبلت شفاعتك فيه ، ولكني لا أحب أن أراه بعد ذلك ، وإن وقع عليه نظري قتلته ، وفك حسن وثاقه ، وخرج سعد من القلعة هائماً على وجهه .

رحل الملك بيبرس بجنود لا حصر لها حتى نزل بهم عند جسر الانجبار ، وامتألت بنجيامهم البقاع ، وألقوا الرعب في قلوب الملك وجوان الملعون ، الذي جعل يخفف عنهم رعبهم ، ويعددهم أن سيكيد للمسلمين ، ويغلبهم على أمرهم بمكره وحيلته .

وفي اليوم الثاني من مقامهم أمر الملك أن تدق طبول الحرب ، فأوعز جوان إلى فارس من الكفار أن ينزل إلى الميدان ، فأسرع إليه ، وصال وجال ، متحدياً من يناجزه من فرسان الإسلام ، وأراد الملك أن يأمر بالخروج إليه ، وإذا بفارس من فرسان المسلمين شق الصفوف ، واندفع إلى الميدان اندفاع السيل ، فما لبث أن قضى على فارس الكفار وطوى حياته ، ثم هوى إلى أذنه فقطعها ، ونظمها في حبل من ليف معه ، وجعل كلما برز إليه فارس من الكفار طواه وقطع أذنه ونظمها في حبله ، ولما انتهى النهار ودقت طبول الهدنة والانفصال رجع فارس الإسلام ، وألقى الحبل بين يدي الملك بيبرس ، فعدوا ما فيه من الأذان فوجدوها ألفاً ، فقال الملك : لله در هذا البطل العظيم ، فقال حسن الخوراني : اعلم أيها الملك أن هذه فاطمة الخورانية أخت إبراهيم ، فقال الملك : يحق لها فوق ذلك ، ولكن الأقدمين قالوا : يا للرجال ! ولم يقولوا أبداً : يا للنساء !

فرها يا حسن ألا تخرج إلى الميدان ، ولما بلغها الخبر أبت ، وأصرت
ألا تترك الميدان بأية حال ، واستمرت سبعة أيام ، وهي تفعل بالكفار
ما فعلته فيهم أول يوم ، والمملك ساكت لا يتكلم ، وكان اليوم الثامن يوم
الأحد ، وفيه الهدنة والسلام وترك القتال . ومد السباط وقت الظهر ،
وأقبل الرجال على طعامهم يأكلون ، فجعل الملك ينظر ذات اليمين ،
وذاوات اليسار ، فرأى سعد بن دبل بين الرجال يأكل مما يأكلون ،
فذهب إليه وأخذه من يده ، وسار به في الخلاء ، وقال : أرني يا سعد
المكان الذي قتل فيه ابن خالتك لإبراهيم إن كنت تعرفه ، فإني أود
أن أقبض منه قبضة من التراب أشم فيها رائحته ، فقال سعد :
لا نقدر أن نصل إلى ذلك المكان ونحن بملابس المسلمين ، فغاب
الملك عنه قليلا ، ثم حضر ومعه حلتان من حلال الكفار ، فلبس كل
منهما حلته ، ثم ساروا حتى انتهوا إلى دكان رجل يصنع الفطير
ويبيعه ، فقال سعد : وقع ابن خالتي في وسط هذا الدكان ، فقال
الملك : ادخل بنا إليه يا سعد ، وظن سعد أنه جوعان يريد الأكل ،
فرحب بهم البطريق صاحب الدكان وقال : أأنتم على دين المسيح ؟
فقالوا : نعم ، وأمره الملك أن يصنع لهم فطيرتين بدينار ذهباً ، فتركهما
جالسين على صندوق بالدكان طوله اثنتا عشرة ذراعاً وعرضه أربع أذرع
فقال الملك : قص يا سعد ما جرى ، فجعل يقص ويقول : والاسم
الأعظم لقد رأيته بعيني قد قتل ، وطار رأسه في الجو أكثر من قامة ،

فسمعوا إذ ذاك من الصندوق الجالسين فوقه صوتاً ضعيفاً يقول : يا سعد يا ابن الخالة ، أنا مازلت حيّاً ، المال مائة وأربعون خزانة إلا نصف خزانة ، فقال سعد : ها هو ذا شيطانه ، تسمع صوته ، فقال الملك في نفسه : كيف يكون مجاهداً في سبيل الله ويكون له شيطان ؟ ! وهم أن يتبين الأمر وإذا بالطريق مقبل بالفطيرتين فقال : أنتم تتحدثون وتتسارون ؟ ! كلوا وامضوا إلى سبيلكم ، فلما أكلوا أغمى عليهم ، فأوثق الطريق كنفهم ، وفي جوف الليل أيقظهم فقالوا : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقال الطريق : أنتم مسلمون أيها اللؤماء ؟ !! قوموا إلى نطع الدم لأقتلكم ، فقال الملك : يا سعد : هل إذا نادينا جمال الدين شيحة يلبى النداء ويحضر ؟ فقال سعد : وأين هو الآن ؟ فقال الملك : وما علينا إذا نادينا ؟ ثم قال : يا جمال الدين شيحة ، أين أنت الآن ؟ وإذا بالطريق رفع عن وجهه اللثام ، وقال : والاسم الأعظم أنا جمال الدين شيحة ، واعلموا أني كنت مع إبراهيم منذ خروجه من مصر إلى أن وقع ، وسوف يظهر لكم كل شيء خفي ، والصبر أجدر بكم وأولى ، واعلم أيها الملك أن جوان دبر لك مكيدة ما سبقه أحد إليها ، وذلك أنه وضع الغماماً في الأرض من البارود وهو محيط بجيوشكم ، يريد بذلك أن يحرقكم ويهلككم فارحل بجنودك إلى الجبال ، واتخذ فيها مساكنكم ، ثم قاتل الكفار إلى ظهر الغد ، فإذا هجموا عليكم ففروا من وجوههم واجعلوهم يميرون من خلفكم حتى يكونوا في المكان الذي فيه البارود ،

وسأقوم أنا بتدبير ما أستطيعه ، ثم قال : امض أنت يا أيها الملك ونفذ ما أمرتك به ، واترك معي سعداً فإنني محتاج إليه في بعض الشئون ، فرجع الملك وقام بما أمره به جمال الدين .

أما سعد فإن جمال الدين ناوله رسالة وقال : اذهب إلى حسن الحوراني وأعطه إياها ليعمل بما فيها ، وائتني بفاطمة الحورانية ، فذهب سعد وأعطاه الرسالة ، فلما قرأها وجد فيها أنه يأمره فيها بالرحيل هو وأتباعه من مكانهم الذي نزلوا فيه إلى مكان بالجبال مع بيبرس ، ولما حضر سعد وفاطمة قال لها جمال الدين خذي سيف أخيك وملابسه وهذا اللوح الصغير والمسمار ، واذهبي إلى الغار الفلاني ، وستجدين فيه جواد أخيك ، ثم ثبتي هذا المسمار في جدار الغار وعلق في فيه هذا اللوح وستجدين بعد ذلك أن هذا الصندوق قد انتقل إليك هناك بإذن الله وعونه ، فإذا جاءك الصندوق فلا تفتحيه إلا بعد سبعة أشهر وسبعة أسابيع وسبع ساعات وسبع درجات وسبع دقائق ، فقالت : إنني لا أعرف هذا الحساب : فقال : لا تفتحيه إلا إذا سمعت طبلا وزمراً ، فقالت : وماذا في الصندوق ؟ فقال : فيه روح القديم ، فإن لي روحين ، إذا تعب روح تركته ولبست الثاني ، فصدقت قوله وظننته صحيحاً ، وذهبت إلى الغار وفعلت ما أمرت به .

أما جمال الدين فإنه وقف أمام الدكان وجعل يلطم وجهه ويصيح : وأبتاه !! فأهرع إليه الناس ، وسألوه عما به فقال إن أبي مات ، وأريد

أن أبيع الدكان ، فاشترها منه أحد الناس ، وغادر مكانه هذا ،
وساح في القفار وهو يدعو ربه ، أن يسهل سبله ويقضى مآربه ، فعثر
في طريقه على رجل معمر يقول : عشت تسعين سنة وما رأيت سقرا !
فتقدم إليه جمال الدين على هيئة بطريق وقال : إن كنت تريد
أن ترى ما أنت في شوق إليه هذه الساعة ، فخذ هذه الأكرة
- وكانت مصنوعة من الكبريت - وألقها في ذلك المكان ، وأشار إلى
مدخل اللغم - فأخذ منه الأكرة وتوجه بها إلى المكان الذي دلّه عليه ،
وذهب جمال الدين إلى أرباب الطبول وقال لهم : إن عالم الملة يأمركم أن
تدقوا الطبول فدقوها ، وأهرع الكفار إلى مكان اللغم يطلبون المسلمين
في أماكنهم ، ليستبكبوا بهم ، ويجروهم إلى هذا المكان ، ورى البطريق
المعمر الأكرة إذ ذاك ، فآلتهب اللغم وأكلت ناره الكفار وهذا البطريق
معهم ، وذهب جميعهم إلى سقر وبئس المصير . وكان الملوك وجوان
قد لاذوا بالحصون ، فلم تمسهم نار الألغام ، وقال جوان لسيف الروم :
ما رأيت مصيبة نزلت بنا مثل هذه المصيبة ، وما زال في قلتي وخوفي
حتى جاء الليل ، فقال لصاحبه : إن وقعنا هذه المرة في أيدي المسلمين
فلا مخلص لنا ولا مهرب ، فهيا بنا إلى القفار ، لنخلص من هذا البوار ،
فقال له : انتظر هنا حتى يقتلك ملك المسلمين كما قتلت إبراهيم بن
حسن الحوراني ، فقال جوان : وحق المسيح ما مات إبراهيم ولا فارق
دنياه ، وسوف يظهر لك خبره ، ثم ركب وصاحبه السبيل إلى القفار .

وترك الكفار طعمة للنار وسيوف المسلمين ، فكانوا بين محترق ومقتول وهارب ، واستولى المسلمون على أموالهم ، وأقبل جمال الدين إلى بيبرس إذ ذاك ومعهم الملوكة في القيود والأغلال ، وذلك أنه تنكر ودخل عليهم في أمأكنهم التي اعتصموا بها فما أنكروه وظنوه من أتباعهم وخدمهم ، فلما وضع الطعام بين أيديهم ، جعل فيه البنج وهم لا يشعرون ، فلما أكلوه أغمى عليهم ، فأحضر جمال الدين بعضاً من رجال المسلمين فشدوا وثاقهم ، وساروا بهم إلى بيبرس يقدمهم جمال الدين ، وكانوا ستة وثلاثين ملكاً ، فأمر الملك بقتلهم ، فجاء السياف وقطع رؤوسهم أجمعين . وجاءه الملك الانجبار والمتكبر ، فقال : لا بد من قتلها ، ليلحقا بأصحابهما . فقالا : أيها الملك لقد جرى منا كذا وكذا ، وأنهم طلبوا من إبراهيم المال ليحفظوه ، وأعطوه حجة عليهم به ، فعرف الملك أنهم لا ذنب لهم وعفا عنهم . جعل المسلمون يتقدمون وينهبون ما يجدونه من الأموال حتى وصلوا إلى حارة قد علق على بابها قطعة من الحرير مكتوب فيها : هذه الحارة مكرومة من أجل أيديمرا البهلوان ، فأسرع رجال من المسلمين إلى الملك وأخبروه بذلك ، فجاءها الملك في الحال وسأل عن ذلك فتقدم إليه رجل اسمه قرقطين الحاجب ، وقال : اعلم أيها الملك أنه حينما وقع أيديمرا ، جاءتني سيدة مهيبة في المنام وقالت : اذهب إلى المكان الفلاني وأحضر إليك أيديمرا فإن علاجه على يدك ، ثم أسلم على يديه لتنجو من عذاب الله فأسرت إليه وأحضرته إلى بيتي وعالجته ، وهو الآن عندي في سلام

وعافية ، فقال الملك : هيا بنا إليه فأخذ قرقطين الملك إلى بيته ، ولما دخله وجد أيدمر سليماً ، ففرح وشكر لقرقطين جميل صنيعه ، وقال عفوت عن هذه الحارة من أجلك ، وإن أنت جئتني في مصر أكرمتك ، فقال قرقطين : إني عازم على الرحيل إلى مصر ، لأنه لا يمكنني المقام في هذه الديار . وانصرف الملك إلى الصوان ومعه أيدمر . . ففرح به الرجال وسلموا عليه وسألوه عما جرى له ولرفقائه فحكى لهم ما كان ، ثم أمر بيبرس الملكين الانجبار والمتكبر أن يحضروا المال فأحضروه كاملاً لم ينقص منه شيء ، وكان بيبرس قد أقسم أن يحرق هذه الأرض ويزرعها بعد أن يبئد أهلها من الكفار وينهب أموالهم ، وقد خطر بباله الآن أن يرحل إلى مصر ويتركها ويكفر عن يمينه ، فجاءه جمال الدين وقال له : نفذ يمينك ، واحرق الأرض وازرعها شعيراً ، فإذا نبت الزرع فاجعل خيلك تأكل منه ثلاثة أيام ، فنفذ الملك ما أشار به جمال الدين ، ثم رحل هو ومن معه إلى مصر ودخلها دون مهرجان وزينة .

أما إبراهيم بن حسن الحوراني فإن أباه حينما رجع إلى قلعة أقام له مأتماً أربعين يوماً ، وبعد أن فرغ من مأتمه جلست أمه إلى جانب الصندوق تبكي وتندب ابنها ، فسمعت صوتاً ينبعث من الصندوق ويقول : لا تبكي يا أماه ، فإني لا أزال حياً ، المال مائة وأربعون إلا نصف حزائة ، فقامت تجرى إلى أبيه حسن ، وكان مريضاً بالحمل فقالت له : إن شيطان إبراهيم ظهر في الصندوق ، فقال : إن المجاهد في سبيل الله

لا شيطان له ، فقالت : تعال معي ، لتسمع بأذنك ، فهض معها إلى الصندوق وقالت له : اجلس وابك عليه حتى تسمع كلامه ، فجعل حسن يبكي ويندب ابنه فسمعه يقول : لا تبك يا أبتاه ، فلا أزال حياً ، المال مائة وأربعون خزانة إلا نصف خزانة .

فعجب حسن وقال : أين فاطمة أخته ؟ فلما حضرت قال لها : ما هذا الذي في ذلك الصندوق الذي أحضرته ؟ فقالت : إن فيه روح شبيحة القديم ، فقال : وهل يجوز أن يكون لابن آدم روحان ؟ إن هذا لا يسيغه عقل إنسان ، ثم انقض على الصندوق فكسر غطاءه ، ونظر فيه ، وكاد يطير من الفرح إذ وجد ابنه فيه ، ولكنه وجد قطعاً على جروحه التي انتشرت في جسمه ، فاستخفه الفرح وصاح : إن جمال الدين طبخ إبراهيم وأرجعه إلى دنياه ، ثم أخرجه من الصندوق ، وجعل يزيل القطن الذي على جسمه ، فوجد جروحاً شفيت ، وجروحاً لا تزال تنزف دماً ، وألبسه ثياباً من نسيج رقيق وأجلسه ، فقال إبراهيم : إني جوعان وأريد أن آكل « كشكاً » ودجاجاً ، فصنعوا له الطعام الذي شاءه ورجب فيه ، ووضعوه أمامه ، وأخذ يأكل .

وبلغ سعد بن دبل أن إبراهيم ابن خالته في قاعة حوران عند أبيه ، فقدم إليها مسرعاً وهو بين مصدق ومكذب ، ودخل عليه وهو يأكل « الكشك » ، فقال : سلمت يا إبراهيم وسلم سيفك ، والله لأذهبن من فوري إلى مصر وأبشر الملك بيبرس بحياتك . ثم انطلق لا يلوى على شيء .

أكل إبراهيم وأفرط ، وكان جوفه خالياً ، فلأه طعاماً ثقيلاً ، فخر مغشياً عليه ، فاضطرب أبوه وقال : على بطيب ، فحفوا سراعاً في طلب الطيب ، فوجدوا رجلين سائرين في ثياب الحكماء الذين يعالجون المرضى فأحضرهما إلى إبراهيم ، فلما فحصوه ، أخرج أحدهم من جعبته شيئاً كالإبرة ، ملوثة بالسّم القاتل ، وهم أن يبيتها في بطنه ، وإذا بتابع يدفعه بيده فرماه على الأرض رمية قاسية ، فصاح حسن الحوراني فيه وقال : شلت يداك ، وجازاك ربك ، كيف تفعل ذلك بالطيب وهو يغيب مريضاً ؟ فكشف عن وجهه اللثام وبان له أنه جمال الدين شيحة ، فقال حسن : أيدك الله ، وبارك فيك ، فقال : لقد ضيعت تعبي يا حسن ، أتدري من هذان الطبيبان ؟ فقال : لا ، فقال : هذا الملعون جوان ، وهذا صاحبه سيف الروم ، وإن ابنتك لن يشفي ما دام هذا الملعون مطلق السراح ، فإن أردت النجاة لابنتك ، فاسجنهما عندك واحذر أن يهربا ، فإنه إن هرب أحدهما قتل ابنتك ، فسجنهما حسن الحوراني مقيدتين ، ثم سقاه دواء فأخرج ما في جوفه ، ووضع القطن على جروحه ، وأرجعه إلى الصندوق ، وأحكم عليه غطاءه ، وقال : لا تفتحوا الصندوق حتى تسمعوا منه طيلاً وزمراً ، وتركهم ومضى .

وكان سبب مجيء جوان إلى إبراهيم أن سيف الروم حزن على إبراهيم ، وكان جوان يقول له : لا تحزن فإن إبراهيم لا يزال حياً ، وكان سيف الروم يقول : إن كنت صادقاً فأرنيه ، فلبسوا ثياب الحكماء وساروا



إبراهيم بن حسن في الصنوبر وحوله أبوه وأمه وأخته

m

حتى طلبهم حسن الخوارزمي . وكان جوان قد قرأ هذا في كتاب اليونان .
 أما سعد فإنه دخل على بيبرس في ديوانه ، فلما رآه رحب به ، وقال :
 أهلاً برائحة الأحباب اللهم ارحم إبراهيم ، فقال سعد : على من ترحم ؟
 فقال : على ابن خالتك . فقال : إن إبراهيم حى عند أبيه يأكل كشكاً ،
 وقد رأيت ، وما أصابه شيء ، فقال : شفاك الله يا سعد ، لقد جنت
 لموت ابن خالتك ، وحق لك أن تجن لموته ، فقال الوزير : تبين منه الأمر
 أيها الملك . فقال : الأمر واضح ، وسأزيده لك وضوحاً ، والتفت إلى
 سعد وقال : من الذى رأيت يأكل الكشك ؟ فقال : إبراهيم ، فقال :
 ومن رأيت يا سعد قد قطع رأسه ، وارتفع في الجو قدر قامة ؟ فقال :
 إبراهيم ، فقال الوزير : لقد أثبت الملك يا سعد جنونك ، إذ قلت له
 قولاً يناقض بعضه بعضاً ، ثم أمر الملك بإدخاله مستشفى المجانين ووصاهم به
 خيراً فأدخلوه فيه .

أعطى الملك بيبرس محمد الهجاء عشرة آلاف دينار وقال له : سر بها إلى قلعة حوران ، وسلمها إلى حسن الحوراني ، فإن فيها تخفيفاً لمصابه ، فسار بها الهجاء حتى أدركه الليل عند قلعة مسباط فدخل على داود وشاهين ، استقبلاه فرحين به مكرمين قدومه ، ولما رأيا ما معه من الأموال رغبا في أن يزوجاه أختها ناقلة الحصون ، وأجابها محمد إلى رغبتها ، فدخل على أختها ناقلة الحصون وقالوا : نريد أن تزوجك من محمد الهجاء ، لأن إبراهيم بن حسن قدمات ، فإذا أنت قائلة ؟ فقالت : إن إبراهيم زوجي في الدنيا والآخرة ، ولن أتزوج من أحد من بعده أبداً ، وإن أنتم فعلتم ذلك فما أنا منكم ولا أنتم مني ، فقالوا : ما كان لنا أن نستشيرك ، ولا بد أن تزوجك ممن نريده ، وتركاها وخرجوا ، ثم أبرما عقد زواجها من محمد بن كامل الهجاء ، ثم قالوا له : نريد عشرين رأساً من الغنم ، لنذبحها ليلة زفافك ، فقال : سأتيكما بما تطلبان ثم ركب وانطلق في البيداء حتى أتى قلعة حوران ، وكان إبراهيم الحوراني قد شق وخرج من الصندوق ، فهجم محمد الهجاء على الرعاة وأخذ منهم المواشى ، وانطلق بها في القلاة طالباً قلعة مسباط ، فصاح الرجال وفرزوا إلى حسن الحوراني وأخبروه بما جرى ، فقال : اسكتوا حتى لا يعلم

إبراهيم بما حصل ، ولكن إبراهيم أحس أن شيئاً هاماً قد وقع وأن أباه يحاول كتمانهُ . فأقبل إليه وسأله : ماذا وقع ؟ فقال أبوه : كانت لنا بقرة فأتت وهي تلد ، فقلت لهم : ارموها في الفلاة إلى الكلاب ، فقال إبراهيم : هات لأمة حربى ، فقال : لا تبرح مكانك يا ولدى حتى تقوى ، فقال : إن لم تحضر إلى ما طلبت قتلت نفسى بيدي ، فأحضر له ما طلب ، وخاف عليه السوء ، فركب ، وسار من خلف إبراهيم ، وانفلت إبراهيم في الفلاة وهو لا يدري أن أباه في إثره . وما لبث إبراهيم أن أحسَّ جرياً سريعاً من ورائه ، فالتفت إليه ، فوجد فارساً كأنه الطود يطلبه ويسرع إليه ، ثم سمعه يقول : هات أجرة الخفر أيها السائر ، فقال إبراهيم : الأرض أرض قريش جدنا ، فقال : جئتك ، فقال : مرحباً بك ، ثم اشتبكا وتصاولا ، ومرت بهما ساعة ما كان أقساها وأبشعها ، ثم ضيق إبراهيم عليه ولصق به ، فرفعه من درعه وقال له : الآن من يعطى رفيقه أجرة الخفر ؟ فقال : كتب الله لك السلامة يا ولدى ، وكشف اللثام عن وجهه فعرف إبراهيم أنه أبوه ، فقال له : لم فعلت ذلك يا أبى ؟ فقال : اشتد خوفى عليك ، فأحبيت أن أختبرك ليطمئن قلبى ، فإن حميت نفسك منى حميت نفسك من غيرى ، وكان منى ما كان ، فقال إبراهيم : طب يا أبى نفساً ، وارجع إلى قلعتك ، ودع ابنك إلى خالقه ، وسلم إبراهيم على والده ، وسار حتى كان عند قلعة مسياط ، فربط جواده في مغارة ، وكانت هذه ليلة الرفاف ، ودخول المهجم على زوجته

ناقلة الحصون ، وكانت الجموع حاشدة ، والقوم سكارى من الفرح ومظاهر البهجة ، فانسدل إليهم واختفى في جموعهم وجعل يخال حتى دخل قصر ناقلة الحصون ، وجلس في أعلاه ينظر ما يكون من أمرها وأمر زوجها .
ولما زف محمد ودخل على زوجته ، انصرف الناس ، وسكت الناطق ، وسكن المتحرك ، وغرق القصر في سكون عميق ، فاستطاع أن يسمع ويعرف ما يجري بين محمد وزوجته .

سمع إبراهيم ناقلة الحصون تقول : لا كان ذلك أبداً ، والله العظيم لن يتصل بي أحد بعد إبراهيم في دار الدنيا ، ثم دفعت محمداً المهجم بيدها وقالت : إن أنت دنوت منى قتلتك يدي ، فلست أقوى منى ، أيها الوجيه الحسيس ، ألم يكن إبراهيم كبيرك وسيدك ؟ ! أليس له عليك حق حامية زوجته من بعده ؟ !

فأخذ محمد يتلطف إليها ويرقيها ، ولكنها لا تزداد إلا إباء وقسوة واحتقاراً له ، فلما أعياه أمرها عمد إلى استعمال القوة والجبروت ولكنها بكت بكاء من يطلب المعونة .

وقال إبراهيم إذ ذاك في نفسه : إن استعانت بي أغشيتها وإلا تركتها وشأنها وانصرفت عنها ، ولما فرغ من حديث نفسه سمعها تقول لمحمد المهجم بحق العهد الذي بينك وبين كبيرك إبراهيم أن تتعد عني ، فقال : مات كبيرى ، وبطل عهده بموته ، ثم دنا منها ، وكانت قد ضاق صدرها ، فقالت : أين أنت يا إبراهيم يا ابن حسن ؟ ! فما أتمت قولها حتى كان إبراهيم عندها ،

فلما رآه محمد أقسم أنه عفريت إبراهيم ، فاصطكت أستانه ، وانحلت مفاصله ، وانخلع قلبه ، فقال له : احضن العمود ، والاسم الأعظم إن صحت لأجعلنك أنت وعمود أربع قطع ، ولا أبالي بمن في القلعة جميعهم ، ثم ربطه إبراهيم وضربه ضرباً أليماً ، وأخذ ناقلة الحصون وخرج بها من حيث أتى وانطلق بها في الفلاة .

انتظر داود وشاهين قدوم محمد الهجاء في صباح ليلة دخوله بأختها فلم ينزل إليهما ، فذهبا إليه عندهما ، فلم يجداها ، ووجدا محمداً مربوطاً ، وقد ضرب ضرباً أليماً ، فاطلقاه وأعطياه جواداً وقال له : اذهب إلى ملك الإسلام وأخبره بما جرى لك ، فركب جواده ، وسار إلى مصر .

أما داود وشاهين فإنهما ركبا ، وسارا في القفار والبرية يقتنيان أثر أختها ناقلة الحصون ، حتى كانا على مقربة من المغارة ، فلما رأتهما عرفهما ، فوضعت اللثام على وجهها ، وتقلدت سلاح إبراهيم وركبت جواده وخرجت إليهما وقالت : من أنتم ، وإلى أين تذهبان ؟ لقد ساقكما الأجل إلى إبراهيم بن حسن لتكونا طعاماً لسيفه ، فخافا وهما بالرجوع فهجمت عليهما ، وأمسكت أحدهما يمينها والثاني بيسارها ، وألقتهما على الأرض ، وقالت : اذهبا من حيث أتيتما فقد أخذت أختكما ناقلة الحصون ، وقد عفوت الآن عنكما من أجلها ، ولولا أنني أعلم أنها تحزن من أجلكما لقتلتكما ، فقاما ينفضان عنهما غبار الذلة ، وركبا حصانتهما ورجعا ، واتفقا على أن يعرضا قضيتهما هذه على ملك

الإسلام ، فسار إلى مصر .

ولما استيقظ إبراهيم حكمت له ما جرى منها لأخويها ، فشكرها ، ثم سار بها إلى قلعة حوران ، فأقام فيها .

دخل محمد المهجاء على ببيرس في ديوان حكمه ، فقال له : أهلاً بمحمد ، هل وصل المال إلى حسن الخوراني ؟ فقال : أخذت المال منك ، وانطلقت به إلى قلعة حوران ، ولما تعبت من المسير دخلت قلعة مسياط لأستريح بعضاً من الوقت ، ثم استأنف المسير إلى حسن الخوراني ، وقد أضافني أهل بيت في قلعة مسياط ، وأعجبتني بنت لهم فزوجنيها ، ولما دخلت عليها في غرفتها نزل علينا إبراهيم بن حسن ، وصلبني على عمود وضربني ضرباً وجيعاً ، ثم انفلت بزوجتي إلى الخلاء ، وقد رجعت إليك شاكياً ، فقال الملك : لا حول ولا قوة إلا بالله ، حتى محمد أصابه مس من الجنون . وأمر أن يرسل إلى مستشفى المجانين !

وحضر بعده داود وشاهين فقالا : ظلمنا أيها الملك ، وجئناك لتكشف عنا ظلامتنا ؛ فقال : ومن ظلمكما ؟ فقالا : إبراهيم بن حسن ، فإنه أخذ أختنا غضباً ، وقتلنا وكدنا نموت بين يديه ، ففررنا منه وجئناك لتأخذ منه الحق لنا ، فابتسم ابتسامة كلها عجب وحيرة ، وقال أرسلوهما إلى المستشفى . ثم التفت الملك إلى وزيره وقال : إن الحزن على موت إبراهيم أفقد رجالنا عقولهم ، فقال الوزير : هذا قضاء الله الذي لا مرد له .

وبعد قليل دخل على الملك جمال الدين شبيحة ، ففرح بقدمه ،

ورجا فيه أن يجلو الغموض في أمره، ويزيل الحيرة من نفسه ، فقال :
يا أخي جمال الدين ، لقد كان موت إبراهيم بن حسن مصيبة على رجالي ،
فأذهب عقولهم ، وكادوا لا يعرفون الليل من النهار ، فهذا سعد بن دبل
قال لي : لقد رأيت بعيني رأس إبراهيم قد قطع ، ثم رجع وقال : ولقد رأيته
بعيني يأكل الكشك عند أبيه في قلعته ، فقال جمال الدين : لقد صدق
سعد والاسم الأعظم ، كما صدق داود وشاهين ، فقال الملك : لا بد أنك
أيضاً قد أخذ منك الحزن على موته مأخذه ، وأثر فيك كما أثر فيهم ، فقال
جمال الدين . إنك معذور فيما تقول ، فاسمع مني قصته ، فقال : حدثني
يا أخي قبل أن يذهب عقلي . فحدثه جمال الدين بما جرى لإبراهيم ، ثم قال :
وقد كنت حاضراً عند إبراهيم ، في كل مكان ، وفي كل حادثة ثم أخذته
من بين القتلى بعد سقوطه ودأوته حتى شفي ، فاستمع لقصة علاجه وشفائه :
كان في قديم الزمان رجل اسمه عبد المسيح ، وكان شيخاً لعلماء
الفلك والنجوم واستفتاء الرمال ، وكان له أرهاط من الجن يخدمونه ، ومن
أجل ذلك خشيه الناس وخافوه . وكان له ولد اسمه عبد الصليب ، فطر
على الفسق والفجور ، حتى ضجج الناس منه ، ولكنهم لا يعترضون
سبيله ، ولا يقفون في وجهه خوفاً من أبيه .

وذات يوم رأى بنت كبير الوزراء ، فهم بها كعادته ، ولكن الناس
أخبروه أنها بنت كبير الوزراء ، فقال لهم : سأتركها احتراماً لأبيها ،
ولكنه تبعها في سيرها حتى عرف بيتها ، ليذهب إليها فيه ، حين لا يراه

أحد من الناس ، ولما بلغ الوزير ما كان من عبد الصليب مع ابنته شكاه إلى أبيه ، وقال له : مر ابنتك أن يبتعد عن ابنتي ، فقال له عبد المسيح إن وجدته في بيتك فاقتله ، وكان عبد المسيح لم يرد بذلك أن يقتله حقاً ، ولكنه أراد أن يقسو عليه ، ويغلظ في لقائه ، ويصرفه عن غيه وفجوره ، أما الوزير فإنه أخذ قول أبيه على عواهنه ، فلما دخل بيته ووجد عبد الصليب فيه دون أن يستأذنه صلبه على عمود وجعل يضربه حتى مات ، ثم وضعه في مكمل كبير ، وألقاه في الخلاء .

وخرج أربعة صيادين إلى هذا الوادي الذي ألقى فيه عبد الصليب ليصطادوا فعثروا بذلك المكمل ، وظنوا فيه شيئاً ثميناً ففتحوه فوجدوا فيه عبد الصليب بن عبد المسيح ، فساروا به إلى أبيه .

أدرك عبد المسيح أن الذي قتل ابنه كبير الوزراء ، فأحضره بين يديه وقال له : لم قتلت ابني ؟ فقال : ما فعلت إلا ما أمرتني به ، فاغتاظ وقال : إنك وزير جاهل ، لا يعرف وجوه القول ، ثم ضرب عنقه ، وكان قد حضر تلك الجلسة حكماء كثيرون ؛ فنهضوا وفحصوا عبد الصليب فوجدوه لا يزال به بقية من الحياة ، فقالوا : إنا نستطيع شفاؤه ، فقال لهم : افعلوا ما شئتم مشكورين .

صنع العلماء صندوقاً على قده ، وصنعوا له حبوباً تغذيه وحبوباً ترويه ، وحبوباً تجر له الأنسام ، وصنعوا تماثيل صغيرة من نحاس عليها رموز وكتابة تجعلها تقوم بهذه الحبوب في فم عبد الصليب ليبقى

حيًا حتى يبرأ ، وكان منها ما يقوم بضرب الطبول والنفخ في المزامير لتسليته ، وأحضروا القطن الذى يضمّدون به جروحه ، ولما هموا أن يضعوه فى ذلك الصندوق وجدوه قد مات .

حزن عبد المسيح لموت ابنه ، وأنطقه الله بسؤال العلماء فقال :
 لقد تعبتم فى صنع هذا الصندوق ، فهل له من فائدة بعد أن مات ابني ؟
 فقالوا : سيظهر فى آخر الزمان نبي عربى ، ويتبعه خلق كثير ، ومنهم إبراهيم ابن حسن الحوراني ، وسيحصل لإبراهيم بن حسن هذا فى رومة كذا وكذا ، ثم يأتيه شيحة الذى يلازمه ، ويضعه فى هذا الصندوق حتى يشفى ويبرأ ، وتعود إليه حياته ، فإن جمال الدين هذا يعرف ذلك من كتاب اليونان ، لأنه سوف يقرؤه ويحفظه ، فقال عبد المسيح : وأين يكون الصندوق حينئذ ؟ وكيف يعرفه جمال الدين ؟ فقالوا : سنضعه فى مغارة من جبل كذا ، ونكل حراسته وحفظه إلى أعوان من الجن ، ونأمرهم أن ينادوا جمال الدين حين يقع إبراهيم تحت سنابك الخيل ويدلوه على مكانه ، فقال عبد المسيح : افعلوا ما قلتم ، ففعلوا ووضعوا الصندوق فى المغارة .

قصّ جمال الدين قصة الصندوق على الملك ، وذكره أنه جلس عليه هو وسعد فى دكان صانع الفطير ، فعجب الملك جد العجب ، وحمد الله على سلامة إبراهيم .

وذات يوم جاء الملك الظاهر كتاب من محمد فارس صاحب الإسكندرية مع رسول يقول فيه : قدم إلى الميناء سفينة كبيرة وفيها تاجر يتكلم بلسان لا يعرفه أحد ، وقد أحضرت له جميع القناصل ، عسى أن يكون من بينهم من يعرف لسانه ، فاعرف أحد منهم لغته ، فأخذته عندي ، وبعثت إليك رسولي بهذا الكتاب لأخبرك بأمره .

فكر الملك ملياً فلم يجد سيلاً يسلكه في أمر هذا التاجر إلا أن يسافر هو نفسه وهناك يفعل الله ما يشاء ، فقال إبراهيم وأنا معك ، وقال سعد كذلك ، وقال عز الدين : إن سمح الملك بسفري معه كان خيراً له . فعسى أن أعرف لسانه ، فقال الملك لا بأس في ذلك ، وسافروا جميعهم في هيئة تجار إلى الإسكندرية وأمر الملك صاحبها أن يخفي أمرهم ، وأن يحافظ على تنكرهم ، واختفاء شخصياتهم في هيئة التجار ، وهناك أمر الملك أن يحضر التاجر إليهم ، فلما جاء حاول جميعهم أن يعرف لسانه فما عرفوا ، ثم استأذنهم في الدخول عليهم سمسار من المدينة ، وقال للملك ائذن لي أن أكلم هذا التاجر فلعلني أعرف لغته ، فأذن له الملك بذلك ، وتكلم التاجر فأجابه السمسار ودار الحديث الآتي :

قال السمسار : من أي البلاد؟ وما الذي جاء بك إلى هذه البلاد؟

وقال التاجر : إني من جزائر الغلف ، وأنتقل في البلاد للتجارة والكسب .
قال السمسار : إن جزائر الغلف بعيدة ، وإن تجارتك ليست من
الكثرة بحيث تحتمل متاعب سفرك وتنقلك بين البلاد المتباعدة ، فأخبرني
بالحق والواقع ، قال التاجر : إني من جزائر الغلف وتجارتي بمقدار حالتي ،
وأنت تدعى أنك سمسار ، فلماذا تسأل عما لا يعينك ؟ !

كان السمسار جمال الدين شيخة ، فقال للملك : إن هذا كافر ،
وقد جاء في مكيدة دبرت للإسلام والمسلمين ، ولهذا فإني لن أفرقه ،
حتى أتبين أمره ، وما جاء من أجله ، ثم التفت إلى التاجر وقال : أنت
غريب ، وأنا غريب لأني من جزائر الغلف ، وكنت « سرداراً » للملك
إصطالود الغلوي ، فأنت من بلدي ، ولك على حق الإكرام وأن أكون
تحت أمرك فيما تطلبه ، وأود أن تعيش معي في بيتي ، لأتمكن من القيام
بالواجب لك ، ولتستطيع أن تتحدث إلي بما شئت ، فليس في المدينة
من يعرف لغتك غيري ، وإذا عزمتم على الرحيل إلى بلدي فسأرسل معك
كتاباً إلى أهلي ، فقال التاجر : أشكرك ويسرنى أن أقيم معك .

أخذ السمسار التاجر إلى بيته فأجلسه في غرفة الضيوف ثم دعا الملك
الظاهر وإبراهيم وسعداً وعز الدين ، وأحضر لهم شرباً ، فشرب التاجر
حتى امتلأ ، ثم طلب المرحاض ، فأخذه السمسار وذهب به إليه ، وهناك
أقفل مجرى البول في جسم التاجر وعصبه حتى لا ينفذ منه شيء ، فكاد
التاجر يجن من حبس البول واستغاث بالسمسار فقال له : لن أريحك ولن

أفك العصابة حتى تخبرني بحقيقة أمرك ، وتبين لي لماذا جئت إلى هذه البلاد؟ وهل أنت من جزيرة الغلف أولاً؟ وإذا كنت منها فإذا حصل فيها؟ فقال التاجر: سأقص عليك الواقع ، ولا أقول إلا الحق :

كان رومان ملك رومة أرسل كتاباً إلى ملك جزائر الغلف مع بشمطة قبطانه ، وكان معه قبطان المسلمين أبو بكر ، فأخذ منه الكتاب وأطلقه ، وحبس أبا بكر قبطان المسلمين عنده ، ولما رجع بشمطة أخبر الوزير مارين بما فعله ملك جزائر الغلف ، فقال مارين للملك رومان إن ملك جزائر الغلف حبس عنده قبطان المسلمين ، فأرسل إليه ليطلق سراحه ، وأنا أذهب إلى ملك المسلمين ليطلق سراح أسرانا عنده ، فذلك أضع لنا ، لأن جوان لا ينشد إلا حرباً تشتعل نارها بين النصارى والمسلمين ، ولا يبالي بكلا الفريقين ، وسواء عنده أمانوا أم عاشوا .

أرسل الملك بشمطة بكتاب منه إلى ملك جزائر الغلف لإصطالود الغلفي وطلب إليه فيه أن يعتق قبطان المسلمين ، ويفك قيود أسره ، فلما قرأ كتابه سمع قوله وهم أن يطلقه ولكنه سمع ضوضاء وجلبة ، فانتظر قليلاً وإذا جوان وصاحبه سيف الروم قد أقبلوا ، فأجلسه الملك وأكرمه وسأله : أين تريد يا عالم الملة؟ فقال : لقد كنت في بجميرة إيفرة ، وقد علمت أحوالك من الحوارى مخبروت ، فجتتكت طائراً على أكتاف الحواريين حتى أكون لك عوناً في تدبير شئونك ، فقال لإصطالود : جاءني كتاب من رومان ملك رومة وهو يطلب إليّ فيه أن أعتق من الأسر قبطان

المسلمين فما رأيك ؟ فقال جوان : إن أنت أطلتته كفرت بملة النصرارى ، وحرمت عليك الجنة ، فبكى إصطالود وقال : وماذا أفعل يا عالم الملة ؟ فقال : قل لبشماطة : ارجع إلى رومان الملك ، وسأطلق سراح قبطان المسلمين بعد سفرك ، ثم اتبني وأنا أدبر لك حيلة تقتل بها ملك المسلمين وتملك بلاده ، من غير تعب ولا مشقة ، ففعل إصطالود ما أمره به جوان ، وسافر بشماطة ومعه كتاب من الملك بذلك ، وهناك أعطى ملكه الكتاب فاطمأن لإجابته .

أما جوان فإنه جهز سفينة ووضع فيها تجارة وأحضر إفرنجياً وهو التاجر الذى لم يعرف لغته أحد - وقال له : لقد قرأت فى كتاب اليونان أنك ستكون ملك المسلمين ، إن كان اسمك بولص ، فقال : يا أبانا اسمى بولص ، فقال جوان : لقد جهزت لك سفينة وملائمتها لك بالتجارة ، فارحل بها إلى الإسكندرية ، وامنح حاكمها كثيراً من الهدايا وانزل عنده ، واجتهد أن تعرف المسالك إلى قصر الملك الظاهر ببيرس ، ثم اتخذ ظلام الليل سراً لك وحجاباً ، واذهب إليه ، واسرقه وإن تمكنت من ذبحه فاذبحه ، وسأمذك يجنود تملأ بلاد المسلمين ، وقد كتبت لك مائة سنة زيادة فى عمرك ، فقال بولص : بخرنى لتحل بركاتك بجسمى ، فبخره وأقلعت سفينته إلى الإسكندرية ، وهناك أخذه السمسار إلى بيته .

عرف جمال الدين شيحة قصة هذا التاجر ، فنقلها إلى الملك الظاهر ، ثم التفت إلى عز الدين وهو من أولاد إسماعيل ، وعاد بعد غياب يطالب بأن

يكون سلطاناً عليهم ؛ وقال له : أتستطيع السفر إلى جزائر الغلف وتخلص القبطان أبا بكر البطرني ، والغراب المنصور؟ إنك إن فعلت ذلك ، ورجعت إلى الإسكندرية تنازلت لك عن السلطان ، فقال عز الدين ، نساfer أنا وأنت ، والله يعطى من يشاء .

فالتفت جمال الدين إلى سعد وقال له : اذهب إلى مصر ، وأحضر إلينا من كان فيها من أبناء إسماعيل ليسافروا معنا ، وليشهدوا ما يكون بيني وبين عز الدين .

وبعد أيام قلائل كان أبناء إسماعيل في الإسكندرية ، وأخبرهم شيحة بما جاءوا من أجله ، فرضوا بالسفر إلى جزائر الغلف ، ثم ركبوا جميعهم السفينة وأقلعت بهم في البحر حتى رست على الجزيرة الأولى ، فلبثوا فيها للراحة ، وصنع لهم جمال الدين عصيدة فأكلوا منها جميعهم ، وظهر على أثر أكلهم لكل منهم سلعة في جسمه ، فظهرت في صدر هذا وظهرت في رقبة ذاك ، وفي ظهر آخر وهكذا ، أما عز الدين فقد انتفخت بيضته ، وصارتا كالبطيختين ، فقال لجمال الدين : ما هذا؟ فقال : إنها أمانة عندك ، فإذا فرغنا أخذناها منك ، فقال : لا أحب أن أحمل أمانة لأحد ، فخذها يا جمال الدين ، فقال : اصبر فإنها حيلة لخلاص الغراب المنصور وأبي بكر البطرني قبطان المسلمين ، فسكت عز الدين على مضض وغيظ ، ثم ألبسهم جميعهم ملابس الرهبان ، وسماهم بأسماء أعجمية مختلفة ، وسمى نفسه البطريق أبا العجائب

ملدعون ، ثم أقلت بهم السفينة إلى جزيرة الغلف الثانية ، فترلوا جميعهم فيها ، وسار أمامهم جمال الدين متكثاً على عكازه ، وجعل يقرأ شيئاً من كتاب الإنجيل وهو لا يخطيء ، ودخل على إصطالود ، وقلبه أثبت من الجبل ، وكان ندى الصوت ، فأطرب الحاضرين بما قرأه من الإنجيل ، وكان جوان جالساً بجوار إصطالود ، وألقى كل منهما على الآخر نظرة عابرة .

أما سيف الروم فإن جمال الدين أفهمه بإشارته ورموزه ما أراد ، وأملى عليه رغبته دون أن يشعر به أحد ، وما عجز سيف الروم عن فهمها .

فماذا أشار إليه ؟ لا تساعد جوان ، فإن معي أبناء إسماعيل ، وهم قادرون أن يقتلوكم ويخربوا تلك الديار ، وإن قهرناكم بالسيف ذبحتك وسلخت جلدك ، وإن أردت النجاة لنفسك ، فأغلق منافذ الحيلة في وجه جوان ، في متاهة من الضلال ، فأجابه سيف الروم بالإشارة ، وقال : لا تخف ، فلن تلقى إلا كل خير .

وناول جمال الدين الملك إصطالود كتاباً ففضه وقرأ فيه :

من رومان ملك رومة إلى إصطالود الغلبي ملك الجزائر : وعدتني في كتابك أن تطلق سراح أبي بكر البطرني قبطان المسلمين ، ولكنك لم تطلقه حتى الآن ، وقد أرسلت إليك البطرني ملدعون أبا للعجائب في حجة رهبان دير نجران ، فإذا فرغت من قراءة كتابي هذا فسلمه البطرني لأرسله إلى ملك المسلمين ، ولا تتبع خطوات جوان ، فإنك إن اتبعته وعملت برأيه جلبت إلى البلاد الخراب والدمار . ثم التفت إصطالود إلى

جوان : وقال له : ما رأيك في كتاب رومان ؟ فأنت الذي أغريتني بعدم إطلاق سراح البطرني ، فقال جوان : هذا كلام فارغ لا أصل له ، فلا هو من رومان ، ولا كتبه رومان ، وما هذا الواقف قدامك إلا جمال الدين شيحة ، السارق المحتال في جيش المسلمين ، فقال الملك : يا ملدعون ، إن جوان يقول : إنك شيحة ، فقال : كذب جوان ، وكيف ينجسني بنسبتي إلى المسلمين ؟ ولتأكد من كذبه فأوقد لنا ناراً ، ثم يقع فيها جوان وسيف الروم وأنا ورهباني ، فإن كان فينا مسلم أكلته النار ، فقال الملك : إنك لصادق ، وأشهد أنك ملدعون ، وما جوان إلا كذاب مجنون ، فقال جوان : لا يرضيني هذا القول . فقال جمال الدين لإصطالود ، ضعني أنا وجوان في قيود من حديد حتى لا يهرب منا أحد ، ثم أرسلنا غداً إلى رومان ملك رومة ، فجعلهم جميعهم في قيود من حديد ، وألقاهم في السجن ، فقال عز الدين : فعلتها معنا يا شيحة ، خيب الله كل قصير مثلك ، فقال شيحة : اعلم يا عز الدين أن الله على كل شيء قدير ، وأنه بعباده لطيف خبير ، وأن الإسلام له رب يحميه ، وما ربك بظلام للعبيد ، فقال : صدقت يا شيحة ، وما كنت أريد إلا أن يزول ما حل بي من انتفاخ البيضتين ، وإن لم يزول هذا عنى أخبرت إصطالود أنك شيحة ، وأن جوان صادق ولا شك في قوله .

وفجأهم بغتة أن رأوا جدار السجن ينشق عن عبد الله المغاوري ،

وهو يردد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الحديد انفصل ، واترك أرجل الرهبان ولا تنتظر .

ثم نقر القيود بإصبعه فانحلت ، ثم أعطى جمال الدين بوقاً وبذلة ، وقال : البسها ، فإن أردت الصعود ذراعاً فازرر زراً ، وإن أردت الهبوط ذراعاً فلك زراً ، وإن أردت الالتفات يمينا وأنت طائر فأدركمها الأيمن ، وإن أردت الالتفات يساراً فأدركمها الأيسر ، وقم الآن وطير إلى الكافر وانفخ بذلك البوق في وجهه ، فستخرج منه نار تشويه ، وبقية العمل عليك يا جمال ، يا سيف الإسلام ، أعانك رب العالمين ، فقال عز الدين : على رسلك يا سيدي ، أجرني من — هذه « القليطة » — من انتفاخ البيضتين ، فقال : هات « القليطة » وخذ القرنين ، فذهبت « القليطة » وصار له قرنان في رأسه ، وقال إبراهيم : اسر وجهي يا سيدي من هذه السلعة التي جعلها شيحة فيه ، فقال : إن وجهك معروف عند كل نصراني ، فخذ هذا البرقع وضعه عليه ، فقال سعد : جعلت واحداً خروفاً ، وجعلت الآخر امرأة ، فقال : اسكت يا سعد حتى تم حيلة جمال الدين ، ويأخذ من هذه البلاد أموالها لتتفع الإسلام ، ثم تركهم وخرج .

خرج جمال الدين ورجاله إلى قصر إصطالود ، وهناك جعل يزور أزواره واحداً بعد آخر ، وهو يرتفع في الجحوظ ذراعاً بعد ذراع حتى كان فوق سطح القصر ، ثم نزل فيه ، ونفخ في البوق فأنار القصر ، وذهل إصطالود حينها وجد الضوء يملأ القصر فجأة وهو لا يدري له سبباً ،

ثم دخل عليه جمال الدين ونفخ في وجهه بالبوق ، فطار الشرر إليه ، فاستغاث به ، فقال : أنا الحواري محرقون ، أرسلني المسيح لأحرقك ، لأنه أرسل إليك البطريق ملدعون أبا العجائب وأمرك أن تطهر بلادك وأموالك فخالفته وحبست البطريق ورهبانه ، وأطعت جوان الذي لا هم له إلا أن يهلك المسلمين والنصارى ، وقد أمرني أن أحرقك وأطهر البلاد ، ثم نفخ بالبوق في وجهه فطار الشرر وأحرق ملابسه فقال : إصطالود : أجزني يا سيدي ، فقد أطلقت ملدعون ورهبانه من الآن ، فقال : ولا بد أن تطلق أبا بكر البطرفي ، وتصلح الغراب المنصور وتنزل فيه جميع أموالك النجسة بمعرفة البطريق ملدعون ، وأرسل معه مائة بطريق من عندك ، ليذهب بأموالك إلى عين سلوان ليطهرها ثم يعود إليك ، وكذلك سلمه جوان ليطهره هناك وليتوب عن السعي في هلاك النصارى والمسلمين وتخريب بلادهم ، ثم نفخ شيحة في البوق فقال إصطالود : أجزني فإني سأفعل ما أردت ، ثم خرج جمال الدين فذهب إلى جوان ووجده نائماً فبنجه ، ثم رجع إلى السفينة ولبس ثياب البطريق ملدعون .

ونفض إصطالود في الصباح فأسرع إلى ملدعون في سفينته ، فوجده يقرأ شيئاً من كتاب الإنجيل ووجد ذا القرنين ، وذا البرقع ، فوقف ذليلاً بين ملدعون وقال : اغفر لي ذنوبي التي سلفت ، فقال : سلمني جوان وصيف الروم اللذين نجسا اسمي وقالوا : إنني شيحة المسلمين . فقال : قم يا سيدي وخذهما ، فأمر ملدعون إبراهيم وعز الدين أن يذهبا مع الملك

ويحضراهما ، فذهبا معه وأحضراهما ، ووضعاهما بين يدي ملدعون وإصطالود .

ثم قال إصطالود : يا سيدى جاءنى حوارى من عند المسيح ، وأخبرنى أن جميع أموالى نجسة ، وأمرنى بتطهيرها ، فكيف أطهرها ؟ فقال : اختر بطريقاً يكون غرقان فى ملة المسيح ، وسلمه أموالك ليطهرها فى عين سلوان ، ثم يرجع بها إليك طاهرة ، فقال : لم أجد من يصلح لهذا الأمر غيرك ، ثم أمر الملك بإصلاح الغراب المنصور ، وسلمه إلى ملدعون وأعطاه جميع الأموال وأطلق البطرنى وجميع من عنده من الرهبان .

ضاق صدر جوان ، فطار إلى ملك جنوة ، وقال له : إن المسلمين فتحوا كثيراً من بلاد النصارى وملكوها ، وقد جئتك لتكون عوناً لنا على طرد المسلمين ، فقال : لقد أطعتك فيما مضى من الأيام ، فخربت بلادى ، وأخذ معروف ابنتى ، فقال : سأجعلك هذه النوبة تملك بلاد المسلمين ، فقال الملك : إن براميل فى حصن السلاسل فاذهب إليه واجعله معنا على المسلمين ، فذهب إليه ، فاستقبله الملك براميل وقبل يديه وقال له : من أين جئت يا أبانا ؟ فقال : كنت عند المسيح ، فأمرنى أن أساعدك يا ولدى لتملك بلاد المسلمين ، فقال ملك جنوة : وما السبيل إلى ذلك يا أبانا ؟ فقال : إن لك أخاً اسمه بتوت ، فأحضره لى ، وسأعلمه كيف يصنع ؟ فلما حضر عرفه ما يفعله ، وجعله فى صفة تاجر ، وأرسله بتجارة إلى الإسكندرية ، ومعه كتاب إلى رجل نصرانى فيها اسمه علاء الدين ، وهو منافق يظهر إسلامه ، ويبطن كفره ، فأرسل بتوت سفينته على الميناء الحرب ، ونقل تجارته إلى خان بالإسكندرية ، ثم ذهب إلى علاء الدين المنافق ، وناوله كتاب جوان ، الذى أمره فيه أن يدل بتوت على سرداب الميناء الحرب ، وأن يخفيه عنده حتى يقوم بأعماله التى كلفناه بها ، فأنزله عنده ، وأخفى أمره ، وفى اليوم الثانى من قدومه ، أخذه إلى السرداب

ونزل فيه وسار حتى وصل إلى الميناء الحرب ، وأقام هناك ، وجعل يسرق أولاد الناس من الإسكندرية والناس يشكون إلى حاكمها ، وهو لا يستطيع أن يعرف السارق ، فكتب إلى الملك الظاهر بذلك ، وطلب منه أن يدرسه أو يرسل من يعينه ، ويكشف عن الإسكندرية هذه الغمة ، فتتكر بيرص في زى تاجر وصافر وحده إلى الإسكندرية ، لأن إبراهيم وصعداً كأنها قد ذهبا إلى قلاعهما .

دخل الملك الظاهر مدينة الإسكندرية متكرراً في هيئة تاجر ، ونزل في خان دون أن يعرفه حاكمها ولا أحد فيها ، وجعل يجوب أنحاءها لعله يعثر على الجاني ، وفي ليلة من ليالي جولانه رأى شبهاً في الظلام فتبعه ، وكان هذا بتوت ، وما زال سائراً خلفه حتى دخل بيت علاء الدين ، فدخل الملك في أثره ، واختفى بتوت في ناحية ، ووضع البنج في طريق الملك ، فلما شمه سقط على الأرض مغشياً عليه ، فأقبل بتوت إليه وكشفه ، ثم أيقظه وقال له : لا ينفعك ملكك ما دام القلم قد جرى بما كتب لك ، فقال الملك : ومن أنت ؟ فقال : أنا بتوت أخو براميل ، وقد جئتك لأقتلك بأمر جوان عالم الملة ، ثم بنجه ووضعه في صندوق ، وأمر رجاله الذين معه فحملوه وساروا به إلى السفينة ووضعه فيها ، ثم أقلعت بهم السفينة إلى حصن السلاسل ، وكان قد تخلف رجل منهم ، لأن السفينة أقلعت وهو يقضي حاجة في المراض ، الذي أطال المكث فيه لأنه كان قد اشتد عليه السكر فنام فيه نومة طويلة ، ولما طلب السفينة ولم يجدها جعل يتردد

بين الميناء القديم والميناء الجديد ، فرآه الرئيس وأمسه ، وسأله من أين أتى ؟ فلم ينطق بشيء إلا أنه نصراني .

وعاد إبراهيم وسعد إلى مصر فلم يجدا الملك الظاهر ، فسألا عنه الوزير فقال إنه ذهب إلى الإسكندرية وحده ، من أجل حادث فيها ، فسار إليه إبراهيم وسعد ولقيا صاحبها وسألاه عنه فقال : إن الملك ما أتى إلى الإسكندرية ولا علمنا به ، فقال : وكيف لا تعلم شيئاً عنه ، وقد جاءك مليئاً كتابك الذي أرسلته إليه ؟ فقال : والله ما رأيته ولا علمت شيئاً عنه ، فتركه إبراهيم وجاس خلال المدينة ، باحثاً عن الملك ، ولما وصل إلى الخان الذي نزل فيه الملك رأى جواده فأمسكه ، وسأل صاحب الخان عن صاحب هذا الجواد ، فقال : إنه خرج ليلة أمس ولم يعد ، وبينما هما يتحدثان أقبل جمعة رئيس الميناء ومعه النصراني الذي أمسكه فيها ، فسأله إبراهيم عن هذا النصراني ، فقال : رأيته مقبلاً من ناحية الميناء الحروب فأمسكته ، فقال له إبراهيم : أأنت النصراني ؟ فلم يجب ولم ينطق ، فقال : أين الملك ؟ فقال : لا أعرفه ، وما رأيته ، فغضب إبراهيم وصفعه على وجهه ، وهز شاكريته في يده فقال النصراني : اصبر يا سيدي حتى أقص ما جرى ، وحكى له ما حصل من أوله إلى آخره ، وبين له : كيف سرق الملك ، فأحضر إبراهيم علاء الدين وأرغمه على أن يقص عليه ما كان من سرقة الملك ، فلما فعل ضربه إبراهيم بشاكريته وجعله نصفين ، وأغلق بيته وأحرق جسده ، وأمر سعداً أن يذهب إلى القلاع ،

ويحضر أبناء إسماعيل ، وبعد أيام قليلة كان سعد حاضراً بهم ، كما حضر جمال الدين شيحة ، الذي أخذ النصراني في يده ، وأرشده إلى السرداب ، وأطلق الأولاد ففروا إلى أهلهم ، وأرسل إلى الوزير في مصر أن يقوم بالجيوش حيث يلتقى به عند مدينة جنوة .

وكان وصول جيش الوزير وبنى إسماعيل وجمال الدين وإبراهيم وسعد إلى جنوة في يوم واحد . فنزلوا هناك واستعدوا للقتال ، وكتب الوزير كتاباً إلى ملك جنوة ، وبعث به إبراهيم بن حسن ، فوقف أمامه وقال : إني رسول وزير المسلمين إليك ، وهذا كتابه إليك :

السلام على من اتبع الهدى ، من الوزير شاهين إلى حنا ملك جنوة ، اعلم أنك اعتديت وظلمت وخنت العهد ونقضت الميثاق ، فأرسلت إلى الإسكندرية بتوت أختا براميل ، فجعل يسرق الأولاد ، ثم احتال وسرق السلطان ، ورحل به إليك ، وذلك أفضح مظاهر الاعتداء ، وقد أتيتك بجنود يطلبون الحياة بالموت ، فإن أردت السلامة ، فأطلق أمير المؤمنين ، واعتذر إليه نادماً تائباً ، فعسى أن يعفو عنك ، وإن عصيت فما جزاؤك إلا ذبحك وصلبك ، وتدمير بلادك ، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ، وما الله بغافل عما تعملون . فالتفت الملك إلى جوان ، وقلبه يتنبض بالخوف وقال : ما هذا الشر الذي فتحت أبوابه من كل ناحية ؟ فقال جوان : إني عالم بما في كتاب ابن الحوراني ، فاكتب إليه بالحرب ، ودع إبراهيم يفعل ما يشاء ، وسأدبر لك ما يجعلك سيدهم ،

والمكأ لبلادهم ، ففعل ما أمره به جوان ، فأخذ إبراهيم الكتاب ، ورجع إلى الوزير شاهين ، وأحضر جوان بتوت وقال له : هذا وقتك ، وما هزيمة المسلمين إلا بيدك ، فقال بتوت : إني لا أبالي بمجموعهم .

وفي الصباح برز ملك جنوة بجنوده ، وجال في ميدان القتال بطل من أبطاله اسمه قريعة . وصاح منذراً متوعداً ، فانقض عليه أيدير البهلوان ، وضربه بالسيف ضربة أطاحت رأسه ، وقضى نهاره في مناجزة الكفار ، فقتل منهم خمسين وأسر عشرين .

وفي اليوم الثاني ، فعل بهم حسن بن عجبور ما أذهل جنود جنوة ، وكان اليوم الثالث عليهم وبيلا ، فقالوا لجوان : لقد رأيت رجالنا يحمصدون حصداً ، وما رأينا من المسلمين أحداً قتل أو جرح ، فقال : لا تخافوا يا أولادى ، واصبروا حتى يكون عدد القتلى منكم ثلاثة آلاف ، فلإني سأعيد الحياة إليهم ، فقالوا : ما هذا الضلال الذى ترمينا فيه ، وهل سمعنا أو رأينا أحداً حي بعد موته ؟ إنك يا عالم الملة لضال أو مجنون ، أو إننا فى رأيك حيوانات تسوقها إلى الذبح فتهرع إليه .

فالتفت إلى بتوت وقال : قم يا بتوت وقاتل فى سبيل المسيح ودينه . فهض مسرعاً إلى الميدان ، وبرز إليه إبراهيم الحورانى فضربه بشاكريته ، وألقاه على الأرض نصفين ، فانهاه النصرارى على إبراهيم ، وانقلت المسلمون يلقونهم ، ونفقت أسواق المنية ، وطارت أرواح النصرارى إلى بارئها شاكية ضلال أصحابها ، ولم يلبثوا

غير ساعة من نهار ، ثم ولوا الأدبار ، ولا ذوا بالفرار واعتصموا بالمدينة وأغلقوا عليهم أبوابها ، وأخبر ملك جنوة براميل بموت أخيه بتوت ، فحلف ألا يسكت عنه الغضب حتى يقضى على المسلمين ولا يبقى منهم أحداً ، ثم دخل على ابنته في قصره ، فرأته حزيناً غاضباً ، فقالت : مالى أراك يا أبى غضبان متوجعاً ؟ ! فأخبرها بقتل بتوت ، وقال : وقد حلفت أن أقتل ملك المسلمين ومن كان معه ، فقالت : إن المسلمين كثير عددهم ، فانزل إلى قتالهم ، فإن قهرتهم فاقتل من تشاء منهم ، وإن أسروك فدينك بهؤلاء الأسرى ، فقال لها : ما أشرت إلا بالصواب ، ثم ركب جواده وتقلد عدته وسلاحه ، وذهب إلى جنوة من سرداب حصن السلاسل فدخل على جوان الذى فرح بقدومه ، وقال : لا تحسبن أن أخاك مات ، ولكن المسيح طلبه ، وعمما قريب يرده ، فاركب إلى المسلمين وقتلهم ولا تخف أحداً منهم ، فإنى أركاك وأكفلك ، وأنصرك على من يبرز إليك ويقاتلك ، فقال : لقد عولت على هزيمة المسلمين ، ثم قتل من عندنا من أسراهم ، فقال : ومن الذى تركته للمحافظة على أسرى المسلمين وحراستهم ، فقال : تركت ابنى سابقاً لحماية الحصن وما فيه ، فقال : كان من الصواب أن يأتى معك ابنك ليساعدك فى قتال المسلمين ، فقال : ما أظنه يرضى بذلك ، فقال : سأرسل إليه سيف الروم ليأتينى به ، ثم كتب كتاباً قال فيه :

من عالم الملة جوان إلى ولدى سابق ، إذا فرغت من قراءة كتابى هذا

فاحضر من السرداب إلى مدينة جنوة ، لتحضر حرب المسلمين ،
وسأساعدك برعايتي وعنايتي . ثم بعث به صاحبه سيف الروم ، فلما
تسلمه سابق ضحك حتى استلقى على ظهره وقال : إذا كانت له رعاية
وعناية ، فلماذا لم يجعلهما الملك جنوة الذى أباد رجاله المسلمون؟ ثم مديده
وأمسك سيف الروم من رقبته ، فظن سيف الروم أن هذه يد شيعة
فسكت ولم يتكلم ، ثم ألقاه على الأرض ، ومزق الكتاب ورماه
مقطعاً في وجهه ، وقال له : اذهب كما جئت ، ثم دخل سابق إلى أمه
وقال : يقولون : إن لجوان رعاية وعناية وبركة ، وأين هي ؟ وإذا كان
الأمر كما يقول ، فلماذا لا يجعلها لنفسه أو لؤلؤاء المظلومين الذين
جعلهم طعاماً لسيوف المسلمين ، وحق ديني ما جوان إلا كذاب أشر ،
فقال أمه : ومن الذى ذكر لك جوان ؟ فقال : أرسل إلى كتاباً ،
ثم أعلمها بما فعله برسوله ، وبتمزيق كتابه ، فقالت : وما الذى أقعدك
عن قتال المسلمين ؟ فقال : إنهم ما ظلموني ولا حاربوني ، ومن الظلم أن
أعتدى على أناس ما قدموا لى شراً ، فقالت : إن لك عليهم ثأراً ، فلإنهم
قتلوا أباك وأنت حدث صغير ، فقال لها : إن أبى براميل حى لم يمت
ولم يقتل ، فقالت : إن براميل الذى لم يقتل أبى ، وأما أبوك
فقد قتله المسلمون ، ومن عظيم شفقة أبى عليك أفهمك أنك ابنه وأنه
أبوك ، حتى لا تعلم أن أباك قد مات فتحزن ، وتعيش يتيماً ، فقال :
إذا كان أبى قد قتله المسلمون كما تقولين فلانى لا أترك أحداً منهم ينشق

نسيم الحياة . ثم قام ومضى في السرداب حتى كان في جنوة ، ودخل على ملكها وجوان ، فلما نظر إليه جوان اضطرب وفرغ إلى سيف الروم قائلاً : إن هذا الغلام أفرغني ، وما أظنه إلا شيحة ، فقال سيف الروم ما أعمى بصيرتك يا جوان ! إن شيحة جاوز عمره الأربعين ، وهذا الغلام حدث صغير ، وما أظنه إلا أنه ابن شيحة لقرب الشبه بينهما ، فاستقبل جوان هذا الغلام كأنه أحب الناس إليه وقال : اجتهد يا بني في الدفاع عن دين المسيح ، وخذ لبراميل ثأره ، فقال : ما أتيت إلا لآخذ بثأر أبي .

وفي الصباح برز الغلام إلى الميدان ، فنزل إليه بهاء الدين مستهزئاً به ، لأنه وجده حدثاً صغيراً راجلاً لا راكباً . وبعد قتال بينهما دام نحو ساعة ، قفز السابق فكان ردفاً لبهاء الدين ، وأمسك خنجره بيده وقال له : إن لم تذهب إلى جنوة مكنت خنجري هذا من عنقك وأعدمتك حياتك ، فسار بهاء الدين بجواده إلى جنوة ، وهناك أخذوه أسيراً . ودام هذا الغلام على هذه الحال مدة عشرة أيام حتى أسركثيراً من رؤساء المسلمين وأمرأهم وأبطالهم ، فغضب الوزير شاهين وقال لإبراهيم أيرضيك أن يكون هذا مصير المسلمين وأنت فيهم ؟ فقال إبراهيم : إذا اشتد الكرب هان ، ثم ركب جواده وقفز إلى الميدان وقال للغلام سابق : دونك والمبارزة يا كلب الكفار ، فقال له : سوف ترى ، وحاول الغلام أن يفعل ما فعله بغيره فوجده حريصاً يقظاً فابتعد عنه ورماه بخنجره فدخل في وركه وجرحه

فقال جرحتنى يا ابن الكافرة ، فقال : اذهب وداو جرحك ثم ارجع لمحاربتى ، وتركه وطار إلى جنوة ، فلقبه الملك فرحاً ، وقال : ما سبقك بهذا أحد قبلك ، ولن يقدر عليه أحد بعدك ، وقال جوان : يا سابق ؛ إن إبراهيم الذى جرحته مشهور بين المسلمين ، وقد أصبح لا يستطيع أن يبرز إليك ثانية ، وإنى لا أزال أدعوك بالنصر حتى تقتله أو تأمره فقال الغلام : لا أحب أن تدعولى أو علىّ ، ثم تركه وطلع إلى القصر يريد النوم فما جاءه نوم ، فتنزل إلى السرداب ومشى إلى حصن السلاسل ، فكان للسرداب ناحيتان ، إحداهما إلى البر ، والأخرى إلى البحر ، فرأى الغلام وهو سائر فيه شبحاً مقبلاً ، فالتصق بجدار السرداب وتناول شيئاً يحميه من البنج ، ومر هذا الشبح بالسابق فتأمل فيه فوجده بطريقاً يونانياً متجهاً نحو حصن السلاسل وهو يقول : إذا كان عون من الله لعبده هياً له السبيل إلى مراده . فسار من خلفه السابق وعلى بعد منه حتى وصل البطريق إلى باب السرداب ، وكان عليه غطاء من الخشب ، فأخرج من جيبه حجراً أخضر وفركه ثم مده إلى الباب وقال باسم الله توكلت على الله ، ورفع الباب وطلع ، ثم رده كما كان ، ثم تقدم السابق ورفع الباب وطلع خلف البطريق ، فرآه قد وصل إلى المكان الذى حبس فيه الملك الظاهر ، وذبح السجان ، وأخذ مفتاح السجن ، فصاح السابق من خلفه ، وأهرع إليه جماعة فأمسكوا البطريق ، وأقبل إليه السابق وقال : بحق دينك ومن تعبه ألسنت جمال الدين شيحة ؟ فقال : بلى ،

أنا جمال الدين شيحة ، فكتفه وحبسه بجانب الملك الظاهر ، فلما رآه الملك مكتفياً قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، لقد كنت معتمداً عليك ، فإذا أنت حبست معي ، فقال : إنما اعتمادنا على الله العلي العظيم فالحب والحب والنوى ، فقال الملك : وإن ربي على كل شيء قدير . وذهب السابق إلى أمه فرحاً ، وأخبرها بما جرى ، فقالت : نصرك رب المسيح يا ولدي ، وبلغك المراد .

ولما رجع إبراهيم جريحاً لقيه سعد فقال : لا تزال يا إبراهيم سيف الإسلام وبطل المسلمين ، فقال : لا تسخر يا سعد مني ، فإن الغلام جسور ، وخبير بالطن والضرب ، وستعرفه إذا التقيت به ، فقال سعد : غداً أريك ما أفعله به إن شاء الله .

وفي الصباح نزل السابق وجال في الميدان ، وجاءه سعد بن دبل ، ونشبت المبارزة بينهما إلى وقت الظهر وحاول السابق أن يقلبه أو يفعل به ما فعله بغيره فما استطاع ، ولما أعياه سعد مشى إلى جنوة تاركاً ميدان القتال ، ثم رماه بقطعة من الرصاص أكبته على وجهه ، ثم نهض السابق مسرعاً إلى جنوة ، فرماه بقطعة أخرى وأكبه ثانية وكاد يقتله ، ثم نهض ودخل جنوة ، وأغلق الباب فرماه بقطعة ثالثة من الحجارة أو الرخام ، وكان الباب قد أغلق فلم تصبه ، ثم دخل السابق على جوان وهو يرتعد خوفاً ، فاستحيا منه ولم يكلمه ، ولكن جوان قال له : لا تخف وسأجعل إبراهيم وسعداً يقمان في أسرك دون قتال ، فقال السابق : وكيف

كان ذلك؟ فقال: سأدلك على سرداب تحت الأرض تسلكه وتخرج منه خلف المسلمين، وحينئذ تسوقهم أمامك بسيفك، فقال له: إن كان الأمر كما قلت فأني سأغلبهم أجمعين، وقام جوان وأخذه إلى ذلك السرداب، فسلكه، وخرج معه فوجد نفسه من وراء المسلمين.

وهناك لقي إبراهيم وسعداً وهما يتحدثان في شأنه. وكان معه بنج فأرسل رايحته إليهما فناما، ثم أقبل عليهما وكتفهما، ثم تركهما ورجع إلى أمه فأخبرها بما فعل، وأنه يريد أن يأخذ معه بطارقة لحملهما، فقالت له: وما ذنب هؤلاء يا ولدي؟ إنى لأعرف لك شبيهاً فيما تفعله إلا جمال الدين شيحة، فقال لها: إن جمال الدين عندي في السجن، وإن أردت أن أحضره إليك أحضرته، فقالت: هاته لأشفي غليل صدرى منه، فإنه جرحنى في صغرى جرحاً لا يزال يتعبنى إلى الآن، وما نفع فيه علاج أو دواء، فذهب إليه وجاء به وهو يقول: أتجرح أمى في صغرها؟ لا بد من الانتقام منك، فقال له: ومن أمك؟ فقال: سترها الآن.

ثم دخل به على أمه وقال: هذا جمال الدين شيحة الذى جرحك في صغرك، فقالت: اربطه في السرير حتى أعذبه العذاب الأليم، فربطه وتركه إلى إبراهيم وسعد ليحضرهما، فوجد عندهما على بن الشباح فرجع من فورهِ إلى أمه فوجد باب الحجرة مغلقاً عليهما، ونظر من شق في الباب فوجده نائماً بجوارها كأنه زوجها، وذلك أنه لما تركهما قالت لجمال الدين: أيجوز أن يفعل الملوك بزوجاتهم ما فعلته بي يا جمال الدين؟

أصبح في دين الإسلام أن يتزوج الرجل ثم يهجر زوجته لأنها تركت دين الكفر ودخلت في دين الإسلام ؟ فقال شيخة : حاش لله أن يكون ذلك ، فقالت : أنت فعلت معي ذلك ، فقد دخلت في دين الإسلام وتزوجتك ثم هجرتني ، فقال : ومن أنت ؟ فقالت : أنا مريئة بنت صاحب الخان ، فقد تزوجتني في مصر ، وكان صداقي عقد الجوهر هذا الذي تراه في عنقي ، وقد حملت منك بهذا الغلام ، وسميته السابق ، وهو ابنك وأنت أبوه ، وأنا أمه ، ثم قامت ، وفكت رباطه وقالت أين الود الذي بين الرجل وزوجته ، لقد هجرتني ثمانية عشر عاماً ، ما رأيتك فيها ولا رأيتني ، ولكن هذا قضاء الله وقدره ، فتعانقا ونهض إليها وجلس بجانبها ثم اضطجعا متعانقين ، وجاء السابق ورآهما من شق الباب وهما على هذه الحال ، فضرب السابق الباب وكسره ، ودخل يبغى قتل جمال الدين فقالت أمه : تخلد في النار يا ولدي إن مددت يدك على أهلك وأمك ، فقال لها : ومن هو أبي ؟ فقالت أبوك جمال الدين هذا ، وأنا أمك ، وأما براميل فهو بطريق من الكفار حكمنا هذه المدة حتى بان لك الحق وظهر ، فقال : ولأى شيء لم تخبريني أني مسلم ، حتى أهاجر بك إلى بلاد المسلمين ؟ فقالت : لو علم النصراني أنك مسلم لقتلوك ، فقال : ما دمت أبي فعلمني الدخول في الإسلام ، فقال أن تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقالت السابق بقلبه ولسانه ، وفرح جمال الدين بإسلامه ، وقال : وجب عليك يا ولدي حينئذ أن تؤيد

الإسلام وتنصره ، فقال : أرشدني إلى أقوم سبيل لتأييده فقال : أن تقبض على جوان وسيف الروم ، وأن تطلق سراح الملك الظاهر وأسرى المسلمين ، وأن تحارب الكفرة اللثام أعداء الإسلام ، فقال : ذلك أمره علينا يسير .

ذهب السابق إلى براميل وقال له : قم بنا إلى ملك المسلمين ومن معه لنقتلهم ونفرغ إلى غيرهم ، فقام معه ، وسارا في السرداب ، وحينئذ قال السابق له : اعلم أني دخلت في دين الإسلام ، وأريد أن تدخل فيه أيضاً ليدوم احترامى لك ، وتقبيلي يديك ، كما أحترم أبي جمال الدين وأقبل يديه ، فغضب براميل وأمسك سيفه وهم أن يضربه ، وإذا بضربة من سيف أطاحت رأسه ، وكان الضارب عز الدين .

وذلك أن جمال الدين بعد أن تركه ابنه السابق ذهب إلى الملك الظاهر وأخبره بما جرى وأطلق سراحه ومن معه . ثم تركهم إلى جنوة فأطلق الأسرى من المسلمين ، ونزل بهم في السرداب ، فرأى عز الدين السابق وبراميل وهما يتحدثان ، ولما هم براميل بالسابق ليقنتله أعجله عز الدين بضربة من سيفه أردته قتيلا . ثم طلعا إلى حصن السلاسل فأهلكوا من فيه ، ثم ذهبوا إلى جنوة وهجموا على الكفار هجوما الصاعقة ، وجعلوا يقتلونهم حتى صاحرا : الأمان الأمان ، يا ملك الإسلام فنادى فيهم : لا أمان إلا لمن يدخل في دين الإسلام ، وهكذا نصر الله دينه وعباده الصالحين .

وفي الصباح كان الملك الظاهر جالساً على عرش جنوة ، فدخل عليه جمال الدين ومعه الملك حنا وجوان وسيف الروم ، فأوقفهم بين يديه ، فقال الملك الظاهر : ألم يكن لك يا حنا عبرة وعظة بما جرى لك سابقاً؟ فقال : وما ذنبي أيها الملك ، إن ملك حصن السلاسل هو الذي دفعني إلى ذلك ، وقد قتل ، فقال الملك ولأى شيء لم تمنعه ؟ فقال : حاولت منعه فما أمكنتني من جوان هذا ، فقال جوان : ألم يكن لك عقل ؟ ولم تطيعني وتكون سبياً في الخراب؟ فقال حنا : صدقت يا جوان ، وما كان لي أن أهمل عقلي ، وأكون ظلاً لغيري ، وأستحق أكثر من هذا الذي جرى لي ، ولكني يا ملك الإسلام قد اشتريت نفسي بنفقات جيشك ، ومضاعفة خراجك ، وإن عدت إلى مثل ذلك فلا غفران منك ، وجمال الدين يضممني ، فقال جمال الدين : اعف عنه ، وأنا الضامن ، فعفا عنه ، أما جوان فعذبوه وأطلقوه هو وصاحبه ! ثم نهبوا ما في حصن السلاسل وخربوه ، ثم أذن مؤذن المسلمين بالرحيل فارتحلوا إلى مصر غانمين منصورين !

وجلس الملك الظاهر يوماً في حجرة جلوسه فوجد ورقة قد كتب فيها :
 أيها الملك الظاهر ، احترس لنفسك فإنك اعتديت وظلمت فأعطيت شيحة
 القصير ملك القلاع ، فأرسل إلى في العادلية سلطان القلاع ، وإن خالفت
 أمرى أخذتك بيدي وإن كنت في نخوم الأرض أو جلست فوق السحاب ،
 وإن أردت أن تعرف اسمي فأنا ملك الدنيا جبل بن رأس الشيخ مشهد .
 فخرج الملك إلى الديوان والورقة في يده ، وأقبل إليه تابع من أتباع
 جمال الدين وقال : رأينا في الصباح كتابة على قلعة جمال الدين وهي
 تعلن عزله وأنه لا ملك إلا جبل ، فقال : سمعت وعرفت ، وكان
 جمال الدين غائباً ، وجلس الملك للأحكام .
 وكان جبل بن رأس الشيخ مشهد جالساً يوماً فقال له أحد أتباعه :
 ما رأيت مثل شيحة في الخيل ، وله فيها طرق لا تخطر على قلب بشر .
 وطلع عليهم إذ ذاك من كبد البر رجل بدوى على ناقة حمراء ، فسلم
 عليهم ، وردوا عليه السلام ، وقال جبل : إلى أين تسير ؟ فقال البدوى :
 إلى رجل عابر سبيل ، فقام إليه جبل وقال : أتريد أن تصيبنى بجيالك ؟
 والاسم الأعظم ، ألسنت شيحة ؟ فقال : بلى ، أنا شيحة ، فكتفه
 وأراد أن يأخذه إلى قلعته ، ولكن أيدهم أقبل عليهم ومعه كتاب من

الملك الظاهر ، ففض جبل الكتاب وقرأ فيه : إن سلطنة القلاع ليس لي فيها يد ، وأمرها بينك وبين شيحة فإن غلبته كانت لك ، وإن غلبك ووقعت في يده أخرج لبن أمك من بين أظافرك ، فضحك جبل ، وقال له أيدير : هات المكافأة ، فكتب له ورقة بنصف أردب من الشعير وقال له : خذها من قلعتي لأنني هنا لا أملك شيئاً ، ثم قال : إن الملك يحذرنى جمال الدين شيحة مع أنه في أسرى ، ثم أحضره بين يديه وضربه مائة سوط ، وأراد أيدير أن يشفع له ففهره جبل وزجره ، ثم رجع أيدير باكياً ، وأخبر الملك بما جرى له ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولما جاء إبراهيم وسعد حكى لهما ما فعله جبل بجمال الدين شيحة ، فقال إبراهيم إن كان المقدم جبل قد ظهر فقد ذهبت ريح شيحة ، وانقضت أيامه وبطلت حيله ، فقال الملك : حينئذ يجب علينا أن نغيثه ونخلصه من سجنه ، فقال إبراهيم وسعد : ونحن معك ، ثم ركبوا وساروا حتى دخلوا الشام وجلس الملك على كرسيه .

وبينما هم جلوس في ديوان الشام دخل على الملك رجل يشكو ظلاماً ، فسأله الملك : ومن ظلمك ؟ وما ظلامتك ؟ فناوله ورقة وقال : ظلامي كتبتها في هذه الورقة ، وأخذ الملك يقرأها ، وإبراهيم وسعد جالسان عن يمينه ويساره ، وهما مطرقان ، فانهز الرجل فرصة غفلتهما وإطراقهما ، ورفع يده بسيفه وهوى به على الملك ، وكان الملك الظاهر شديد الإحساس يقظ الانتباه ، فأدرك ذلك وترك الكرسي في سرعة عاجلة : فهوى السيف عليه ، وانتبه إبراهيم وسعد فقاما إلى الرجل بمسكانه ، ولكنه انطلق في

الصحراء كأنه الريح ، فتبعه إبراهيم وسعد ، وألزهما الملك بإحضاره ، وكان هذا الرجل المقدم جبل بن رأس الشيخ مشهد .

واستمر يجرى حتى دخل دير التقديس بجوار قلعة صوانة ، فوجد فيه طائفة من الرهبان يتلون الإنجيل وبطريق الدير بينهم يفسر لهم ما يقرءون ، ويبين لهم الحلال من الحرام ، فأراد أن يعمل فيهم حسامه ، فقال البطريق : ولم تقتلنا أو تؤذينا ونحن ما قدمنا لك إساءة ، ولا قتلنا لك أحداً ، ولا صلة لنا بالناس ، وإنما نحن عاكفون في هذا الدير لا يجرى على أيدينا إلا كل خير ؟ فقال : قد خاصمت الملك الظاهر ، وأريد أن أقيم في هذا الدير حتى أفضى أمرى معه ، ولكني خشيت إن تركتكم أحياء ، أمسكتموني وأسرتوني ، أو أعلمتم بي أحداً من المسلمين ، فقال البطريق : إن كنت حذراً فخذ حذرنا من شيعة ، فإن له من عجائب الحيل ما لا يحظر على قلب بشر ، فقال : إن شيعة محيوس عندي ، فقال البطريق : أصبح الآن بقية المسلمين أعجز من الأطفال الرضع ، فاتخذ من هذا الدير مخبأ ، وأقم فيه ثم اخرج إلى المسلمين كل يوم ، وهات من تأسر منهم إلى هذا الدير ، فاذهبهم وارمه في الجب حتى تفرغ منهم ، فقال : وأين الجب ؟ فقال : إنه من خلفك فارفع الغطاء الرخامي وانظر فيه تجده كما قلت لك : فرفع جبل الغطاء ووجد الجب كما قال البطريق ، فاطمأن إلى قوله وجلس ، وأحضر له البطريق طعاماً فما ازدرد أول لقمة حتى استلقى على الأرض فاقد الوعي ،

فكفنه البطريق ، ثم أعطاه شيئاً فأفاق من غشيته ، فنظر جبل إلى البطريق وقال : من أنت ؟ فقال : أنا الذى ضربته وما استحييت ، وسأذيقك الآن أليم الضرب . وأقبل إبراهيم وسعد إلى جمال الدين وسألاه : كيف خلص من سجنه فقال : عرف ابني محمد السابق أن جبل سجنني في قلعة الصخر ، فجاءها ليلاً واختلط بأتباعه ، وفي الليل دخل على وخلصني ، وقال لي أدرك خصمك فإنه أتجه إلى الشام ، فسار شيخة وعثر في طريقه بذلك الدير ، وكان معه ابنه وجماعة من أتباعه ، فدخلوا الدير وقتلوا من فيه ثم أقاموا في الدير على صفة الرهبان ، وكان شيخة بطريق الدير ، ومحمد ابنه بوابه ، فلما دخله جبل جرى له ماجرى من جمال الدين . وقال إبراهيم : إن الملك الظاهر ألزمننا بإحضاره فقم يا جبل وأجب دعوة الملك الظاهر ، فقام جبل ومشى معهم راجلاً ، مكتفياً حتى وقف بين يدي الملك الظاهر فقال له :

لماذا عصيت ؟ فقال : وما ميزة شيخة حتى يكون ملكاً علينا ؟ فقال شيخة : لا تطلب ما لا تستحق ، والأمر بيني وبينك بالحجة ، ثم أمسك السوط في يده وقال : إنك ضربتني مائة سوط واحتملتها ، فإن احتملت بهذا السوط ، ثمانين ضربة ، تركت لك ملك القلاع والحصون ، فقال جبل : قد يكون سوطك هذا مسموماً ، فقال شيخة : فإذا تريد ؟ فقال جبل : نركب إلى أحد ملوك الروم لقتاله ، فن غلبه منا كان ملك القلاع له ، فقال شيخة : رضيت بذلك .

جاء الملك إذ ذاك تابع من أتباع موسى بن حسن القصاص ،
وقال : مررت بقلعة لملك اسمه صليب الروم ، وقد أغراه جوان بقتال
المسلمين ، والخروج من طاعتك ، فاستمع لقوله ، وأطاع كيده ،
وجمع الجموع لغزو بلاد الإسلام ، فأنعم الملك على هذا التابع ،
وأراد أن يجهز جيشاً لقتال هذا الملك وتأديبه ، فقال شيحة : لا تتعب
نفسك ، فأنا وجبل خصوم هذا الملك وغرماؤه ، فن فتح قلعته منا
وجاء به أسيراً فهو ملك القلاع والحصون ، فقال جبل : ذلك حق ،
وقد رضيت به ، وهذا أمير المؤمنين شاهد علينا ، والله خير الشاهدين ،
ثم ركب جبل وتوجه إلى قلعته .

دخل صليب الروم دير حنا بالقرب من القلعة فوجد فيه بطريقاً
واقفاً ، ويده كأس نحاس ينقره بيده ويقرأ بصوت جميل ، فطرب صليب
الروم بصوته وتقدم إليه وقبل يده ، ثم وضع في كفه قبضة من الذهب
فرماها البطريق وقال : مالى وللدنيا وأموالها وزينتها؟ ليس لى منها إلا
ما أكلت فأفانيت ، ولبست فألبيت ، فتعلق بمحبته صليب الروم ،
ورجا عنده الخير ، وقال : أرجو منك أن تتفضل على بوجودك في قلعتي ،
وتدعو لى أن ينصرفني المسيح على المسلمين ، فقال البطريق : يا ولدى

أما الدعاء فأني داع لك ، وأما ذهابي معك إلى قلعتك فلن يكون ، فقال صليب الروم : ولماذا ؟ فقال : لأن عندك جوان ، وهو يكره جميع البطارقة والرهبان ، وإن رأى البطريق الكبير قال : إنه جمال الدين شيحة ، وهو في ذلك معذور ، لأنه يخاف أن يقتله شيحة ، فلا يكون في الدنيا جوان ، ولأنه يحقد على جميع البطارقة ، ويود ألا يكون في الدنيا عالم في الملة المسيحية غيره ، ولهذا فأني لأحب أن أراه ولا يراي ، فقال صليب الروم : لقد عرفت أن جوان ناقص العقل ضعيف الرأي حينما رأيته يرقص كالمجنون وقت أن أسرت جماعة من المسلمين ، فقال البطريق : إني أعلم أنه مأفون وجاهل أحمق ، فإن أنا ذهبت معك قال : إن هذا جمال الدين شيحة ، وربما صدقته أنت وأذيتني ، فحق عليك غضب المسيح ، وخلصني من شرك الخواريون فقال صليب الروم : وحق المسيح يا أبانا ، إن قال جوان إنك شيحة لأقتلته ، ففضى البطريق معه ولما رآه جوان قال : يا صليب الروم ، من هذا الذي معك ؟ فقال : اسكت يا جوان ، ولا تدخل فيما لا يعينك ، وحق المسيح إن قلت عن هذا البطريق إنه شيحة لأقتلك وإن أيدك المسيح في قولك ، وقال سيف الروم : إن جوان هذا ما رأى في حياته بطريقاً صالحاً إلا ادعى أنه شيحة ، فإن وجد ملكاً عاقلاً كذبه ، وإن وجد ملكاً مجنوناً صدقه ، وأنزل بالبطريق الضرر أو القتل ، فتنصب عليه لعنات المسيح وغضبه ، ويكون جزاؤه القتل ، وفناء جنده ، وتخريب بلاده ، فقال جوان :

ما هذا الكلام يا سيف الروم؟! فقال: إنه الحق، وأنت تكبره علماء الملة النصرانية، ولا تسعى إلا في إيذائهم وقتلهم، حتى لا يكون في الدنيا عالم غيرك، وقال مقدم من أتباع صليب الروم: قم يا جوان وخذ سيف الروم معك واجلس في خيمتك، وإن لم تعجل باعتزالنا قتلتك وصلبتك، فأخذه سيف الروم وقال: قم يا نجس، فقد أحكم المعلم صنعته.

ونظر البطريق إلى الجنود الراكعين أمام صليب الروم ورأى من بينهم جبل بن رأس الشيخ مشهد، فقال للملك: أرى أن تقبض على هذا الفارس الطويل الواقف بين هؤلاء الجنود، فإنه مسلم، وفارس جبار لا يطاق، وسأدبر لك حيلة للقبض عليه، لأنه ذو بأس شديد، ولا تنفع فيه القوة ولا كثرة الجند، ثم أخرج من جيبه بعضاً من لوز مقشور، وجعل يوزعه على الواقفين ومنهم المقدم الذي أندر جوان بالقتل إن لم يعتزلم، وكذلك أكل جبل فوقع على الأرض مغشياً عليه، وحينئذ أمر صليب الروم أن يكتف وبقيد، فنفذوا أمره.

ولما أيقظوه نظر إلى البطريق وقال: ما أنت إلا جمال الدين شيحة، وقد خدعت الملك صليب الروم وظهرت أمامه على هيئة بطريق كبير، فقال صليب الروم لجبل بن رأس: أنت مسلم؟ فقال: نعم، أنا مسلم، وهذا شيحة الذي يخرب بجيله بلاد النصارى، فاقبض عليه، ثم اقتله واقتلني معه، لتنجو من شره، وقال المقدم لم أردت إيذاء هذا الفارس؟ - مشيراً إلى جبل - فقال البطريق: لأنه سارق وقد نهي المسيح

عن السرقة ، فقال المقدم لصليب الروم : لا شأن لك بالطريق وتابعه ، فدعه يؤديه ويصلح شأنه ، وما علينا إلا أن نصلح بينهما ، فقال : أنت تعلم عقيدة البطارقة وأحوالهم فأصلح أنت بينهما ، فساق المقدم جبل بن رأس إلى سجن بالقلعة وهو يضربه لعصيانه الطريق وسرقته أموال الناس ، وجبل بن رأس في عجب عجاب من إهمالهم نصحه ، وبات جبل ليلته وهو في غم من عجزه ، وضعف حيلته .

وفي الصباح دخل عليه الطريق وقال له : يا جبل ، إن قلعة صافينا قد فتحت أبوابها ومدافعها عطلت وحراسها ذبحوا ، فخذ سلطنة القلاع والحصون .

ثم فكه من قيوده وأعاد إليه حريته ، فنهض واقفاً ، فقال له : اذهب إلى الملك الظاهر ، وأخبره أنك فتحت القلعة بسيفك ، فقال جبل : إن الذي يعصيك لثيم غادر ، وما أنا إلا في طاعتك ومن أخلص أتباعك ، وأوفى أعوانك ، وكتب اسم شبيحة على « شاكريته » فقال له : هيا بنا إلى الملك الظاهر .

ورحلوا إلى بيبرس ودخلوا عليه في الشام ، وقصوا عليه ما كان ، وقال جبل إنى أطعت شبيحة وأصبحت من أتباعه ، فأنعم الله الملك عليه وأعطاه جواداً كريماً . فركبه وسار به في البرية فرحاً بهدايته إلى الرشاد .
و بينما جبل بن رأس يسير في البرية ، وجد غابة ، فنزل عندها للراحة فطلع عليه اثنان عرفهما وكانا من أولاد أخته ، وكان قد بلغهما ما بين

شيحة ونخالهما ، فخرجا إليه ليساعدها ، والتقيا به عند هذه الغابة ، وقال له :
 إنك تلبس حلة فاخرة ، ومعك جواد كريم ، فويل أأخذت القلاع من شيحة ؟
 فقال : والله إن شيحة يستحق أن يكون ملكاً على جميع القلاع ،
 وما خالكما إلا قطرة من بجره ، وحكى لهما ما جرى ثم قال : ولما رأيتني أقل
 منه كتبت على شاكرتي اسمه ، وها أنا ذا راجع إلى قلعتي . فأنكر عليه
 طاعته ، وضرباه بسيفهما وتركاه جريماً ، وكان النهار قد أوشك أن ينقضي .
 ووجد الرعاة وهم عائدون جبلاً ملقى على الأرض جريماً ، فأخبروا أحد
 أتباع وإلى الشام فجاءه ونقله إلى مستشفى الشام ، ثم دخل على الأمير
 عيسى وقال : إني وجدت فداوياً اسمه جبل ملقى على الأرض جريماً ،
 وهو من أتباع شيحة ، فنقلته إلى المستشفى فأرسل عيسى في الحال إلى
 الملك الظاهر وأخبره ، وكان في ولية في قلعة المعرة عند سليمان الجاموس ،
 فقام في ساعته ورجع إلى الشام ، وأبى سليمان الجاموس إلا أن يكون معه ،
 وذهبوا إلى جبل في المستشفى ، وسأله الملك عن الذي جرحه ، فقال :
 الذين فعلوا بي هذا من لحمي ودمي ، وما حملهم على ذلك إلا جهلهم ،
 ولا يتعبنى الآن إلا هذه الجروح فإني لا أذوق النوم من شدة آلامها ،
 فقال إبراهيم إني أعرف بالشام رجالاً يداون الجروح ، فأمره الملك أن
 يأتي بأحدهم ، فقام وأخذ سعداً مفه وخرجا من المستشفى وسارا فوجدوا
 دكاناً به آلات الجراحة وقد وقف على بابيه صاحبه ، فقال إبراهيم له :
 أتعرف أن تعالج مجروحاً ؟ فقال : لا يمضي عليه نهار إلا وقد برئ من

جروحه ، فقال إبراهيم : إنك إن عاجلتها فسينعم عليك الملك ، ولكن لي نصفها ، فقال الرجل ، ولك نصفها .

فأخذه إبراهيم ودخل به على الملك ، فتقدم الرجل إلى جبل ، وجعل يخيظ هذا الجرح وينظف هذا ثم دهن الجروح بدواء معه فشفى منها في الحال ، فعجب الملك ونظر إلى الرجل وقال : اطلب مني أمنية ، فقال الرجل : أطلب من الملك ألف سوط ، فقال الملك : ولم طلبت ذلك ؟ فقال : لا أريد غيرها ، فإنها أمني ، فأمر الملك أن يعطاها ، فقال : أعط شريكى هذا وهو إبراهيم نصفها ، فقال إبراهيم : لقد تنازلت لك عن نصيبي !

فضحك الطبيب ، وكشف عن نفسه تنكره ، فإذا هو جمل الدين شيحة ، ففرحوا به ، وشكروا له فضله .

رأى الملك الظاهر فى المنام أن والدته مريضة ، وهى تتأوه من الألم وتقول : زرتك يا بنى فى المنام فزرنى أنت فى اليقظة قبل أن يأتينى الموت وأفارق الدنيا ، فاستيقظ وهو فى قلق عظيم على والدته ، وقص رؤياه على « تاج بخت » ، فقالت : للأُم على ولدها الإحسان والطاعة ، وصلة الرحم واجبة ، فزرها كما طلبت ، وتلك فرصة سنحت لك لزيارة « أبيك » فى بلده فقال : لبيك يا أماه ، ولك السمع والطاعة .

أناب الملك الظاهر عنه فى الحكم ابنه محمداً السعيد ، ووصاه أن يستسك بالعدل ، وأن يجانب الإهمال والبغى حتى يرجع إليه ، ثم ركب للرحيل ، ومحببه المقدم إبراهيم بن حسن وسعد وعثمان ، وأوغلوا سيراً فى البر الأقر ، وآن يحدث إبراهيم فى نشأته وتاريخه وهم سائرون . ولما أشرفوا على خوارزم رأى الملك مغارة والوحوش داخلة فيها وخارجة منها فقال : انظر يا إبراهيم - وأشار إلى المغارة - هذه المغارة التى ألقانى فيها أعمامى صغيراً ، وأغلقوا بابها بالحجارة ، فهيا بنا إليها ، فقال إبراهيم : سمعاً وطاعة .

دخلوا المغارة فوجدوا أربعة من العجم قد ذبحوا اثنين من العجم ، فبين الملك الظاهر الذى يبحين فإذا هما عمّاه اللذان كانا السبب فى إخراجه

من دياره وهو صغير إلى بلاد العرب ومفارقته والديه .

أيقن الملك أن عميه قتلا خفية ، وأن القتل غدر وغيلة ، وضرب أحد الأربعة بسيفه فقتله ، وتبعه إبراهيم فقتل ثانيهم وتقدم سعد فذبح ثالثهم ، أما عثمان فإنه أمسك رابعهم وقال للملك الظاهر ، اصبر حتى تسأله عن أمره ، وأمر أصحابه الثلاثة ، ومن ذبحوهما في هذه المغارة ، فإني إن أخبرتكم عن أمرهم ارتبم في قولي . فسأل الملك الظاهر العجمي الرابع قائلاً : من أنت ؟ ومن أصحابك ؟ ومن هذان الرجلان اللذان ذبحتموهما ، ومن أمركم بذبحهما في هذه المغارة ؟ فقال العجمي : إن كلا من الرجلين اللذين ذبحناهما أخ « للشاه جمك » ملك خوارزم ، وذلك أن هلاوون ملك « توزيز » ماتت زوجته وأراد أن يتزوج بنتاً جميلة من بنات الملوك ، فقيل له : إن « الشاه جمك » له بنت ذات جمال رائع ، اسمها خاتون ، وقد لا تجد مثلها في الكمال والأدب . فأرسل في خطبتها رسولا إلى أبيها ، ولكن أباهما أبي أن يزوجهما من ملك يعبد النار من دون الله ، فجدع أنف الرسول وردته خائباً .

كبر عند « هلاوون » أن يرتد رسوله مجدوع الأنف ، فأقسم بالنار أن يأخذ ، خاتون « غضباً ، ويقتل والدها ويحرب بلاده ، وركب في جنده ، وأغار على خوارزم ، ودارت الحرب أمامها أربعين يوماً جرح في نهايتها « الشاه جمك » ، ولكن الملك هلاوون لم يستطع أن يدخل المدينة ويستولى عليها ، وظن أن ضعفاً دب في جيش « جمك » بسبب جرحه ،

ولإيوائه إلى فراشه ، فعزم على أن يدخل المدينة عنوة ، ولكن وزير ميمته نصح له ألا يعجل بما عزم عليه من دخوله المدينة عنوة ، فربما كان في ذلك القضاء عليه وعلى جيشه ، أما وزير الميسرة « ثالون » فإنه اختار أربعة من الجند وكنت أحدهم ، وكلفنا أن نذهب إلى خيمة الملك « جمك » ونسرقه ، ونحمله إلى هذه المغارة ، ونقتله فيها ، فصدعنا بأمر الوزير وذهبنا إلى الخيمة فلم نجد إلا أخويه ، فسرقتاهما وجئنا بهما إلى تلك المغارة وذبحناهما ، وكان في عزمنا أن نأخذ رأسيهما إلى وزير الميسرة ، ولكنكم دخلتم علينا وعلتم ما فعلتم ، فتقدم إبراهيم إلى هذا الأعجمي وأطاح رأسه ، وحفر سعد قبرين في المغارة ، ودفن فيهما عمى الملك بعد غسلهما وتكفينهما ثم خرجوا وساروا إلى خوارزم .

وجد الملك الظاهر وصحبه أمام المدينة جيش هلاوون يقاتل جيش أبيه « جمك » فقال : هيا بنا نخوض هذه المعركة فلما صرفنا عن المسلمين أعداءهم ، ولما استشهدنا في سبيل الله ، فنحن قاترون بإحدى الحسينين .

هجم الملك الظاهر وإبراهيم وسعد على الأعداء ، وكانت رحاها دائرة ، فكانوا قوة في جيش المسلمين ، والطامة الكبرى على هلاوون وجيشه ، فكم قتلوا وكم فتكوا وهم يصيحون مكبرين ، وأحس المسلمون بأس الملك الظاهر وصاحبيه على أعدائهم ، فقوى عزمهم وعلا بالتكبير صياحهم ، وجعلوا يجزون أعداءهم جزءاً ، ولما وجد هلاوون أن جيشه

مضى عليه بالفناء إن استمر مقاتلاً أمره بالفرار من سيوف المسلمين ،
ورجع بيجيشه مدحوراً .

أحاط بالملك الكبراء والقادة من جيش أبيه معجبين به وبشجاعته
وسألوه عن نفسه وعن أين أتى فقال : أنا محمود الظاهر ملك بلاد العرب
وابن الملك « جملك » وقد جئت لزيارة أبوي وأهلي فألقيت نيران القتال
مشتعلة بينكم وبين أعدائكم فخصت أنا وصحبي معكم معاركها وكان ما رأيتم
من نصر الله وتأيدته .

أشرقت وجوه القادة والكبراء بقوله هذا وأقبلوا عليه يسلمون ويهنئون
وبعثوا في الحال من أخبر والديه وأهله في قصرهم بالمدينة فنشط والده من
عقال الألم من جرحه وخرج إلى لقائه في جمع من وزرائه فرحين .

ولما وقعت العين على العين انكب الأب على ابنه وضمه إلى صدره
ليطفيء نار الفراق التي كادت تحرق كبده ، ثم سار جميعهم في حفل
جامع يتلأأ بشراً إلى القصر ، وهناك دخل على أمه التي أقعدتها المرض
وأعجزها عن القيام فسلمت عليه وهي مضطجعة على فراشها . ولم يستطع
الفرح بابنها أن يخفف عنها وطأة المرض لتقوم إلى ابنها الذي جاءها بعد
غيبه طويلة كلها غم وألم من أجله ، وكان إبراهيم وصحبه في حجرة أخرى
من قصرها فبلغه شدة مرضها فقال لأحد الخدم مات شيئاً من ملابسها
لأرقيه حتى تبرأ من علتها بإذن الله ، فجاءه بخمارها وجعل يقرأ عليه لفاتحة
ثم بعثه إليها فلما وضعته على رأسها برئت من شدة المرض واعتدلت جالسة .



الملك الظاهر يلقى أباه

وقص « جملك » على ابنه ما فعله « هلاون » فاغتاظ وكتب إليه كتاباً وأرسل سعداً به إليه ، فانطلق من خلفه كأنه الريح حتى أدركه في جيشه المهزوم الحاربي وناوله كتاب الملك الظاهر ففضه وقرأه على وزرائه :
من الملك الظاهر إلى هلاون :

السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فقد عرفت سبب قتالك لأبي ، وعجبت من طمعك فيما ليس لك فيه مطمع وأردت أن تأخذ بالقوة من حرمة الإسلام عليك ، فإذا قرأت كتابي هذا فأرسل من فورك من عسى أن يكون عندك أسيراً من المسلمين ، وإن لم تفعل جنتك وقضيت عليك ، وهذا نذير لك ، فإما أطعت وسلمت ، وإما أبيت وهلكت .

ولما انتهى من قراءته التفت إلى وزرائه وسألهم عن رأيهم في كتاب الملك الظاهر هذا ، فقال وزير الميسرة ، أرى أن ترجع إلى مدينتك وتريد في قوة جيشك ثم تجيب الملك الظاهر بسيفك ، وقال وزير الميمنة : إن إراقة الدماء محرمة في جميع الأديان ، وعندى بهرمان أخو الملك « جملك » وأرى أن ترسله إليه مكرماً ، وتعتذر إلى الملك الظاهر ، وترجمته أن يؤثر السلم على الحرب ، فإن العرب قوم في سيوفهم ورماحهم الموت الزؤام ، فقال هلاون : وكيف كان بهرمان عندك ؟ ! إن بهرمان وأخاه ذبحا في المغارة !! فقال الوزير : كنت أنا قد استبدلته بأسير آخر يشبه في شكله ، والذي ذبح في المغارة أخوه وهذا الأسير ، أما بهرمان فقد حبسته عندى لأقدمه قرباناً للنيران . ولكن الأمور جرت على غير

ما قدرت وأردت ، فقال : ما جرت إلا بالخير فهات بهرمان .
 أحضر الوزير بهرمان أخا جملك ، فأمر هلاون عياراً من عياريه أن
 يذهب به مع سعد ويسلمه إلى جملك ، وقال هذا أمام سعد في العلانية
 ولكنه وصاه سرّاً أن يقتل بهرمان وسعداً في الطريق ويرجع إليه .

ورجع سعد ومعه بهرمان والعيار ، واستمروا سائرين حتى أدركهم
 الليل ، ولاح لسعد بوادر الخيانة والغدر من العيار ، فباغته بضربة من
 سيفه أطاحت رأسه ، ثم انفلت هو وبهرمان إلى الملك الظاهر ، وهناك
 قص سعد قصة هلاون والعيار ، واعتذر إليه عمه ، فعفا عنه ، وفرح
 جميعهم بنجاته وعودته . وبعد أيام قضاها مع والديه وأهله استأذنها
 في العودة إلى مصر فأذنا له ورجع ومعه كثير من الهدايا . بعد زيارة
 كانت برّاً وخيراً وبركة .

وبعد أيام من عودته إلى مصر رأى في المنام كأنه في مدينة من مدن
 الروم قامت على شاطئ بحر خضم ، ولها ميناءان ، أحدهما عامر ،
 والآخر خرب موحش ، فأخذ يطوف ويجوس خلاله حتى عطش ،
 فلحل مكاناً لعله يجد فيه ماء يشرب منه ، فوجد برّاً ، ولما أطل فيها
 رأى رجلاً على سرير من رخام قد براه السقام وسمعه يقول : وما أحد من
 بني إسماعيل أدركني ، وكأني ما حكمت فيهم أبداً . أين عينك
 يا ابن الأخت يا علقم ؟ فحدق الملك الظاهر فيه النظر فإذا هو أخوه
 معروف بن حجر الذي كان حاكماً في القلاع والحصون ، ثم انتبه

من نومه والألم يهز جسمه هزاً ، وتذكر معروف بن حجر وما كان بينهما من عهد وميثاق على الصداقة والأخوة .

ولما جلس في ديوانه التفت إلى إبراهيم بن حسن وقال : رأيت في المنام معروف بن حجر ، وعرفت أنه حي ولكنه مسجون ، ثم قص عليه رؤياه ، فاغرورقت عيننا إبراهيم وقال : لو علمت مكانه لذهبت إليه وما رجعت إلا به وإن كان في ذلك حتى ، وعندنا قبطان الإسلام أبو بكر البطرني وكانوا قد استردوه ومن معه من الأسرى بعد أن خطفوا من البحر ، يعرف الثغور جميعها ومعه سجل كبير لها ، فإذا وصفت له المدينة التي رأيته في منامك عرفها ودلنا عليها ، فأمر الملك بإحضار أبي بكر البطرني ، فلما حضر أمره بالجلوس وقص عليه رؤياه وقال له : ابحث في سجلك هذا عن تلك المدينة التي رأيته في منامي ، فجعل أبو بكر يقرأ السجل على الملك وجلسائه والملك لا يجد لها في السجل وجوداً ، وقرأه مرة ومرة ، ولكنه كان يتخطى مدينة القيطلان في كل مرة ولا ينطق بها ، فقال الملك : ناولني السجل ، فقام إليه وناوله إياه ، وجعل الملك يقرأ حتى وصل إلى مدينة القيطلان فقال : وجدتها ، هذه المدينة هي التي رأيته في المنام ، والتفت إلى أبي بكر وسأله إنك لم تقرأ علينا تلك المدينة في كل مرة فما سبب ذلك ؟ فقال : إن مدينة القيطلان لا أستطيع دخولها ولا أن أذهب إليها ، لأن لي فيها خصماء ، وإن رأوني قتلوني ، وهم أولاد الزير القيطلاني ، فإني أنا الذي قتلته ، وإن رأوني قتلوني فيه ، فقال الملك : لو أخلصت لنا ،

لنفعتك معذرتك هذه وكلفت غيرك ، ولكنك آثرت الحياة والضلال ،
ولهذا أمرتك أن تسافر إلى القيطلان وتأتيني بنبا يقين عن معروف بن حجر ،
وإن لم تأتني بنجر عنه قطعت رأسك ، فقال البطرنى : سمعاً وطاعة ،
والمنية إذا حان وقتها فلا مرد لها .

ركب البطرنى وطائفة من المغاربة الغراب المنصور ، وأقلع بهم ،
يجرى في البحر حتى مروا بجزيرة العرائص ، وكان يربط فيها كبير
القيطلان وثلة من جيشه ، فلما رأوا الغراب المنصور ركبوا فلكهم وأدركوه
في البحر وأحاطوا به ، واقتتل الفريقان ، وأسر البطرنى ومن معه وأخذهم
كبير القيطلان وغرابهم وسافروا إلى القيطلان ، وهناك حبس البطرنى
في مطمورة ، وحبس المغاربة في مطمورة أخرى .

وذات يوم قدم على الملك الظاهر في ديوانه رسول من دمشق وقال :
بعثنى سيدى بكتابه هذا ، فأمر الملك بأخذه وقراءته وكان فيه : من عيسى
شرف الدين والى الشام إلى ملك المسلمين ، حضر إلينا تاجر ومعه عملة
غير عملة الملك ، فسألته من أين لك هذه العملة ؟ فقال : إن أحد
الفداويين أرسل اثنين إلى سوق المدينة لينشرا هذه العملة ، فذهبت
إليهما وقبضت على أحدهما وألقيته في السجن ، وأما الآخر فإنه هرب ،
وفى الليل تسلل رجل ودخل علىّ في بيتى وضربنى بالسوط ضرباً مبرحاً
وأخذ منى ألف دينار وقال : إن لم تطلق فى الصباح تابعى الذى
سجته جئتك فى الليلة القادمة وقتلتك ، فخفت منه وأطلقت فى الصباح
تابعه ، فكتبت إليك بما جرى لتدرك الأمر قبل أن يستفحل ، والسلام .
فغضب الملك وقال للرسول : ارجع إلى سيدك وبلغه أنى قادم إليه .
ثم أناب عنه فى الحكم ابنه السعيد وسافر هو وإبراهيم وسعد إلى الوالى
عيسى شرف الدين .

وذلك أنه لما حكم جمال الدين شيحة الجبل ودان له رجاله بالطاعة ظهر
فداوى اسمه عماد الدين علثم ، وهو ابن أخت معروف بن حجر ، وابن
خالة إبراهيم بن حسن وسعد ، ولما كان فى قلعة صهيون ورأى فيها آثار

جمال الدين شيحة سأل عن خاله معروف بن حجر فقيل له : غيبه عند ربه وما ظهر حتى الآن ، وما أُعرف له مكان ، فقال : ومن الحاكم في هذه القلعة ؟ فقيل له : جمال الدين شيحة ، فقال : إنه معزول ، ومن لا يقول إنه معزول ضربت عنقه ، فقال الحاضرون جميعهم إنه معزول ، وقال عماد الدين : والمالك الظاهر معزول أيضاً لأنه ولّى على القلاع مثل هذا الرجل الذى يدعى جمال الدين شيحة . ثم أحضر الصنائع الذين يسكّون النقود وأعطاهم قطعاً من الذهب وأمرهم أن يسكّوا منها نقوداً باسمه ، ثم بعث بهذه النقود اثنين من التجار ليشتروا بضاعة من سوق دمشق .

وسافر الملك الظاهر ومعه إبراهيم وسعد إلى الشام ، ولما وصل إلى غابة على بن عليم جلس هو وصاحباها عندها ليستريجا ، وكان ذلك في وقت القيلولة . وبينما هم جالسون رأى الملك في الغابة رجلاً يأتي إلى الشجرة الضخمة فيهبها بيده يميناً وشمالاً ثم يرفسها برجله فتقع على الأرض ، فقال الملك : انظر يا إبراهيم إلى قوة هذا الرجل الذى يقطع أشجار الغابة ، فنظر إليه وقال : ذلك الرجل الذى جئنا من أجله ، ذلك هو عماد الدين علقم ، وما دام قد ظهر فإن جمال الدين شيحة لا بقاء له في الحكم ، وليبحث له عن تجارة يلهو بها ، فإنه الأسد الفاتك ، فقال الملك : وإنك تطرب من وجهه ، إن طلع علينا من غابته ! فقال إبراهيم : لن أهرب من وجه أحد لا يدين بالطاعة لمولاي الملك .

وجاءهم عماد الدين وهم يتحدثون فسلم عليهم وسلموا عليه ، ثم قال للملك : وما الذى جاء بك إلى أرض الشام ؟ فقال : بلغنى ما فعلته ، فجئت أنا وأبناء خالتك ، لعلّى ألك وأمنعك بالمعروف والحسنى عن فعلتك ، فإنك عندى رجل عاقل مسلم . ويسرنى أن أكرمك وأعطف عليك ، لأنى أجد فيك ريح خالك معروف بن حجر ، فقال عماد الدين : إذا كان قدومك إلى أرض الشام من أجلى فإنى أرجو أن تسير معى إلى قلعة صهيون لأنس بك وأشرف بزيارتك ، فقال الملك : لك ما رجوت ، ثم التفت إلى إبراهيم وسعد قائلاً : هيا بنا مع عماد الدين إلى القلعة ، والتفت إلى عماد الدين وقال : سر أنت أماننا يا عماد الدين .

ركبوا خيلهم وانطلقوا إلى قلعة صهيون ، ولما قربوا منها أرخى عماد الدين العنان لجواده ، وغمزه برجليه فى جنبه فانفلت مسرعاً كأنه الريح ودخل باب السور وتوارى عنهم ، ونظروا إلى ظهر السور فرأوا ثلاثة رجال يصوبون إليهم ثلاثة مدافع فظنوا بهم شرّاً ، وما لبثوا أن سمع أصوات المدافع تدوى فى الفضاء .

فقال إبراهيم : سلمتاً ، أهذه ضيافة ابن خالتنا ؟! فقال الملك : دعونا من هذا القول : وهيا بنا إلى دمشق ، ولا ينبغى لى أن أجيء إلى هذا الخائن إلا ومعى جندى ، لأريه عاقبة خيانه وغدره .

وأرسل الملك سعداً لياتى بالجيش ، فجاء بالجيش وضربوا خيامهم أمام قلعة صهيون ، ورآهم عماد الدين فاستعد لقتالهم ، وسار بجواده

وعدة قتاله إلى الميدان وطلب مبارزة الأبطال من جيش الملك الظاهر ، فخرج إليه ابن خالته إبراهيم بن حسن الحوراني ، واقتتلا قتالا عنيفاً ، واستطاع إبراهيم أن يقبض عليه ، ولما هم أن يسوقه أسيراً إذا بجمال الدين شيحة يقول له دون أن يراه عماد الدين ودون أن يسمعه : أطلق سراحه يا إبراهيم ، ولا تضع بأسرك له حرمة بين أبطاله واتركه لي ، فقال إبراهيم : الطاعة لك ، وما أنا إلا عدو لمن تعاديه ، وصديق لمن تصادقه ، فقال عماد الدين : ما دمت قد أطعني يا إبراهيم فهنيئاً لك السلامة ، فقال إبراهيم : ما إخالك إلا جننت يا عماد الدين ، إني ما أطعتك أنت ، ولكنني أطعت من يسلك جلدك ، فقال : ومن هو يا إبراهيم ؟ فقال : جمال الدين شيحة ، فقد دخل الآن قلعتك ، وسيقطع الليلة رأسك ، فانطلق عماد الدين بجواده ودخل القلعة ليقبض على جمال الدين شيحة ويقتله .

كان لعماد الدين مقدم اسمه نصار ، فقال له : اجمع يا نصار كل رجل قصير في القلعة ، وأحضرم بين يدي ، فأحضر القصار جميعهم وكانوا أربعين رجلاً ، فلما مثلوا بين يديه أمر أن تضرب أعناقهم ، فصاحوا قائلين : وماذا فعلنا حتى تأمر بقتلنا ؟ فقال : ما أردت إلا قتل جمال الدين شيحة ، وهو قصير مثلكم : فإن أنا قتلتم فقد قتلته فيكم وذلك ما أردت ، فقال نصار : لا تظلم هؤلاء الأبرياء ، فإن شيحة ليس فيها ، وإذا رأيته داخل عليك أخبرتك في الحال وأمسكته ، فقال عماد الدين : ما دمت قد عاهدتني على أن تقبض على شيحة فأطلق سراح هؤلاء .

أخذ عماد الدين نصاراً إلى حجرتة وجلسا ، ثم حضر الطعام فأكلا ،
وأخذا يتحدثان ، فقال عماد الدين : لست الآن في غيظ من جمال الدين
شيحة ولا من الملك الظاهر ، ولكن الغيظ من ابن خالتي إبراهيم يكاد
يحرقني ، فقد بارزني وثبت أمامي وظهر على حتى أسرفني ، وما أطلقتني من
يده إلا جمال الدين شيحة ، وتلك نكبة كبرى لا طاقة لي بحملها ، ولولا
أنك كاتم لسرى ما أطلعتك على ما في نفسي ، فقال نصار : إذا كنت
في غيظ من إبراهيم فإني أقبض عليه وأحضره مكتفياً بين يديك ، فقال
عماد الدين : إن فعلت هذا يا نصار فقد أوليتني جميلاً لا أنساه ما دمت
حيّاً ، فقال نصار : طب نفساً ، وإني ذاهب لتنفيذ ما وعدتك به ،
ثم خرج من عنده وذهب إلى معسكر الملك الظاهر ، ورآه إبراهيم
وهو قادم إليهم فقال : قف مكانك يا نصار وإلا قتلتك ، فقال :
على رسلك يا إبراهيم ، فعرف إبراهيم أنه جمال الدين ، وهو
متنكر في هيئة نصار مقدم عماد الدين ، ومشى إليه وصحبه إلى الملك
الظاهر وعرفه به ، وأخذوا يتحدثون ، فقال جمال الدين شيحة : أريد
أن آخذ إبراهيم لأصيده به عماد الدين ، فقال إبراهيم : ومن قال إني
مصيدة ؟ ! أتريد أن تأخذني وتدخل بي على عدوي ، إن عماد الدين
لو قدر على وهو يبارزني لشرب من دمي ، فكيف أسلم نفسي إليك
وإليه ؟ فقال : لا ينبغي أن تخاف وأنت معي ، فقال : إنك لا تعلم
إلا المكر والاحتيال ، وإن وقعت في يد عماد الدين فلا ينفعني احتيالك ،

فقال جمال الدين : لا أحملك على شيء تكرهه ، ثم سلك بالحديث سبلا أخرى ، وفي أثناء الحديث أخرج من جيبه ثلاث قطع جافة من الحلوى ، ووزعها عليهم ثلاثتهم وأخذوا يأكلونها ، وكان البنج في قطعة إبراهيم ، فلما أكل منها سقط مغشياً عليه ، فكتفه جمال الدين وحمله ، ثم سار إلى القلعة ودخل على عماد الدين ووضعه بين يديه . فابتهج وقال : ما أعظم وفاءك يا نصار ! وما أقدرك على تنفيذ ما عزمتم ! ثم سقاه نصار شراباً . فأفاق من غشيته وهو يوحد الله ويصلى على نبيه ، ووجد نفسه أمام عماد الدين ، فنظر إلى نصار نظرة طويلة غاضبة تكاد تم عن غيظ يضطرم في نفسه ، وفهم نصار منها أنه يقول : إن هم عماد الدين أن يؤذيني كشفت حيلتك ، وعرفته أنك جمال الدين ، وكنت في مأمن من شره ، لأنه ابن خالتي ، وبيني وبينه وشيجة رحم تشفع لي ، فقال نصار وكأنه يؤنبه ، لا تخف يا سبع الرجال ، وقال عماد الدين : ما أسعد هذه الليلة ! فهذا عدوى مكتف بين يدي ، ثم التفت إلى إبراهيم وقال : وقعت يا ابن حوران ، فلم يجبه ، وقال نصار : دعه في نكبته ، وإذا استقر الحكم في يدك طردناه طرد الكلاب ، وملاً كأساً من الشراب وقال : خذ واشرب واهناً هذه الليلة ، فأخذ عماد الدين الكأس وشرب منها فغشى عليه ، ثم أطلق إبراهيم وقال له احمل عماد الدين وسر معي إلى الملك الظاهر ، فحمله إبراهيم وسارا حتى وضعاه أمامه ، ثم وضع شيئاً أمامه ، فلما شممه وسرى في دمه أفاق من غشيته ، فنطق بالشهادتين وقال : أين

أنا الآن؟ فقال جمال الدين: أنت معي، فقال إبراهيم: الزم الأدب يا عماد الدين فإنك أمام الملك الظاهر وجمال الدين شيحة، وكلمة واحدة تخرج من فم أحدهما، تجعلني أقدمك بسيني نصفين، فقال عماد الدين: ولم فعلت بي هذا يا نصار؟ فقال جمال الدين: ما أنا بنصار، فافتح عينيك واعرف من أنا، أنا الذي تخشى الملوك والأبطال حيلتي وبأسي، أنا جمال الدين شيحة، فقال عماد الدين: أنت شيحة الذي ملأت سمع الدنيا بالحديث عنك؟! فقال نعم، فقال: لولا حيلتك وتنكرك في هيئة نصار مقدمي ما استطعت أن تقبض عليّ، وقد أخذت حذري منك، فإن كنت محتالاً ماهراً فأخل سبيلي الآن واقبض عليّ مرة ثانية إن استطعت، فقال شيحة: إني أستطيع القبض عليك هذه الليلة سبع مرات، فقال عماد الدين: إن فعلت هذا يا شيحة أظمتك وكنت من رجالك وأتباعك، وقال شيحة: وأنا إن لم أستطعه عزلت نفسي وتركت لك القلاع والحصون، ثم أطلقه ففضي إلى قلعته والعجب مما فعله شيحة وما أئذره به يملأ نفسه.

وصل عماد الدين إلى باب السور المرتفع المحيطة بالقلعة فطرقه، فقال البواب: من الطارق في هذا الوقت من الليل؟ فقال: أنا عماد الدين، ففتح الباب وقال له: جاءني الآن جمال الدين شيحة فطرق الباب وقال: أنا جمال الدين وأريد أن أدخل القلعة، لأعمل حيلة في عماد الدين، ولكي أمكنك من القبض عليه فتحت له الباب ودخل، فقال عماد الدين:

وأين ذهب ؟ فقال : مرق إلى جهة البستان ، فقال : إلى الداهية التي تأخذها ، وإني لقاعد هنا حتى يطلع النهار ، ثم جلس .

أخرج البواب من جراب معه دجاجتين مشويتين ورغيفين ووضعهما أمامه ، فقال عماد الدين له : ما هذا ؟ فقال : هذا طعام العشاء ؛ فقال : هات لي منه دجاجة ورغيفاً ، فإني لم أذق الطعام الليلة ، فهض البواب ووضعهما بين يديه ، فأخذ يأكل من الدجاجة ، وبعد ثلاث لقمات انقلب على ظهره مغشياً عليه ، فكشفه البواب وانطلق به ، ووضع بين يدي الملك الظاهر ، ثم أعطاه شيئاً أزال غشيته ، فانتبه وألقى نفسه في مجلس الملك الظاهر ، فقال : أنت شيحة وقد تنكرت في زي البواب وشكله ؟ فقال : نعم ، فقال : هذه واحدة ، وأين البواب ؟ فقال : إنه تأم خلف باب القلعة . وقد أطلقتك فامض إلى قلعتك لأقبض عليك مرة أخرى ، فهض قائماً ومشى إلى قلعته فوجد الباب مفتوحاً والبواب غارق في نومه من خلفه ، فأيقظه من نومه وحكى له ما فعله شيحة ، فقال : إن جاءني مرة ثانية أمسكته وأحضرته بين يديك ، فقال : وإني بلخالس معك لمعونتك ، وكان البرد شديداً فأحضر البواب مدفأة وأوقدها وجلس أمامها يصطلي ، فتقدم إليها عماد الدين قائلاً : النار فاكهة الشتاء ، وتصاعد من النار دخان ، فلما ملأ أنف عماد الدين غشى عليه وغرق في نوم ثقيل ، فكشفه البواب وحمله إلى الملك الظاهر ، وهناك أيقظه وقال : وهذه الثانية ، ثم أطلقه ، فرجع عماد الدين وهو في دهشة ، فوجد الباب مفتوحاً فدخله

ومضى إلى بيته ، وهناك أمر جاريته أن تحضر الإبريق ليتوضأ ، فلما أحضرته قالت له : لقد سمعت هذا الإبريق يتكلم الليلة فحفت منه ، فقال : وماذا يقول ؟ فقالت : سمعته يقول : حافظى علىّ يا جارية فلإني سيد القلاع ، فأخذ منها الإبريق وقال : انتهى عمرك يا شيخة ، ثم ضرب الأرض بالإبريق فانكسر وهبت منه رائحة ذكية ، فلما شمها عماد الدين وقع مغشياً عليه ، فكشفته الجارية وحملته إلى الملك الظاهر ، وهناك أيقظه ، فلما صحا وجد نفسه أمام الملك الظاهر وجاريته ، فقال : وهذه الثالثة يا شيخة ، ثم انصرف راجعاً ، وأبى أن يدخل من باب القلعة فذهب إلى الجهة الخلفية ، وأنشبت جبلا كان معه بأعلى السور ثم تسلقه حتى كان فوقه ، ثم هبط منه إلى داخلها ، ورآه رئيس الحرس هابطاً . فأسرع إليه ، ولما عرفه سأله : لم لم تدخل من باب القلعة ؟ فقال : هربت من جمال الدين شيخة الذى كلما دخلت من الباب لقيني متنكراً وأخذنى إلى الملك الظاهر بعد أن يغرقنى فى نوم ثقيل بالبنج الذى معه ، فقال : امكث معى هذه الليلة ، وفى ضوء النهار نمسكه ، فجلس عماد الدين وجلس بجواره رئيس الحرس الذى تناوم بعد قليل وزفر زفرة طويلة انبعثت منها رائحة ، فلما شمها عماد الدين أغمى عليه فكشفه رئيس الحرس وحمله وسار حتى وضعه أمام الملك الظاهر وجلسائه ، فلما صحا وجد نفسه بينهم وفيهم رئيس حرسه ، فالتفت عماد الدين إليه وقال وهذه الرابعة يا جمال الدين شيخة .

رجع عماد الدين يتعثر في أذيال الحيرة ، وعزم ألا يدخل القلعة ،
 ولبث يمشي حتى مر ببستان ، ووجد البستاني الذي فيه يحرق الأرض
 على ضوء مصباح تلمع به الريح ، فقال له : ولم تعجلت الحرق ليلا
 وأمامك النهار وضوءه ؟ فقال : إن أمهلت حرث الأرض فسد البذر فيها
 ولم ينبت ، فسأله : هل مر بك الآن أحد ؟ فقال : الطريق عامر آمن ،
 والناس فيه رائحون وغادون ، ولكنهم يقلون ليلا ، وقد سمعت رجلا يسير
 وحده ويقول : أنا شيحة وأنت عماد الدين ، وهو يرددها في لهجة غضب
 وحماسة ، وأخذ سمته إلى تلك الناحية ، فانفلت عماد الدين يجرى على
 أثره ، ولكنه لم يبعد قليلا حتى سمع البستاني يصيح مستغيثاً ، فرجع إليه
 عماد الدين فوجد الدم يسيل من رأسه وهو يبكي ، فسأله : من فعل بك
 هذا ؟ فقال : الرجل الذي كان يردد ذلك القول : أنا شيحة وأنت
 عماد الدين . فأقبل إليه عماد الدين وجعل يضمده جرحه ، فشم رائحة
 تنبعث من رأسه ، وسقط على الأرض مغشياً عليه ، فكتفه البستاني وحمله
 إلى الملك الظاهر ، ولما أفاق ورأى البستاني هز رأسه وقال : وهذه الخامسة
 يا شيحة ، فأطلقه وانصرف راجعاً .

دخل عماد الدين على أمه في بيته وقد ملأ صدره الغيظ فقال لها : ولدت
 وما أنجبت قبج بطن قذف مثلي ، فقالت : هل جننت يا عماد الدين ؟
 ما هذا القول الذي تقذف به أمك ؟ فقال : إن شيحة قبض على الليلة
 خمس مرات وهو يطلقني مستهزئاً بي في كل مرة . فقالت : إن شيحة

أطاعته الرجال ، وإن أنت خاصمته أتعبك ، وأود أن أجمعكما وأصلح بينكما ، وتطيعه كما أطاعه غيرك حتى تأمن بوائقه ، فقال : النجم أقرب إليك مما تودين ، ناوليني هذه القلة لأشرب وأنا ، فناولته القلة وشرب منها قليلا فأغمى عليه ، وكففته أمه وحملته إلى الملك الظاهر ، فلما أفاق ووجد أمه احمر وجهه خجلا وقال : وهذه السادسة يا جمال الدين شيحة ثم أعمته فأخذ سمته إلى بيته ، فوجد زوجته تنتظره ، ووجد أنه في حاجة إلى أن يدخل الحمام ليستحم فذهب إليه وكانت البخارية خداع المكلفة بخدمته في الحمام ترقب مجيء سيدها إلى الحمام ، فلما جاءه حضرت واستعدت لتصب عليه الماء ، وما كاد الماء يغمر رأسه ووجهه حتى خر مغشياً عليه ، فألبسته البخارية ثيابه ونقلته إلى الملك الظاهر ، ولما صحا من نومه . وجد نفسه بين يدي الملك الظاهر وجاريتته خداع فقال : وهذه السابعة يا جمال الدين شيحة ، فقال جمال الدين : الآن حصحص الحق ووجبت عليك طاعتي ، فقال عماد الدين لن يكون ذلك إلا بعد أن أغالبك في أمر سيظهره الغيب فإن غلبتني كنت لك ، وإن غلبتني كنت لي ، فقال جمال الدين : رضيت يا عماد الدين . وقال الملك الظاهر وأرى أن تهادنا وتعاهدا على المسألة وتصبرا حتى نرجع إلى مصر ، وهناك تكون المغالبة ، فرضيا وتعاهدا على السلام وألا يغدر أحدهما بصاحبه . وقال عماد الدين : والآن أنتم ضيوف فيها بنا إلى قلعتي لتأكلوا ضيافتي ، فقال الملك الظاهر : لقد أكلناها مدافع من قبل ، فقال :

معذرة يا سيدي ، فما كان ذلك إلا من الحارس ، وقد عاقبته وقتلته ، فسار الملك وصحبه من الكبراء والأمراء إلى القلعة ، وفيها أكلوا ضيافة كريمة ، ثم تحدثوا قليلا وناموا .

ولما صاح ديك الفجر يحمد الله ويسبحه ، نهض عماد الدين من نومه واقفاً وهو يقول في صوت جهورى اهترت له أركان الحجر : جئتك يا خالى معروف . . . فانتبه النوام وصحوا ، وسأل الملك عماد الدين : ماذا جرى يا عماد الدين ؟ فقال : رأيت خالى في المنام سجيناً في بئر مظلم في مدينة كبيرة ذات ميناءين أحدهما عامر والآخر خرب ، وهو يقول في صوت حزين خافت : لقد استوى عندي الليل والنهار ، وصرت لا أرى شمساً ولا قمرأ ، أين أنت يا ابن الأخت ؟ ! أين أنت يا فارس الملتقى ؟ ! فانتبهت من نومي صائحاً بما سمعتم ، فقال الملك : لقد رأيت في منامى بمصر مثل الذى رأيته الليلة في منامك ، وأرسلت أبا بكر البطرني إلى تلك المدينة ليأتيني بخبر معروف خالك ، وأرى أن نسير إلى مصر لنرسل من يكشف لنا خبر البطرني ، وعسى الله أن يأتي بالفرج .

وجلس الملك وصحبه يتحدثون وأثار عماد الدين مسألة القلاع ولن تكون ، أهي له أم لجمال الدين شيحة ؟ فقال : أرى ألا تؤخذ هذه القلاع إلا بحق ، وذلك أن تتسابقا في أمر تدخلان فيه ، فن ظهر على أخيه وغلبه كانت له ، فقال : وما ذلك الأمر ؟ قال : سيقضه الله لكما عن قريب ، وقبل أن ينفذ المجلس دخل عليهم رجلان وقال أحدهما : مرنا بمدينة القيطلان فرأينا الغراب المنصور محطماً في مينائها الحربي ، وعلمنا أن أبا بكر البطرني ورجاله ألقى بهم حاكمها في سجنها فجئناك وأخبرناك ، فأمر الملك أن يعطى كل منهما ألف دينار وأن ينصرفا إلى وجهتهما ، فنفذ رجاله أمره ، وانصرف الرجلان مشكورين .

وقال جمال الدين شيحة ذلك أمر يقضه الله لك يا عماد الدين ، فإن أنت ذهبت إلى القيطلان وخلصت أبا بكر البطرني ورجاله والغراب المنصور كنت أهلاً لولاية القلاع وحكمها دون أن يتنازحك متنازع ، فقال عماد الدين : ضاعت القلاع من يدك يا جمال الدين ، وإني لذهاب إلى القيطلان ولن أعود إلا بالغراب المنصور وأبي بكر البطرني ورجاله ، وإن أنا خلصت خالي معروفاً كانت له وضاعت من يدي ويدك ، فقال جمال الدين : إذا كان ذلك بالحرب والسيوف فإن الملك

الظاهر أقوى ، وسيفه أمضى ، ولكني أريد أن تفعل ما قلت من غير أن تشهر سيفاً أو ترفع ريحاً ، فإن فعلت ما قلت دون حرب ولا قتال صرت أجدر بالولاية ، وإن لم تستطع ذلك استطعت أنا وفعلته بإذن ربي وعونه ، فقم وسافر ، وسأكون على أثرك بعد ثلاثة أيام من سفرك . فقال عماد الدين : سأسافر على ألا تمكر بي وتلقى العقبات في سبيلي ، فقال جمال الدين : وحق من رفع السماء بغير عمد لن أغدر بك ، وإن أنت وقعت في ورطة ولم تستطع أن تخلص منها فنادني أكن عندك وأخلصك مما وقعت فيه ، فقال عماد الدين : عجباً لك ! تقول قول القادر الواثق ! إذا احتجت إليك فالأمر كما يشاء ربي ، ثم ودعهم عماد الدين ورحل إلى القيطلان .

أما جمال الدين فإنه أشار على الملك أن يرجع إلى مصر لأن غيبته طالت ولا ينبغي أن تطول أكثر من ذلك . فقال : ذلك حق ، ولا بد من العودة ، وبعد ثلاثة أيام من سفر عماد الدين رحل الملك إلى مصر ورحل جمال الدين إلى القيطلان .

أخذ عماد الدين يقطع بجواده الفيافي حتى كان عند أنطاكية وكان قد جاع فمر بحقل فيه بطيخ لامرأة عجوز من أنطاكية ، فجلس عندها ، ودفع الجوع جواده فقمض بطيخة من الحقل وجعل يأكل منها فتسللت إليه حتى جاءته ، وبقرت بطنه ، وأحس أن الجواد قد سقط على الأرض فالتفت إليه فوجده مبقر البطن ، فجاءها وقال لها : أتبقرين الجواد

من أجل بطيخة أكلها ليدفع بها ألم الجوع ؟ ! فقالت : وأذبحك أنت أيضاً إن فعلت فعلته ، فسل سيفه وضربها به ضربة أسقطتها على الأرض نصفين ، فهاج عمال الحقل وقبضوا عليه وذهبوا به إلى « الفرتماكوس » حاكم أنطاكية وأخبروه بما فعله ، فحكّم عليه بالإعدام ، وقال وزيره : وأرى أن تحفر له حفرة في الخلاء على قد نصفه ، ثم يوضع فيها ويهال التراب عليه إلى أن تمسكه الأرض ولا يستطيع أن يتحرك ، ثم يرمى بالنبال حتى يموت ، وأمر الملك بتنفيذ ذلك ، فأخذ رجال الملك وساروا به إلى الخلاء وأيقن عماد الدين أنه ميت لا محالة ، فنادى في نفسه : يا جمال الدين شيحة أدركنى ، وفي الحال سقط في حجر « الفرتماكوس » ورقة ، فأخذها وقرأ ما فيها .

أنا جمال الدين شيحة ، وقد أمرتك أن تعطي عماد الدين الذي أمرت بقتله جواداً وألف دينار وتخلي سبيله ، وإن لم تفعل قتلتك ونجيتة رغم أنفك وأنف رجالك . فلما قرأ الورقة قال : ولم لم تخبرني أنك من أتباع جمال الدين شيحة ؟ قد أمرت لك بجواد وألف دينار ، وأن يحلّي سبيلك لتذهب حيث تشاء .

أخذ عماد الدين الجواد والدنانير وسلك سبيله حتى اعترضه نهر فوقف حائراً لا يدري كيف يعبره وينتقل بجواده إلى شاطئه الآخر . وبينما هو في حيرته رأى مركباً يجري في النهر وفيه شيخ وغلّام ، فناداهما وأقبلا إليه ، فقال : أريد أن تنقلاني إلى البر الثاني في مركبكم هذا ولكم أجركم ، فقال

الشيخ : أجرنا مائة دينار ، وسنحمل الجواد وحده إلى الشاطيء الثاني ،
ثم نرجع إليك ونحملك إليه ، فقال : رضيت .

نقل الشيخ الجواد إلى شاطيء النهر الآخر وتركه في قبضة الغلام الذي
معه ، ثم رجع إلى عماد الدين ونقله إلى الشاطيء الثاني أيضاً ، ومشى إلى
جواده وقبل أن يصل إليه وجد الغلام قد امتطاه وطار به ، ثم قفز به
في النهر وعاد إلى الشاطيء الأول وانطلق به في الفضاء انطلاق الريح ،
وغاب عن العين ، فقال للشيخ : إن الغلام رجع بالجواد وانفلت به في
البيداء ، فقال : ما هذا يا عماد الدين ؟ أدركتك في أنطاكية ،
وأدركتك عند النهر ، وأرجعت جوادك إلى قلعة صهيون ، لأنه إن كان معك
في القبطلان أتعبك وشغلك ، وأنا صاحبك الذي تعرفه ، فقال : صدقت
يا شيحة ، ثم تركه ومضى يمشى على رجله ، حتى أنهكه المشى وآلمه
الجوع ، وكان قد أقبل الليل فقعده منهوك القوى خائر العزم ونادى : أدركني
يا جمال الدين ، فأني في حاجة إلى الزاد والمأوى هذه الليلة ، فرأى في
الحال صومعة على رأس جبل ، فصعد فيه حتى كان عندها ، فوجد
راهباً جالساً ، وقدامه نار موقدة ، وبجانبه غزالة ، وقربة مملوءة بالماء ،
فقال الراهب ، تقدم أيها القادم واذبح هذه الغزالة واشوها على النار
لتأكلها ، وإن كنت عطشان فهذه القربة مملوءة بالماء ، فتقدم عماد الدين
إلى القربة وشرب حتى ارتوى ، ثم أقبل على الغزالة فذبحها وسلخها وجعل
يشوى من لحمها ويأكل حتى شبع ، ثم بات مع الراهب في صومعته ،

ولما استيقظ في الصباح لم يجد الراهب معه ، وبحث عنه هنا وهنا فلم يجده ، فقال في نفسه : إنه شيحة وقد اختفى .

سار عماد الدين حتى دخل القيطان ونزل في خان بها ، ثم ذهب إلى سوق المدينة ليشتري له طعاماً ، ففقد نقوده في جيبه فلم يجدها فاحتراب واضطرب ، وإذا برجل معمر أعرج قد جاوز الثمانين قد أقبل وهو يبكي فجاءه الناس وقالوا : ما يبكيك يا أبانا « بولص » ؟ فقال : لعن أبوكم ومن ولده ، أيموت أبوكم في الدير جوعاً لأنه لا يجد شيئاً يأكله ، فأحضر أحدهم له قصعة كبيرة مملوءة طعاماً وقال : أهذه تكفي يا أبانا ؟ فقال : تكفي ، والتفت إلى عماد الدين وقال : احمل هذه القصعة إلى الدير يا هذا ولك نصيب منها ، فحملها عماد الدين فوق رأسه وقال : سر قدامي إلى الدير ، فسار « بولص » وسار عماد الدين وراه ، وبينما هما سائران مد عماد الدين يده إلى القصعة ليأخذ منها لقمة يأكلها ، فالتفت « بولص » إليه وقال : لا تأكل يا هذا حتى تذهب إلى الدير ، فقبض يده وخجل . ولما دخلا الدير وضع القصعة بين يدي « بولص » فقال له : خذها أنت وكل ، لأنني شعبان ، وما فعلت هذا إلا من أجلك . لأنني وجدتك تقامى آلام الجوع ، فقال عماد الدين : كأنك تعلم ما في نفسي ، ثم وضعها أمامه وأكل ما فيها جميعه ، وقال : الحمد لله الذي أطعمني وسقاني ، فقال « بولص » أرجع القصعة إلى أصحابها ، فحملها ورجع بها إلى السوق ، فلما رآه الناس التفوا حوله وسألوه : أين البطريق ؟ فقال : « تركته في الدير » ،

فقالوا : ولأى شيء لم يحيى معك ، إنك قتلته ، فقال : ولأى ذنب أقتله ؟ فقالوا : سر بنا إليه لنظمن عليه ، فرجع معهم إلى الدير فوجد « بولص » جسداً لا روح فيه ، فاج الناس وهاجوا وقبضوا على عماد الدين ، وجاءهم البطريق الأكبر ، وعرف منهم أنه قتل « بولص » ، فقال : اربطوا هذا القاتل الأثيم في عمود السم ، فربطوه في الحال ، وكان هذا العمود من رخام مسحور ، إذا ربط به إنسان سرى منه السم في جسده ومات ، وخاف عماد الدين أن يموت مسموماً فنادى : أدركنى يا شيعة ، فدخلت عليه عجوز تتوكأ على عصاها وقالت : أنت الذى قتلت « بولص » ؟ فقال : لا تكثر يا شيعة من الكلام وأدركنى وسجل هذا معروفاً لك عندى ، فقال شيعة : ألم أفعل معك معروفاً قبل هذا ؟ فقال : إذا كان لك معروف غير هذا فأنى لا أعرفه ، فأسرع ونجنى ، فقال شيعة : كم من معروف زرعنا فهبت عليه رياح الجحود ، وكذلك المبتلى حين يبرأ ينسى جميل المداوى : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مركان لم يدعنا إلى ضره » . ثم تقدم وفك رباطه ، وغاب واختفى عن عينه ، فخرج عماد الدين إلى المدينة وهو يقول : آه يا قصير !! إنك تفعل ما يعجز إبليس اللعين .

أما جمال الدين شيعة فإنه دخل مدينة القيطان فوجد أحد جنودها قد كتف شخصاً ، وجعل يطوف به فى شوارع المدينة ويقول : هذا جزائه ، وأقل من جزائه ، فقد أكل أموال الملوك وادعى الإفلاس ،

فسأل الناس عن هذا الرجل وذبّه فقيل له : إنه خمار بالمدينة ، والمتعهد بتوريد الخمر إلى ملك القبطان وأمرأها ، وعليه لهم ثلاثة آلاف دينار ، وليس في « خمارته » شيء يبي بمعشار هذا الدين ، وأعلن إفلاسه ، فأمروا بقتله ، واختيار خمار غيره ، فتقدم شيحة إلى ذلك الجندي وقال : هذا ابن عمي ، وقد جئت لأعطي الملك والأمراء أموالهم ليعتقوه ويطلقوا سراحه ، فرجع الجندي بالخمار وابن عمه « دمليكو » — وهو شيحة — إلى الملك والأمراء وحكى لهم ما قاله « دمليكو » ، فقالوا له : وما أردنا إلا أن ترد إلينا أموالنا ، فأخرج دمليكو من جيبه عقداً وناولهم إياه وقال : هذا عقد قيمته عشرة آلاف ، لكم منها ثلاثة آلاف ، ولأجرة الخمار سبعة آلاف ، لكل سنة تمضي ألف دينار ، وسأقوم بتوريد الخمر لكم بدلا من ابن عمي ، ولن آخذ منكم ثمن الخمر إلا في نهاية كل سنة تمضي ، فقال الملك للجندي : اذهب معهما وأعط « دمليكو » الخمار وما فيها ، وأعطه ابن عمه يفعل به ما يشاء ، فنفذ الجندي ما أمر به .

ولما خلا الخمار بشيحة قال له : كيف كنت ابن عمي ؟ ولأى شيء نجيتني ؟ وما حكايتك يا أخي ؟ فقال دمليكو : إني من مدينة البرتقال ، وكنت خمار ملكها « منولى » فسُئمت المقام فيها وغادرتها مهاجراً ، ومررت في طريق القبطان . فوجدتك تزف للقتل ، فكبر في نفسي أن يقتل خمار على ديني وملي ومن أبناء حرقى ، وأنا قادر على نجاته . ففعلت

ما عرفت ، وأنا في عجب أن يكون خمار الملوك مديناً بثلاثة آلاف دينار ، فقال : لا تعجب يا أخى فإن عندى أموالاً كثيرة . وقد فعلت ذلك لآكلها . وتعال معى لأريك أموالى ، ثم نهضاً إلى ناحية فى الحمامة ، وكشف الحمامة عن مطمورة فيها أربعة صناديق مملوءة بالمال . فقال دمليكو : الآن ذهب عجبى وانشرح صدرى . وهذا المال مالك والحمامة خمارتك وقد وهبت لك ما دفعته عنك ، واجعلنى معك أحياناً تابعاً ، فقال الحمامة : على الرحب والسعة .

ونهض جمال الدين وأحضر كويين من ماء وخمر ، أما الماء فشربه وأما الخمر فشربه الحمامة وكان قد مزجه بالبنج ، فما كاد يستقر فى بطنه حتى غاب وعيه ، وغرق فى نومه . فكفنه شيحة ثم أيقظه ، فوجد أنه قد كتف ، وأن دمليكو ظهر أمامه فى شكل مسلم يؤمن بالله ورسوله ، فقال له : وماذا حملك على هذا ؟ فقال : لأدعوك إلى الإسلام فإن أسلمت سلمت وأمنت ، وإلا هلكت وقتلتك . فقال : لن أسلم أبداً فافعل ما شئت ، فقطع شيحة عنقه وألقاه فى اليم . ثم أصلح الحمامة وزينها وملاها بالخمر ، وجعل يرسل إلى ملوك القيطان وأمرائها ما يحتاجون إليه من الخمر كل يوم . وكانوا فى سرور عظيم من حسن معاملته وبضاعته . وذات يوم مر عماد الدين بالحمامة فأعجبه منظرها وزينتها وما فيها من طعام وشراب ، فدخلها ليأكل ، واستقبله دمليكو فى حفاوة عظيمة ، وأحضر له من الطعام ما لذ وطاب . ثم قال : أظنك خائفاً من شرب

الخمر ، فإذا أردت أن أحضر لك شراب القرفة أو شراب الليمون ، فقال ذلك الشراب الذى أحبه ، فأحضر له من الشراب ما يشتهي وجلس إليه يتحدث حتى جاء الليل ، ثم قال له : أظنك غريباً عن هذه البلاد ؟ فقال : نعم ، فقال دمليكو : وما الذى حملك على الغربة وهى خطر ومشقة ، فقال عماد الدين : إن لى قصة عجيبة ، وحكى له قصته من أولها إلى آخرها ، فقال دمليكو : يأتينى كل ليلة أربعون أسيراً يحملون الخمر إلى قصر الملك فإن أردت أن تدخل قصره ، حملتك وعاء من الخمر وسرت معهم ، فإذا كنت فى القصر فعلت ما تريده ، فقال : هذا جميل ، ولك منى الشكر الجزيل .

حضر الأسرى وحملهم دمليكو أوعيتهم ، وحمل عماد الدين وعاءه معهم ، ورجعوا إلى قصر ملك القيطان ، فأخذ الخدم أوعية الخمر منهم ، ثم ساقهم الجند إلى سجنهم وعماد الدين معهم كأنه أحدهم ، فوجد نفسه فى سجن مظلم يموج بالأسرى يبلغ عددهم خمسمائة أسير ، فابتأس وقال : يا سلطان القلاع يا شيعة ، فانفتح فى الحال باب السجن ، ففرق منه عماد الدين خفية وتسلل حتى خرج من القصر ونحاض ظلام الليل خائفاً يترقب ، فلقبته جارية تسب الزمان وتقول : لعن الله زماناً حكم على بخدمة هذين الأسيرين ، فقال لها : ومن هذان الأسيران يا جارية ؟ فقالت : أسير قديم ، وأسير جديد ، ومن أنت حتى تسألنى عنهما ؟ فقال : أنا رسول الراهب ، أرسلنى طائفاً لاكشف عن

المظلوم ظلّامته ، وقد سمعتك شاكية من قسوة الزمان فسألتك ، فقالت :
 عفواً يا رسول الراهب ، أما الأسير الحديد فاسمه أبو بكر البطرني ، وقد
 عزم ملك القبطان أن يذبحه في عيد « الشعانين » هو ومن جاءوا معه
 في الغراب المنصور من أسرى المسلمين ، فقال لها : سيرى معي إلى هذا الأسير
 الحديد . فسارت معه وأدخلته عليه في سجنه ، فوجده قد حبس في
 الأغلال والقيود وابتدره قائلاً : أبشر بالسلامة يا أبا بكر ، فقال : ومن
 أنت أيها القادم ؟ فقال : عماد الدين علقم ، وقد جئت لأخلصك ،
 ويكون لي ملك القلاع والحصون ، وحكى له ما اتفق عليه هو وشيخة ،
 فقال أبو بكر : إن كان خلاصي على يديك سبباً في ضياع القلاع
 من شيخة فإنني لا أريد الخلاص ، واسمع نصحي ، أسرع الآن بالخروج
 وإلا قبض عليك وحبست في الأغلال مثلي ، فقال : لا خلصت ولا نجوت ،
 وخرج مسرعاً إلى البخارية فضيا إلى الطريق ، ثم سألها : ومن الأسير
 القديم ؟ فقالت : اسمه معروف بن حجر وهو في سجن الحشرات يقاسى
 مرارة الظلم والوحدة ، فقال : سأبلغ الراهب هذا كله ، وودعها إلى
 سبيلها ، فضت ومشى خلفها وهي لا تشعر به حتى أتت إلى مكان
 فكشفت الغطاء عن حفرة ثم هوت فيها وغابت قليلاً ثم خرجت وأعدت
 الغطاء ومضت إلى شأنها .

فجاء عماد الدين وكشف الغطاء فوجد مسلماً نازلاً في الحفرة فتزل
 فيه حتى انتهى ووقف حائراً في الظلام لا يدري أين يسير فسمع صوتاً

يقول : الحمد لله الذى هدانى للإسلام ووقانى ظلمة الكفر ، لقد رمته يد الأقدار فى هذا السجن المظلم أقاسى الشدائد ، بعد أن كنت ملكاً أخوض فى النعيم ، وهكذا الدهر لا أمان له . أين أنت يا ابن الأخت يا عماد الدين ؟

فصاح عماد الدين فرحاً وقال : جئتك يا خالى . ومشى على هدى من صوته حتى كان بجواره . فقال : يا خالى ، إن الظلام حالك ، فقال له : أخرج سيني من غمده يضىء لك ، وهو معلق على الحائط قريباً منى ، فأخرجه من غمده فأضاء ومحا هذا الظلام الحالك . وقال عماد الدين : هيا بنا لنهرب من هذا السجن وبابه مفتوح . فقال خاله : هل قتلت الجارية ؟ فقال : لا . وقد كانت السبب فى أن عرفت مكانك ، فقال : إني نذرت لله ألا أخرج من هذا السجن إلا بعد قتلها ، وما أتم كلامه حتى أغلق باب السجن ، فقال عماد الدين : إن الباب قد أقفل ولا مخلص لنا ، فقال خاله : ألم تفتح مدينة القيطان قبل أن تأتيني ، فقال : لا . فقال معروف : وكيف جئت ؟ فحكى له قصته وما كان بينه وبين شيحة حتى كان عنده ، وقال : وبلغ من فضول شيحة أن قال لى : إذا وقعت فى ورطة وعجزت عن الخلاص منها فنادنى ، وسأحضر إليك فى الحال وأخلصك منها . فقال معروف : الآن حصحص الحق ، ولا منجاة لنا إلا على يديه فناده يا عماد الدين وإلا لبثت معى فى هذا السجن حتى يوافينا الأجل ، وإن خلصنا شيحة فسأكون أطوع له

من ساعده ، فنادى عماد الدين قائلاً : يا سلطان القلاع ، يا جمال الدين شيحة . وما إن انتهى من نداءه حتى فتح باب السجن ووجد رأس الجارية ملقى أمامهما ، فقال عماد الدين : فتح باب السجن وماتت الجارية فهيا بنا لنخرج ، فقال معروف : وقد نذرت لله ألا أخرج إلا إذا غاصت قدمي في دماء الكفار ، وما انتهى من قوله هذا حتى سمع قائلاً يقول : يا عماد الدين ؛ سل سيفك وقابل الكفار واقطع رؤوسهم ، وأحس بعد هذا القول جماعة مقبلين ، فاستعد للقائم ، وجعل يقطع رؤوسهم حتى أفنأهم وسالت دماؤهم .

ونهر خاله معروف فغاص بقدميه في دماؤهم وخرج من السجن ومضيا حتى كانا عند قصر ملك القبطان ، فسأل معروف عماد الدين قائلاً : أين نحن الآن ؟ فقال : عند قصر ملك القبطان ، فقال : ارجع بنا إلى السجن فإني نذرت لله ألا أخرج إلا إذا أحرق هذا القصر ، وما انتهى من قوله حتى رأيا النار قد شبت فيه وملأ الصياح أرجاءه ونواحيه . فقال معروف : الآن سر بنا إلى حيث تريد ، وبينما هما سائران عثر بهما رئيس العسس ومعه طائفة من الجنود ، فقالوا عليهما ، ووضع عماد الدين خاله معروفاً على مصطبة لأنه خرج من السجن هزيباً ضعيف السمع والبصر ، وتصدى هو لهؤلاء الكفار وقتلهم بسيفه وأفنى كثيراً منهم وفرت من وجهه بقيتهم ، ثم رجع إلى خاله في المكان الذي وضعه فيه فلم يجده ، فأظلمت نفسه غمًا وحزنًا ومشى حتى دخل الحمارة

كثيراً حزيناً ، فسأله دميكيو عما أحزنه فحكى له قصته ، فقال : وهل خالك عجوز ضعيف لا يكاد يحمل بعضه بعضاً ؟ فقال : نعم ، فقال : جاءني جماعة برجل عجوز ضعيف وقالوا إنا وجدناه في الطريق فخذنا عندك حتى تعود إليه قوته أو يموت ، فقم إليه وانظره فر بما كان خالك ، فذهب إليه فرجده خاله ، ولقي معروفاً وأبا بكر البطرني جالساً بجانبه ، فعجب أن رأى البطرني بجواره فقال له : ومن أتى بك إلى هذه الحمامة ، فقال : شبت النار في القصر ففتحوا الأبواب وأمرونا بالهرب من النيران فخرجت أمشي حتى عثرت بهذه الحمامة فدخلتها ووجدت هذا العجوز الضعيف مستلقياً على ظهره كما ترى ، فقال عماد الدين : ذلك الذي وجدته معروف خالي ، والحمد لله على نجاته وخلاصه ، ونريد به الرحيل من هذه البلاد ، فقال البطرني : إن خالك مريض ضعيف ولا قدرة له على السفر ، فقال : عزمت على أن أحمله وأقطع به الطريق مرحلة بعد مرحلة ، حتى ندخل قلاعنا ، ثم مضى إلى خاله وصاح في أذنه قائلاً : لقد خلصنا من السجن ، ونحن الآن في حمامة دميكيو صاحب هذه الحمامة ، فقال معروف : إني أود أن تسأل صاحب هذه الحمامة عن طبيب يرد إلى عيوني نورها ، فإني لا أستطيع الحياة فاقد النظر ، فذهب عماد الدين وأخبره فقال : ادخل وسأبعث إليك طبيباً ، فرجع عماد الدين إلى البطرني ومعروف خاله ، وبعد قليل جاءهم الطبيب وكان أعور ، فعرفهم بنفسه ، فقال عماد الدين : إذا كنت طبيباً فإن عينيك أولى

بالعلاج من عيون غيرك ، فلم يلتفت إليه ، وقال البطرنى : لا تعرض يا عماد الدين ، واترك الأمر إلى من يقول للشئ كمن فيكون ، وفحص الطبيب عيني معروف ثم قال : كم من الأجر تعطيني لشفاء عينيك ؟ فقال معروف : إذا شفيتنى أعطيتك ثلث القلاع والحصون ، فقال الطبيب : أنا لا أعرف قلاعاً ولا حصوناً . ولكنى أريد مالا ، فقال عماد الدين : ارض بهذه الأجرة ، وسأشترىها منك بما يرضيك من المال ، فرضى الطبيب فقال عماد الدين : واكتب حجة بينك وبينه ، وسأشهد عليها أنا والبطرنى فقال : افعل ما شئت ، وكتب عماد الدين الحجة وختمها معروف بخاتمه وشهد عليها البطرنى وعماد الدين ، ثم أخذها الطبيب ، ودأب على علاج عينيه ثلاثة أيام .

وفى اليوم الرابع رفع العصابة عنهما ، فوجد معروف أن بصره قد ارتد قوياً كما كان . واستبشر وقال لابن أخته ما أمهر هذا الطبيب وما أقدره !! ليتك سألته عن علاج الآذان ، فقد ثقل سمعى حتى كاد أن يصم ، فقال عماد الدين إنى ذاهب إلى صاحبي دمليكو لأسأله ، وليختار لنا الطبيب الماهر ، ثم ذهب إليه وأخبره ، فقال ادخل وسأرسل إليك الطبيب ، وجاءهم الطبيب وشفى أذنى معروف وكانت أجرته ثلث القلاع والحصون وكتبت بها حجة ليشتريها عماد الدين على نحو ما حصل مع طبيب العيون . وقال معروف : أريد طبيباً يداوى وهنى وضعفى ويرد إلى قوتى ، فأحضر إليهم دمليكو الطبيب وشفاه وكانت الأجرة الثلث

الأخير من القلاع والحصون وكتبت به حجة على النحو السابق ، وبعد أن أتم علاجه أحس معروف أنه أشد قوة وأقوى عافية مما كان ، فرح وقال لابن أخته : أين شيحة الذى حدثنى عنه لأصارعه وأرى قوتي من قوته ؟ فقال عماد الدين : الحمد لله الذى عافاك ، وإذا وقع شيحة فى أيدينا قصمنا ظهره وفرينا عظمه ، وكان دميكو حاضراً فقال : ماذا تأكلون ؟ لحم خنزير أو لحم غنم ؟ فقال معروف : لحم غنم ، فأحضر لهم دميكو لحماً مشويّاً شهيّاً ، فأكلوا حتى شبعوا ، ثم سقطوا على الأرض مغشياً عليهم ، فأوثق دميكو كتافهم ثم أيقظهم وأذهب عنهم غشيتهم ، فقال معروف لدميكو : لم فعلت بنا ما فعلت ، بعد معروفك الذى لا ننساه ، فقال : فعلت ذلك حين علمت أنكم مسلمون ، ولا ينبغي لى أن أخون ملك القبطان ، ولا بد من إخباره عنكم ، ثم تركهم دميكو وهم فى حيرتهم يعمهون .

وبعد ساعة دخل عليهم ملك القبطان فقالوا : آمنا بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وحدق فيهم النظر ثم التفت إلى البطرني وقال : أبعد أن أقبض عليك تطمع فى الهرب إلى بلاد المسلمين ؟ فقال : نعم ، وعلى الرغم منك ، والتفت إلى معروف وقال : أبعد سبع عشرة سنة فى السجن نقلت من يدى وتعود سالماً إلى أهلك وقومك ؟ فقال معروف : وسيكون ذلك بإذن الله تعالى رغم أنفك ، ثم قال الملك : ولكن المستول عن ذلك هذا الذى جاء ليخلصكم ، ولكنى سأقتله شر قتلة ، فقال عماد الدين :

كذبت وخسئت ، ولولا أنى أخشى الملامة لناديت جمال الدين شيحة ، ليقنتك ويخرب ديارك ، فقال ملك القيطان : خرس لسانك ، وإن جاءنى قتلت على مشهد منكم ، فقال عماد الدين يا ملك القلاع والحصون ، يا من أدين لك بالطاعة والولاء ، يا جمال الدين شيحة ، فضحك الملك ورفع اللثام عن وجهه ، وبدا لهم جمال الدين فى صورته ، فدهش جميعهم ، وقال عماد الدين : اجلس يا قصير ، وماذا فعلت بصاحب الخمارة دمليكو ؟ فقال شيحة : يا عماد الدين ، أنا دمليكو ، وأنا الطيب الأول والثانى والثالث ، وأنا رئيس العسس الذى حاربك ، وأنا الذى أحرق قصر الملك ، وأنا الذى أطلقت سراح البطرني ، وأنا الذى قتلت البخارية وفتحت باب السجن ، وأنا الذى جئت بمعروف إلى هذه الخمارة ، وأنا الذى فعلت كل هذا ، فهل تعرفون هذا الفضل الجميل ؟ فقال معروف : أنا أول من يعترف بفضلك ويكون أطوع لك من بناتك ويمجد سيفه فى وجه من يعاديك ويناولك ، وإن عصاك ابن أخى عماد الدين هذا قتلت ، وهنياً لك القلاع والحصون والولاية عليها ، وقال البطرني : وأنا له مثل ظله ومن أتباعه وخدمه ، أعادى من يعاديه وأصادق من يصادقه ، وقال عماد الدين : إني لا أطلب القلاع والحصون ولا ملكها والولاية عليها ، ولكنى لا أطيع هذا القصير ، فقال شيحة : دع ابن أخنتك الآن فى غيه ، وأطيعونى جميعكم الآن فيما أمركم به ، لأقبض على حكام القيطان الثلاثة : كنوبر وكنيار وعبد الصليب ، وأجعلكم أنتم

حكّاماً في القيطلان ونأخذ أموالها وذخائرها والغراب المنصور والأسرى من المسلمين ونرجع إلى بلادنا ظافرين، من غير أن نجرد سيفاً أو نسفك دماً ، فقال معروف : افعّل ما شئت فلن يعصيك منا أحد .

تقدم جمال الدين وفك قيودهم وأغلاهم ، وأجلسهم في مكان منعزل في الحمامة ، ثم خرج منها وأغلقها عليهم ، وذهب إلى حكام المدينة الثلاثة في مجلسهم فقال له كنيار : ما حاجتك يا دمليكو ؟ فقال : رأيت التفتيش في المدينة قائماً على أشده ، فسألت عن سببه فقيل : إن أمراء المسلمين الأسرى قد سرقوا ، وهذا التفتيش للعثور عليهم وعلى من سرقهم ، فجنّت أدعوكم إلى خمارتي لتدخلوها وتفتشوها أنتم أنفسكم ، فقال كنيار : إيّ خمارتك لن تفتش ، لأنها خمارتنا وأنت عزيز علينا ، فقال : لا بد من ذلك ليطمئن الزبائن والناس ويأمنوا على أنفسهم إذا دخلوها ، وإذا أوى إليها سارق قبضت عليه وأحضرتة إليك ، فقال كنيار : لا بأس من ذلك ، وسندخلها ضيوفاً يكرمون فيها ويأكلون ويشربون . وقام الحكّام جميعهم ومضوا في صحبته إلى الحمامة ، وهناك منعوا الوزراء والجنود والناس من دخولها ، ودخلوها هم وحدهم ، فأغلقها دمليكو عليهم وجلس معهم ينادمهم ، وبعد برهة جاءهم غلام جميل أمردي يحمل خمراً ممزوجة بالبنج وكؤوسها فسقاهم منها حتى غشى عليهم ، وغطوا في إغماءة ثقيلة ، وكان هذا الغلام محمداً السابق بن جمال الدين شيحة . ثم وضع كلا منهم في برميل وأغلقه .

ونهب جمال الدين ونزع عنهم ثيابهم وألبسهم غيرها ، ثم أمر معروفاً وعماد الدين والبطرني أن يتزعا ملابسهم ويلبسوا ملابس هؤلاء الحكام الثلاثة ، وجعلهم في صورهم وأشكالهم ، وكان كنيار أعور ، ففقاً جمال الدين عين البطرني وجعله أعور مثله ، فقال : أضعت عيني يا شيحة ، فقال : سأردها إليك بعد الفراغ من حيلتي . ثم قال لهم : ستخرجون من الخمارة كأنكم حكام المدينة ، فاذهبوا من فوركم إلى ديوان الحكم ، فإذا جلستم فاطلبوني إليكم ، وحينئذ أدبر لكم الأمر لنهب الأموال ونجاة الأسرى والغراب المنصور والرحيل من هذه البلاد فقالوا : سمعاً وطاعة .

ركبوا جياد الحكام ومضوا إلى الديوان ، فلما جلسوا أمروا الجنود أن يأتوهم بالخمار دمليكو ، فأسرعوا إليه في خمارته وقالوا : إن ملوك المدينة وحكامها يدعونك إليهم ، فقال : لقد كانوا عندي الآن فلا شيء يدعونني ؟ فقالوا : نحن لا نعرف شيئاً ، ولا بد من أخذك إليهم طوعاً أو كرهاً ، فأغلق الخمارة وسار معهم حتى دخل على الملوك ووقف بين أيديهم . فقال له كنيار : يا دمليكو ، قد دعوناك لنكلفك بإحضار من سرق البطرني ومعروف بن حجر ، فقال إن أطعموني أحضرت لكم السارق ، ولكم أن تقتلوني إن أخلفت وعدى وكذبت في قولي ، فقال : نحن في طاعتك ولن نعصيك ، فقال :

أولاً: يصلح الغراب المنصور وينقل من الميناء الخرب إلى الميناء

العامة المستعمل ويقفل بالسلاسل من جهة البحر .

ثانياً : ينقل الأسرى جميعهم من المسلمين إلى الغراب المنصور .

ثالثاً : تنقلون أموالكم وذخائركم وتضعونها في الغراب المنصور .

رابعاً : تشرفون على هذه الأعمال في الميناء .

فأمروا بتنفيذ ما قاله دمليكو ونفذ في الحال ، ثم قالوا للخمار

دمليكو : هات لنا خمرًا لنشرب في الميناء ، فقال : سأتيكم بعدة براميل

لنشربوا منها كلما شئتم ، ورجع إلى الحمارة ونقل عدة براميل منها البراميل

التي حبس فيها ملوك القبطان ووضعها جميعها في الغراب المنصور .

وحين جاءت البراميل وأرادوا وضعها في الغراب المنصور اعترض

مدير الميناء ، وأصر أن يفتحها ليعرف ما فيها ، فاغتاظ دمليكو وخاف

أن تظهر حيلته ويبتل تدبيره ، وحاول صرفه عن عزمه فما استطاع ،

فنادى ابنه محمدًا السابق وقال : يا سابق ، فأجابه المدير نفسه وقال :

لييك يا أبى ، أنا محمد السابق ابنك ، فزال خوفه .

وقال دمليكو للملوك : أرى أن تنبؤوا عنكم في الحكم الوزير

بولص ، ثم تسافروا بالغراب المنصور لتطهروا الأموال في ماء المعمودية ،

ولتروا الكنيسة الزكية ، ثم تعودوا .

أقلع الغراب المنصور يحمل ملوك القبطان أسرى في البراميل والبطارقة

والأموال الكثيرة واستقبله البحر استقبال الأم فسكنت رياحه وهدأت

أمواجه ، واستمر يجرى على صدره حتى رسا على جزيرة العرائص في

اليوم الرابع من مسيره . وأمر البطرني بالتزول فيها .
ولما اطمأنوا قال معروف : يا شيحة لقد ضقنا ذرعاً بملابس أهل
الكفر ، فسمح لهم باستبدال ملابسهم .

ثم ركبوا في الغراب المنصور وأقلع بهم يجرى إلى الإسكندرية ،
ونظر شيحة إلى البر وهم سائرون في البحر ، فرأى شخصاً على جبل يلوح
بمئذيل في يده ، وسمعه يقول : ميناء ! . . . يا قبطان . . . فغاب قليلا
ثم رجع ، فسأله معروف : من هذا الذي كان يلوح بمئذيله في الهواء ؟
فقال : ابني محمد السابق ، فقال : وماذا قال لك ؟ فقال : عرفت أن
غلاماً اسمه عرقوص بن مغلوبين قادم في أربعين من أبناء الملوك ومعهم
جنودهم إلى مصر للقتال والحرب ، فأمرته أن يمضي إلى الملك الظاهر
ويخبره ليستعد لقتالهم قبل أن يبعثوه . فقال معروف : إن هذا الغلام
ابني ، وهو السبب في خروجي من القلاع وحبسي في القيطلان سبعة
عشر عاماً ، ولا بد من نزولي هنا لأفتش عنه وألاقيه ، فأمر شيحة البطرني
أن يتجه بالغراب إلى البر ويرسيه .

وكتب كتاباً إلى الملك الطاهر وقال لأبي بكر البطرني : خذ هذا الكتاب
والمملوك الثلاثة إلى الملك ، ومعك عماد الدين يساعدك ، فقال عماد الدين :
لست بذهاب إلى الملك ، ولكني سأمضي إلى القلاع لأخبر من فيها
بظهور خالي معروف .

فقال شيحة لأبي بكر : وعليك أنت أن تسلم الملك من معك والكتاب

فقال : سمعاً وطاعة ، ثم ألق الغراب إلى الإسكندرية .

نزل معروف من الغراب المنصور ونزل معه شيحة ليرعاه ويغيثه عند الضيق ، وجدَّ معروف في المسير ماشياً حتى تعب فجلس يستريح ، وجعل يفكر : كيف يقطع هذه الفيافي الشاسعة ، ولم يطل تفكيره هذا حتى جاءه شيحة بجواد قوى ، وقال : اركب هذا وسر إلى وادى الزهور فإن ابنك لا يزال فيه .

كان جوان قد أتى بعرقوص إلى مغلوين وقال له : إن المسيح أخبرني أن هذا ابنك من جارية خطفها التجار وما زالت تنتقل من بلد إلى بلد بالبيع والشراء حتى ولدته في بيعة ، ورباه كبير ملوك القبطان ، وقد أمرني المسيح أن آتي به إليك ، فصدعت بأمره ، وجئتك به . وكان عرقوص جميلاً شجاعاً ، ظهر على أفرانه حتى جعله أبوه رئيساً لأبناء الملوك .

وأراد عرقوص أن يتزوج من أخته شמוש بنت مغلوين ، وكان أبوها يريها لنفسه ، وعز عليه أن يمنعها من ابنه خشية أن يغضب ويثور وتكون العاقبة وخيمة ، فحكى لجوان وأطلعته على ما في نفسه فقال له : سأدبر لك الأمر ، ثم قال لعرقوص : إن أباك رضى أن يزوجك ابنته « شמוש » على أن يكون صداقها رأس الظاهر بيبرس ملك المسلمين ، فقال : رضيت ، ثم أخذ جيشاً جهزه له أبوه مغلوين وأخذ معه أبناء الملوك وجيوشهم ، وسار حتى نزل بوادى الزهور ، وعرف ذلك جمال الدين شيحة ، فأخبر معروفًا وأعطاه جواداً يمتطيه إلى ذلك الوادى .



اللبؤة تهرب من عرقوس

كان عرقوص قد صاد لبؤة وجلسها في قفص عنده ، وذات يوم جمع القواد وقال لهم : أحيطوا بهذه الساحة ، وسأطلق فيها اللبؤة ، فن هربت من عنده قتلته .

ركب القواد جيادهم وأحاطوا بالساحة على شكل دائرة ، ثم أطلق اللبؤة ، وحاولت أن تهرب من أية ناحية فلم تستطع ، وبعد أن أتعبت القواد استطاعت أن تهرب من تحت بطن الجواد الذي يركبه عرقوص ، وانطلقت تجرى في الخلاء ، فجرى عرقوص بجواده ورائها ولم يدركها ، ودخلت أجمة كثيفة ، فترل عن جواده ودخل خلفها ، واتفق أن قدم أبوه معروف في ذلك الوقت وراه قد دخل الأجمة فدخلها من ورائه .

زارت اللبؤة فاجتمع حولها أسود من الأجمة ، ووجد عرقوص سيفه ليطرد الأسود أو يقتلها ويصيد اللبؤة ، فسمع صوتاً من خلفه يقول : لا تخف يا بني ، والتفت ورائه فوجده قد جرد سيفه وهوى به على الأسود ، هذا يقسمه نصفين ، وهذا يطيح رأسه ، وهذا يبقر بطنه ، وساعده عرقوص حتى قتلوا الأسود واللبؤة في أثناء المعركة .

ولما انتهت أقبل عرقوص على أبيه معروف وقال له : من أنت يا هذا ؟ فقال : أنا أبوك معروف بن حجر ، وأنت ابني حقاً ، وقد كنت في سجن كنيار ملك القيطان ، وخلصني منه عمك جمال الدين شيحة ، وكان معه ابن عمك عماد الدين علفم ، وقد علمت أنك في هذا المكان فجئت إليك لأجمع شملى بك ويفرح بك أبوك ، وأملك مريم الزنارية

بنت حنا صاحب مدينة جنوة ، وأحب أن تصحبني إلى القلاع والحصون لتعيش في كنف أبيك ، وبين أهلك وعشيرتك ، فقال عرقوص أنا ابن مغلوبين ، وقد كنت عند كنيار ملك القبطان ، وما سمعت قولك هذا إلا منك ، وسأعرض هذا الأمر على جوان عالم ملة الروم ، وأرى ما سيقول .

اجتمع عرقوص وأبوه معروف وعالم الملة جوان والبرتقش تابعه ، فلما رأى البرتقش معروف بن حجر قال لسيدته جوان بالرومية : ردت البضاعة إلى أهلها واجتمع عرقوص بأبيه معروف ، فقم واهرب قبل أن يحل بك العطب . فقال جوان : وهل تصدق أنى أهرب وأترك معروفاً يأخذ ابنه ؟ ذلك ما لا يكون .

واستقبل جوان عرقوص وسأله : أين اللبوة يا عرقوص ؟ فقال : قتلت مع الأسود ، وقد كنت على خطر عظيم ، وكادت الأسود أن تفترسني ، لولا أن هذا الفارس جاء لنجلى ، فقال : إن أبناء الملوك سيعيرونك لأنك لم تستطع إرجاع اللبوة ، وأرى أن تدخل هذا الرجل في القفص ، وإن سألتك أبناء الملوك عن اللبوة فقل لهم : قتلها كما قتلت غيرها من الأسود ، وقد جتكم برجل من البرية بدلاً منها ، فقال : هذا حسن ، وكان ذلك الحديث بالرومية ، والتفت عرقوص إلى معروف وقال : إن كنت أبى حقاً فادخل هذا القفص ، فقال : وهل تكون قد صدقتني إن أنا دخلته ؟ فقال : نعم ، فدخله معروف وهو يذكر الله ويسبحه ، لينجي منه كما نجي يونس من

حوته الذى التقمه ، فهض جوان إلى القفص وأغلق بابه بيده وقال : وقعت في يدي فدفنتك وأدخلتك قبرك ، فقال : أيها اللعين ، ما دام ابني معي فلا يهمني أن كنت سجيناً أو طليقاً ، وما دمتنا مؤمنين بالله مخلصين له الدين فإنه ولينا ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

كانت الشمس حينئذ قد جنحت للغروب ، فقدم رسول يحمل كتاباً من مغلوبين إلى عرقوص ، ولما أخذه وفضه وجدته يقول :
من مغلوبين إلى ابنة العزيز عرقوص ، لقد كان سفرك لقتال ملك مصر من تدبير عالم الملة جوان ، وما كان لي فيه رغبة ، وقد طال مقامك في وادي الزهور ، فإذا قرأت كتابي هذا فاركب راجعاً إلينا لتنوب عني في الحكم ، فقد عزمت أن أقوم أنا بقتال المسلمين وملكهم الظاهر ، وإن كان لك رأى آخر فاكتب لي به وابعثه مع رسولي هذا .

التبس على عرقوص أمره ، فألقى كتابه هذا في يد جوان ليقرأه ، ولما فرغ من قراءته قال : رأيت كيف أنك ابن مغلوبين ، وأن هذا الرجل الذى في القفص كذاب أشرف ؟ ! وقال الرسول : اكتب إلى أبيك بما ترى لأرجع إليه ، فقال : أنظرني الليلة حتى أفكر في الأمر ، فقال : وأين أبيت وأنا ؟ فقال : ثم فوق هذا القفص الذى فيه معروف ، فوثب فوقه وسوى مضجعه ونام .

كان هذا الرسول جمال الدين شيحة ، فلما سكن الليل فتح القفص وأطلق معروفًا وحذره أن يدخل القفص مرة ثانية ، أو يجيب

ابنه إذا ناداه ، ثم كتب ورقة وألقاها على صدر عرقوص ومضى .
استيقظ عرقوص في الصباح فلم يجد معروفاً ولا رسول أبيه ، ووجد
ورقة على صدره فقرأ فيها :

حبست أباك معروفاً في القفص ، مخدوعاً بكلام جوان ، وقد أطلقتها
الليلة ، وأريد منك أن تضرب جوان ألف سوط ، وإن لم تفعل ضربتك
أنت ألف سوط .

إمضاء : شيخة

وكان معروف قد انتحى ناحية خفية ليرقب ما يكون من ابنه
عند الصباح .

أحضر عرقوص جوان وقال له : لقد أطلق شيخة معروفاً ، وأبطل
مكرك ومحالك ، فخذ هذه الورقة واقرأ ما فيها ، فلما قرأها قال : وهل
عزمت أن تضربني ؟ فقال : نعم ، وماذا يكون ؟ فقال : إن ضربتني
غضبت عليك ، فقال : وماذا يقع إن غضبت ؟ فقال : أبصق بصقة
تجعل الأرض بجزاً والناس فيها سمكاً ، وأنت واقف على ربة تنبح نباح
الكلاب ، فقال : ابصق بصقتك هذه لأرى ما يكون ، فقال :
لا أرضى بذلك إشفاقاً على أهل الملة ، فقال : الحق أنك عاجز وكذاب
فهات لى أبى ، فقال : إذا ناديتك جاءك ، فجعل ينادى فلم يجبه أحد
فأمسكه وضربه وأذره الانتقام المرير .

أما البطرنى فقد وصل إلى الإسكندرية ثم نقل ما فى الغراب المنصور

إلى مراكب جرت في النيل حتى رست عند بلاق ، وأمر رجاله بالمحافظة على الملوك الأسرى والأموال ، وذهب هو إلى الملك الظاهر وناوله كتاب شيحة وأخبره بما كان ، فابتهج لظهور معروف وعتب عليه أن تركه ، فقال : أصر هو على النزول من الغراب المنصور ليلقى ابنه عرقوص ويأتى به ، فقال الملك : وأين نزل ؟ فقال : قبائل جبل الرمان ، ومن خلفه وادي الزهور ، فقال إبراهيم : أنا أعرف مكان عرقوص ، فقال الملك : وجب علينا الآن أن نذهب إلى معروف حيث كان ، وأمر عثمان أن يعدّ الجواد ، وأمر إبراهيم وسعداً أن يسافرا معه .

أخذ الملك وأصحابه يقطعون صعب الأرض وسهلها حتى أشرفوا على وادي الزهور ، فرأوا معروفاً جالساً في ظل شجرة فأقبلوا عليه وسمعوه يقول في ألم وحزن :

وأمر ما ألقاه من ألم الجوى قرب الحبيب وما إليه وصول
كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

فتبادلا السلام والتحية وعرف بعضهم بعضاً ، ثم سأله الملك عن جلوسه وحده في هذا العراء فقال : أنتظر الفرج من ربي وأن ييسر لي الحصول على عرقوص ابني ، فقال السلطان : إن ابنك كافر وعمله غير صالح ، وقد قال الله تعالى لنوح عليه السلام : يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، فقال : دقق في الآية تجد أن نوحاً لم ينس أنه ابنه ، فقال : إن ابني من أهلي ، وما رأيت يا مولاي أجمل ولا أفصح

ولا أركى من ابني هذا ، فقال السلطان : سر بنا إليه لنختبره في الحكم والمعركة والفهم .

دخل جميعهم على عرقوص في مجلسه فقال الملك الظاهر : جئتكم مظلوماً ، فقال عرقوص : وما ظلامتك ؟ فقال : اشتريت من هذا الرجل - وأشار إلى معروف - فرساً على أنها حامل ونقدته ثمنها ، ولكنني وجدتها حائلاً ، ورددتها إليه فلم يقبل ، فقال عرقوص لمعروف : ولِمَ لم تقبلها ؟ فقال : بعثها بغير خيار ، فقال السلطان : ولكنني اشتريتها بشرط الحمل ولم أجدتها حاملاً ، فقال عرقوص : أعنك شاهدان على ما تقول ؟ فقال : هذان شاهداي - وأشار إلى إبراهيم وسعد ، ففرق عرقوص بين الشاهدين ، وأبعدهما عن مجلس حكمه ، ثم سأل السلطان : بكم اشتريت الفرس ؟ فقال : بمائة دينار ، فقال : وما لونها ؟ فقال : شهباء ، فقال : أفيها عيوب ؟ فقال : لا ، ولكنها هزيلة ، فأحضر سعداً وسأله : كم ثمن الفرس ؟ فقال : عشرة دنانير ، فقال : وما لونها ؟ فقال : شقراء ، فقال : أفيها عيوب ؟ فقال : عرجاء عوراء لا تصلح للحرب . فأحضر إبراهيم وسأله : كم ثمن الفرس ؟ فقال : ألف دينار ، فقال : وما لونها ؟ فقال : دهماء كأنها ظلام الليل ، فقال : أفيها عيوب ؟ قال : كحلاء جميلة تفوق الوصف ، وتكر على صفوف الأعداء صفناً بعد صف ، فنظر إلى الملك ، وقال : ظلامه باطلة ، ولولا أني أعرف مكانتكم لأدبتكم ، فأنت ملك المسلمين الذي وصفه لي عالم الملة جوان ،

وهذا إبراهيم وهذا سعد ، وإني أعرفهما من قبل ، وهذا معروف
ابن حجر ، وله عدة أيام في هذا الوادي ، وليس معه فرس ولا خيل ،
فقال معروف : مرحى مرحى يا بني ، فقد نظرت فصدقت ، وحكمت
فعدلت ، وعليك أن تحيي ملك الإسلام وأصحابه وتكرمهم ، فمض
قائماً وحياهم وقبل يد الملك الظاهر ، وأجلسهم في خيمته وأمر بالطعام
فأحضره الخدم ووضعوه بينهم ، وقبل أن يمدوا إليه أيديهم دخل عثمان
مسرعاً وقال للملك : يا أشقر ، الهالك الطعام عن عثمان فنسيته ، وتركته
يموت جوعاً ، ولكن إن كنت نسيته فما نسيته ، لا تأكلوا من هذا
الطعام ، فإن فيه السم الزعاف ، فاندھش عرقوص وقال : وكيف ذلك
يا عثمان ؟ فقال : لا تجادل فيما ليس لك به علم ، واستمع لنصحي ،
فأخرج الملك خنجره وقطع به قطعة صغيرة من اللحم ورماها أمام كلب
كان بجوارهم ، فلما أكلها مات لساعته ، فقال الملك : أهذا قراك
يا عرقوص ؟ فأقسم أنه لا علم له بهذا السم ، وقال : لقد كنت أسبقكم
في الأكل منه ، ولولا عثمان أدركني لأسرع إلى الموت ، وكنت كهذا
الكلب جثة هامدة ، ثم أحضر الطباخين وسألهم عن هذا السم الذي في
الطعام فقالوا : ما وضعنا فيه سمّاً ، ولا عرفنا ذلك ، ولكن عالم الملة جوان
دخل المطبخ وجعل يبارك الطعام ويتلو عليه آيات البركة ، فقال عرقوص :
ومن أمركم أن تدخلوه المطبخ ؟ ثم قام وضر بهم ، ولولا أن الملك شفع فيهم
اقتلهم .

ثم أمر أن يأتي إليه جوان فبحثوا عنه فلم يجدوه ، فقال لإبراهيم :
 أتستطيع يا سعد أن تدركه وتحضره قبل أن يهرب ؟ فقال : أرجو أن
 يوقفني الله ، ثم أسرع إلى ربوة عالية فرأى جوان ، وتابعه البرتقش سائرين
 إلى الدير ، فأسرع إليهما وأمسكهما وأحضرهما بين يدي عرقوص . فقال له :
 كيف أبحث لنفسك أن تقتل الضيوف وتقتلني ، فقال : ما أردت إلا
 قتل المسلمين ، فأمر أن يضرب ألف سوط ، وأن يضرب تابعه البرتقش
 ألف سوط ، فقال إبراهيم : ولن يضربهما أحد غيري ، ثم نهض وضرب
 جوان حتى أنهكه ، وأقبل على البرتقش ليضربه فناوله عقداً من الجوهر
 وقال : اعتقني يا إبراهيم فإنه لا ذنب لي . فقال إبراهيم لعرقوص : إن
 هذا تابع لا ذنب له ، فقال : ذلك الحق ، ثم طردهما ، فخرجا ومضيا
 إلى الدير ، ثم أحضر طعاماً آخر فأكلوا هنيئاً .

وتعب الملك في إقناع عرقوص أن يترك دينه ويدخل في دين الإسلام
 ويسافر إلى مصر مع أبيه ، ولما ضاع تبعه سدى قال له : إن لم تستجب
 لقولي ونصحي فسيكون السيف بيني وبينك ، فقال : ذلك ما أردت ،
 وذلك ما إليه خرجت ، فقال الملك : والملتقى عند حلب ، وإن لم تجيء
 للقائي عندها جئتك وقاتلتك ، فقال : لك ذلك ، ثم استأذن الملك ،
 ورحل هو ومن معه ومعروف بن حجر .

عباً عرقوص جيوشه ورحل بهم حتى أشرف على حلب فعسكر
 أمامها وكان معه جوان والبرتقش ، ورأى عماد الدين أبو الخيش حاكم

المدينة هذه الجيوش التي ملأت الفضاء فأغلق أبواب المدينة وحصن أسوارها بالجنود والمدافع وأرسل إليه عرقوص كتاباً قال فيه :

ما جئت إلا لقتال الملك الظاهر ، فإن غلبته فأنت حاكم حلب ، وإن غلبني كنت مثلك خير مطيع له ، ولهذا أرى أن تفتح أبواب المدينة ليشتري منها الجنود حاجاتهم ، على أن نحافظ على المدينة ، ولا نؤذي أهلها ، وهذا عهد بيني وبينك ، أرحاه بنفسى ، وأحميه بسيفى ، ففتح الحاكم المدينة ، ونشطت المعاملة بين الجنود وأهلها فى أمن وسلامة .

وبعث الحاكم إلى الملك الظاهر كتاباً قال فيه :

بغتنا عرقوص بن مغلوبين بجيوش لا حصر لعدددها فأدركننا قبل أن توعد نيران الحرب بيننا وبينه ، وقد نزل بيجوشه أمام المدينة ومعه أربعون من أبناء الملوك ، وعالم الملة جوان وخادمه البرتقش .

فلما قرئ الكتاب فى مجلسه قال لمعروف : هذا وقت العمل والجد ، ولا مجال للهاون والراخى ، فإما سافرت معنا ، وإما لبثت هنا مستريحاً حتى أرجع إليك بابنك أسيراً ، فقال : لن أقعد عن الجهاد وإن قاتلت ابنى ، فقال : على بركة الله .

خلف الظاهر ابنه السعيد ووصاه بالعدل والتقوى ، ورحل بيجوشه حتى نزل على ميمنة جيش عرقوص أمام حلب ، ولما استقر فى منزله هذا بعث إبراهيم إلى عرقوص بكتاب قال فيه :

السلام على من اتبع الهدى ، من الملك الظاهر إلى عرقوص . اعلم يا بنى أن العاقل من اعتبر بغيره ، ولعلك عرفت ما فعلناه بملوك الروم والإفرنج حتى أرغمتهم على دفع الجزية إلينا كل عام . وأنت ابن معروف ابن حجر الذى عرف ربه وآمن به وجاهد فى سبيله ، فأترك ما أنت فيه من رجس الكفر وظلمته ، واسلم لتصون دمك ويكون لك عزة المؤمن وحرمة ، واحضر إلينا ومعك اللعين جوان ، وأما جنديك فمن أسلم منهم سالناه ، ومن أبى وكفر قتلناه ، والسيف أصدق أنباء من الكتب .

ولما قرأ الكتاب دفعه إلى جوان فقرأه وقال : ذلك ملك لا ينفع فيه إلا السيف ، فأوقدها حرباً تأكله وتأكل من معه ، فكتب إليه بالقتال والحرب ودفع الكتاب إلى إبراهيم وشيعه .

بدأت الحرب وكانت مبارزة بين الفرسان ودامت ثلاثة أيام قتل فيها أبطال الإسلام جميع من تصدى لمبارزتهم من جيش الكفر والضلال ، فقال جوان لعرقوص : إن دام القتال على هذه الحال خسرت أبطالك وأقنيت جنديك وكنت لقمة سائفة للمسلمين ، وأرى أن يحمل الجيش عليهم حملة واحدة ، فقال عرقوص : ذلك لا يكون حتى أبارز أنا أبطالهم ، وسأخرج إليهم غداً .

برز عرقوص إلى الميدان وكان بطلاً شجاعاً لا يغلب ، فجرح كل من بارزه من أبطال المسلمين ، وكان كلما جرح فارساً قال له : ارجع وعالج نفسك ، ثم تعال وبارزنى ، وتصدى له أيدمر وسعد وإبراهيم وغيرهم

فجرحهم جميعهم ، وجاء جمال الدين شيحة إلى الملك الظاهر في مجلسه وقال لمعروف : لم لم تخرج يا معروف إلى مبارزة ابنك ؟ ألسنت من المجاهدين ؟ فقال : بلى ، فقال : اخرج إليه غداً ، وإن جاءت الظهيرة ولم تأتني به أسيراً قتلته أنا وحرمتك منه ، وأرحت الناس من قتاله ، فقال : وما حيلتي فيه إن ظهر عليّ وغلبنى ؟ فقال : لا يكون إلا ما سمعته مني . فقال : أرجو من الله التوفيق والمعونة .

جمع الوالد وابنه ساحة القتال : هل يغمد الولد سيفه في قلب يفيض من أجله حناناً ورحمة ؟ أو يغمد الوالد سيفه في جسم خلق من دمه وقلبه ؟ ولما التقيا جمدا الجوادان وكأتهما قد شدا بالأرض ونظر كل منهما إلى صاحبه نظرة شاخصة تشع دهشة وحيرة ، وتذكر معروف قول شيحة : فانطلقت منه صرخة مدوية ، انقلت على أثرها جواده إلى ابنه ، فد يده ونزعه من سرجه ، وأسرع إليه سعد فقاد جواده ، وانقلت جميعهم إلى جيش المسلمين ، ووضع معروف ابنه بين يدي الملك الظاهر ، فغشيت عرقوس سنة من النوم ، فغمضت عيناه ، وأطرق ، فقال إبراهيم : إن أسلم ابنك يا معروف فلي عندك هبة سنية ، فقال : لك عندى ماتشاء ، إن صدق حدسك وظنك ، فقال : لأبغى لإسيفك ذا الحيات ، فقال ومعه ألف دينار ، ثم مسح إبراهيم على جبهة عرقوس فأفاق يلهج بالشهادتين . فثار عجب الحاضرين وسألوه : كيف استيقظت من سباتك مسلماً ؟ فقال : رأيت في المنام رجلاً طويلاً مملوءاً هيبة ووقاراً ، وفي يده سيف



مروء يقاتل ابنه

يقطر الموت من حده ، فقال : يا عرقوص ، إنك ابن معروف بن حجر
 وإنه من نسلي وذريتي الذين هداهم الله للإيمان ، فأسلم ، ولا تكن ممن
 طبع على قلوبهم فهم لا يعقلون ، فسألته : ومن أنت ؟ فقال : أنا على
 ابن أبي طالب ، ثم نطق بالشهادتين ، فنطقت بهما مثله ، وأيقظتموني
 وأنا أرددها ، وهذا سبب إسلامي ومعرفتي لأبي ، ففرح أبوه وصحبه ، وقال
 الظاهر : تمن ما تحب يا عرقوص ، فقال : لن تكون لي أمنية حتى أرجع
 إلى الجيوش وأعلن إسلامي فيهم ، فن تبعني سلم من سني ، ومن عصاني
 حاربتة وعاونتي بجيشك لنستأصل شأفة هؤلاء الضالين ، فقال : افعل
 ما شئت .

كان جوان قد حض أبناء الملوك على أن يشوروا في المسلمين ويحملوا
 عليهم حملة شعواء بعد أن أسر كبيرهم عرقوص ، فقالوا له : لا ينبغي
 أن نعمل في أمرنا ، ونحن صابرون حتى نرى ما يفعله المسلمون بكبيرنا ،
 وانتظروا يرتقبون ما يكون .

ركب عرقوص جواده ورجع إلى أصحابه وجيوشهم ، ولا دنا منهم
 وآه البرتقش ، فقال لسيدة جوان : إن نور الإسلام يلمع في جبين عرقوص ،
 وأظنه قد أسلم ، فاهرب قبل أن يظهر كذبتك ، ويفتضح أمرك ، ويحل
 بك العطب ، فخاف وأخذ البرتقش وهربا إلى الدير .

أما أبناء الملوك فإبهم استقبلوا عرقوص فرحين مهنتين ، وابتدروه
 قائلين : لا تسألنا عن شيء فقد رأينا في المنام ما رأيت ، وسبقناك

إلى الإسلام ، فقال : لقد رضى الله عنكم ، فأعلنوا في الجيوش إسلامكم
 وادعوا إليه ، واستعدوا لقتل من عصى واستكبر ، وفي الحال انتشر
 الدعاة إلى الإسلام في الجيوش ، فأسلم جميعهم ، وما شذ منهم أحد .
 ثم رجع عرقوص إلى الملك الظاهر وصحبه ، وبشرهم بإسلام الجيوش
 والقادة جميعهم ، وأبدى أسفه لهرب جوان وخادمه . فقال الظاهر : تمن
 ما أحبيت الآن ، فقال : أتمنى أن تكون لى كلمة لا ترد ، ومجلس لا يعلو
 عليه غيرى ، ويد مبسوطة لكل طالب ، وسيف طليق حر ، وألا يحكم
 فى أحد . فقال الظاهر : ماذا تعنى بهذا القول : فقال : تكون لى شفاعة
 عند مولاي لا ترد ، وإذا بسطت يدي فأخذت من مولاي كتاباً جاءه
 وأنا معه فقرأته لا يضييق صدرك بما فعلت ، وأن يكون لى كرمى خاص بى
 فى ديوان مولاي الملك ، وأن يكون سببى طليقاً حرّاً أقتل به من يستحق
 القتل بحكم الإسلام ، وإذا فتحت مدينة بسببى وأعجبتنى سكنت فيها .
 فقال الظاهر : لك يا عرقوص جميع ما تمنيت ، ثم دخل جميعهم
 مدينة حلب ، وأقاموا فيها أكثر من شهر ، ثم عزموا على الرحيل إلى مصر ،
 فقال معروف : أستاذن الملك فى أن أسافر بابنى إلى جنوة لأريه أمه
 مريم التى حرمت من رؤيته ثمانى عشرة سنة ، فأذن له ، ورجع الملك
 إلى مصر .

أما معروف فقد رحل هو وابنه إلى جنوة ، واستقبلهما الملك حنا
 استقبالا رائعاً جميلاً ، وما كاد يضمهما قصر الملك حتى عرفه بابنه

وابن بنته عرقوص، ففرح به فرحاً عظيماً ، ثم سأله عن زوجته مريم ، فقال : لم تغادر حجرة الأحزان والحسرات مدة غيبتك ، فنهض قائماً وأخذ ابنه معه ومشيا إلى مريم في غرفة أحزانها ، فكشفا عنها بهذا اللقاء الباغت كل هم ، ونهضت إلى ابنها فضمته إلى صدرها ، ولبث فيه مدة حتى سرت فيها الحياة وارتد إليها بصرها ، الذي ابيض من الحزن ، ثم انفرجت عنه يداها ، ووقفت أمامهما وكأنها فتاة في مقتبل عمرها تشع نوراً وجمالاً ، وبعد ثلاثة أيام استأذن معروف أباهما في الرحيل ومعه زوجته فأذن له ، وودعه أكرم وداع وأجمله .

وسافر معروف وابنه وزوجته إلى قلعة صهيون ، فجاءه الناس من كل فج ، فرحين مهئين وأعلن فيهم ولاءه وطاعته لجمال الدين شيحة ، ثم سافر بهما إلى مصر ، فأنزلهم الملك الظاهر في ناحية من بيت ابن باديس السبكي التي أعدها لهم .

أرسل مغلوبين إلى مدينة حلب جيشاً بقيادة شطرون وترس النصرانية ليشقى غيظه من أهلها بالفتك بهم ، فاستغاث حاكمها بالملك الظاهر ، فنهض من فوره ليصحب جيش النجدة الذى أمر به أن يسافر إلى حلب ، ولكن عرقوص كفل له قيادة هذا الجيش . والبلوغ به إلى ما يريد من نصر عظيم ، دون أن يتعب نفسه ويسافر معه . وأصر والده معروف أن يكون مع جيش النجدة الذى وكل الملك أمرته إلى ابنه عرقوص .

وجدت عرقوص بجيشه فى السير حتى أشرف على حلب ، فوجدها أمام جيش عرمرم وهو على أهبة القتال ، فعسكر تجاهه ، وبعد يوم وليلة نشبت حرب شعواء بين الفريقين .

قتل شطرون وترس النصرانية فى تلك الحرب ، فابتأس جوان اللعين ونهض يحض الجيش على الاستبسال ، ويمنهم بالنصر العاجل ، فحمى وطيس الحرب ، وأصيب جواد عرقوص بسهم فى فخذه فشرده به وخرج يجرى فى الخلاء واستعصى على اللجام ، فلم يقدر عرقوص على كبح جماحه ورآه أبوه معروف على هذه الحالة فانفلت يجرى من خلفه حتى أدركه واعترض جواده حتى وقف فقال له : يا بنى ، حرام على المؤمن المجاهد أن يولى الأديبار ، فقال : ما فررت يا أبى من قتال ، ولا سئمت الكفاح

والنضال ، ولكن جوادى أصيب فى فخذه فشرد ، وما استطعت كبجه ،
 فنزل وعالج الجرح بمرهم الاستقطاب فالتأم ، ثم رجعا ليستأنفا القتال ،
 ووجدا فى طريقهما شيخاً يحمل لإبريقاً به ماء ، فأقبلا إليه وسألاه أن
 يسقيهما ، فسقاهما من إبريقه ، فغابا فى إغماء عميقة .

كان هذا الشيخ جوان اللعين ، وقد وضع فى الماء بنجاً ، وانطلق
 يستقبل معروفاً وابنه ، حين رأهما قد خرجا من المعركة ، فكتفهما وربطهما
 على جواديهما ومضى بهما إلى أنجبرت ملك مدينة الأفلاق ، وعرفه بهما
 وأفهمه أنهما نكبة على الناس ، وأشار عليه أن يقتلها فوراً ، فقال البرتقش ،
 لا تسمع كلام جوان ، والعاقل من نظر إلى العواقب ، واعلم أن قتلها
 نكبة كبرى عليك وعلى مدينتك ، فإن الملك الظاهر قوى بجيوشه ،
 وإذا عرف أنك قتلتهما أطاح برأسك ، وقضى على أهلك وجيشك وخرب
 ديارك ، وأرى أن تلقيهما فى سجنك حتى تنتهى الحرب الدائرة بيننا وبين
 المسلمين فى حلب ، فإن كانت لهم افتدينا بهما ، وإن كانت عليهم
 قتلناهما ونحن آمنون على أنفسنا وأموالنا وديارنا ، فقال أنجبرت : ذلك
 الحق ، وأمر بوضعهما فى السجن .

وانتهز الكفار غيبة عرقوص وأبيه فحملوا على المسلمين حملة قاسية
 ولقيهم المسلمون بصبر وثبات وقوة ، وجاءهم إذ ذاك الملك الظاهر وجيشه فنزلوا
 على الكفار نزول القضاء ، وما نجا منهم إلا من هرب فى الصحراء ، ثم سأل
 الملك الظاهر عن عرقوص فحكوا له ما حصل ، فلبث فى حلب ينتظر عودته .

اغتاظ جوان من إرجاء قتل معروف وابنه ، ودفعه هذا الغيظ إلى أن يسعى إلى أن يضم إليهما في سجنهما أمير كبير في برصة اسمه أصلان ، فقال للبرتقش : هذا عقد من الجوهر قيمته ألف دينار ، وهو لك إن سرقت أصلان من برصة ، وجئتنا به ، ثم ناوله العقد .

ذهب البرتقش مستخفياً واستطاع أن يدخل القصر وبينج من فيه ، ثم دخل على أصلان وهو نائم في غرفته فبنجه وكتفه ، ثم انتبه إلى ما يفعله فقال في نفسه : إني الآن في خطر ، وقد أمسك وأنا خارج به فيكون مصيرى الهلاك ، وماذا على جوان إن مت أو حييت ، ثم أخرج من جيبه ورقة وكتب فيها :

إلى الملك مسعود حاكم برصة : أمرني جوان أن أسرق أصلان ، وقد سرقتة خوفاً منه ، وذهبت به إلى أنجبرت ملك الأفلاق ليلقيه في السجن مع معروف بن حجر وابنه عرقوص ، فاكتب إلى الملك الظاهر في حلي بذلك ليأتيهم بجنده ويخلصهم من سجنهم قبل أن يغريه جوان بقتلهم ؛ وما كتبت إليك هذا إلا رغبة في خلاصهم ، وإن كنت قد أكرهت على سرقة أصلان إكراهاً لم أجد لي منه مخلصاً ، ثم ترك الورقة فوق فرش أصلان ، وحمله وخرج به إلى أنجبرت ملك مدينة الأفلاق ، فوضعه هذا في السجن مع معروف وابنه .

كان أصلان يحفظ القرآن ويكثر من تلاوته في سجنه ، فرغب عرقوص حين سمعه أن يحفظ شيئاً منه ، فجعل أصلان يحفظه حتى حفظ

منه كثيراً ، فاغتاز جوان من ذلك وفرق بينهم وجعل كلا منهم في مكان وحده .

عكف عرقوص في سجنه يتلو القرآن في صوت رنجيم مؤثر ، فسمعتة تحفة الروم بنت أنجبرت ملك الأفلاق ، فطربت واهتز قلبها لما سمعت من آيات الله البينات ، فأمرت بنقله إلى قصرها ، وهناك طلبت منه أن يتلو عليها ما كان يتلوه في سجنه ، فجعل يقرأ القرآن وهي تسمع له في خشوع وغبطة ، ثم عرضت عليه في استحياء أن يتزوج منها ويحفظها شيئاً مما يتلوه ، فقال : لا يكون ذلك حتى تدخلني في دين الإسلام ، فقالت : قد دخلت في دين الإسلام فعلمني ما أقوله ، فعلمها النطق بالشهادتين ، ونظمت بهما في صدق ويقين وتم عقد الزواج وأعطاهما خنجراً من ذهب كان معه صداقاً لها . وأراد الله أن يكون له منها غلام سيكون له حديث ذو شأن .

كتب مسعود صاحب برصة إلى الملك الظاهر في حلب ما وقع لأصلان ، وبعث إليه الورقة التي كتبها البرنقش وتركها على فراشه ، وطلب منه النجدة قبل أن يحل بمعروف وابنه وأصلان الضرر .

وقدم الملك الظاهر بجيشه إلى مدينة الأفلاق فارتعدت فرائص أنجبرت ملكها وجعل يؤنب جوان ويشتمه ، لأنه أوقعه في ورطة لا يدرى أيكون فيها حتفه وضياح ملكه أم يخرج منها سليماً معاف ، فجعل جوان يهدئ من فزعه ويبشره بنصره حتى خرج إلى الملك الظاهر في جيشه ، وبدأ

القتال وأفي كثيراً من رجاله وجنده ، وتحفرت تحفة (الروم) إلى معونة المسلمين ، فأطلقت معروفاً وابنه وأصلان من السجن ليقاتلوا معهم ، وأحضر لهم شيحة جياداً وسلاحاً ، فخاضوا مع الملك وجيشه غمار تلك الحرب ، وسحقوا بسيفوفهم الأعداء سحقاً ، وانتهت بأسر أنجبرت ، وطلب الأعداء الأمان ، فسكت القتال وجلس الملك الظاهر على عرش مدينة الأطلاق ، وحيء بأنجبرت ملكها أمام الملك الظاهر ، وقبل أن يسأله عن شيء ، أخبره عرقوص ما تم بينه وبين ابنته تحفة الروم من إسلام وزواج وعشرة ، فقال أنجبرت : إن ابنتي ملك لك ، وإن أردتها معك جهزتها بما تملك يميني من المال ، وأرجو أن أكون عتيق سيفك إكراماً لها ، فقال أصلان : لا بد أن تدفع نفقات تلك الحرب التي كنت السبب فيها بجسك معروفاً وابنه فقال : لكم ما تطلبون ، وإني لكم عبد مطيع ، فقال الملك الظاهر : قد عفونا عنك إكراماً لابنتك وزوجها عرقوص ، ولكن عليك لنا الجزية ، فقال : سماعاً وطاعة ، وأطلقه . وأما عرقوص فإنه أسلم زوجته تحفة الروم إلى ابن عمته عماد الدين بن علقم ليذهب بها إلى حصن صهيون لتقيم هناك ، ثم أمر الملك بالرحيل إلى برصة ، فرحلوا إليها وأقاموا فيها ثلاثة أيام ، ثم ارتحلوا إلى مصر . أما عرقوص ومعروف وأصلان فإنهم مكثوا في برصة بعد أن استأذنوا الملك في البقاء بها .

وذات يوم أقبل على معروف فداوى اسمه خالد فعرفه وسأله عن حاجته ،

فقال : كنت ببضاعتي في سفرة طويلة ربحت فيها مالا جزيلا ، ولكن السفينة غرقت بنا ونحن راجعون ، فغرقت بمن فيها وما فيها ، وقد جئتكم لمعوتى بالمال حتى أفضى ما على من الأموال لأصحابها . ولولا أن قيض الله لى لوحاً من الخشب تشبثت به لكنت من المفقرين . فأعطاه هو وصاحبه عرقوص وأصلان أضعاف ما فقد من ماله . وأقام فيهم ثلاثة أيام ، ثم سافر إلى القلاع ، وفي ليلة من لياليها جلس عرقوص وأصحابه وخالد هذا يتحدثون ، فسأله عن أعجب ما رآه في سفرته ، فقال خالد : مررت بمدينة الأنجرس ، فرأيت للملكها ذى الجوايز بنتاً اسمها كرمة ، ما اكتملت عين إنسان بأجمل منها ، وجعل يصف جمالها وسحرها حتى اغتاض معروف وأسكته خشية أن يعلق بها قلب ابنه وتشفله ، وكان ما خشيه أبوه ، فقد ملأت كرمة قلب ابنه وسمعه ، وجعلت الرغبة في رؤيتها تلح على فؤاده حتى ركب جواده ذات ليلة وخرج خفية إلى مدينة الأنجرس ، ودخلها في ضحوة النهار ، ووجد بستاناً جميلاً فيه قصر كرمة فدخله وعقل جواده ، وأكل طعاماً كان معه ثم اضطجع ليسترريح فأخذته النوم ، وأطلت كرمة من نافذة قصرها فوجدته نائماً ، ولكن مخايل البطولة والشهامة تشع من وجهه وشكله ، فقالت في نفسها ، إذا كان للبنت أن تختار بعلمها فلن أختار لنفسى غير هذا الشهم الذى ما أظنه إلا بطلا مقداماً نبيلاً ، واتفق أن استيقظ من نومه ساعتئذ ، فسألته ، من أنت يا هذا ؟ فقال : أنا حوارى من حوارى

المسيح اسمه لكاعات ، فقالت : أيمن بطلعتك ، وأحب أن يبارك القصر بزيارتك ، ثم أمرت البخارية ففتحت باب القصر وسارت به إلى غرفتها فسلم وجلس ، وكانت محبته قد تمكنت من قلبها وارتضته بعلاها مهما يكن من أمره ، فجعل يحدثها عن الأديان مبنياً لها مزايا الإسلام وما ينال به المرء من سعادة في دنياه وآخرته حتى سألته : لعلك مسلم ؟ فقال : نعم ، وداعية إلى الإسلام ، فقالت : قد ارتضيت ورجبت في دينك وأن أقرن حياتي بحياتك لنسعد في ظل هذا الدين المحيد ، فأبرم عقد زواجه منها وعاشرها أياماً ، وجاءها أبوها ذو الجواهر يوماً فرآه في قصرها ، ففزع وسأله : من أنت ؟ ولماذا دخلت هذا القصر ؟ فقال : أنا الحوارى لكاعات ، بعثني المسيح إلى ابنتك لتحمل وتضع قلبوناً يكون نائبه في الأرض ، فابتسم أبوها فرحاً ، والتفت إلى ابنته وقال لها : أطيعي هذا الحوارى وأكرميه ، فذلك فضل خصصنا به المسيح .

كان لإسرافيل ملك سمرقند قد بلغه الحديث عن جمال كرمة هذه ، فأرسل إلى أبيها يخطبها لنفسه ، فأبى وقال : إن إسرافيل يهودى وابنتى نصرانية ولن أزوجها منه ، فاغتاظ إسرافيل وجاءه يجيش تهتر لمشيته الأرض ، ووقعت حرب بينهما دامت نحو عشرة أيام ، وأراد أبوها أن يدفع عنه شر إسرافيل ويزوجه ابنته ، ولكن هذا أثار غضب عرقوص ، فركب جواده وتقلد سلاحه ، وخاض المعركة وجعل يجزّ رقاب الغازين المعتدين جزاً حتى قتل إسرافيل ملكهم ولولا الأدبار فزعاً ورعباً ، وفرح به الملك

ذو الجوابر فرحاً عظيماً . وسأله وزيره عنه فقال : إنه حواري أرسله المسيح إلى ابنتي لتحمل وتضع قليوناً يكون نائباً عنه ، وقد رأيت كيف وقانا بسيفه شر اليهود أعدائنا ، ثم أقبل إليه وهنأه وشكره ، وقال له : أحب أن تكون معي في الديوان ليدوم أنسى بك ، فقال : سمعاً وطاعة .

استيقظ معروف في الصباح ولم يجد ابنه ، فظان أنه خرج إلى مدينة الأنجرس ، فركب جواده وأخذ سبيله إليها حتى كان أمام البستان الذي فيه قصر كرمة وفيه ابنه فوجد شخصاً خارجاً من بابه ، وهو ينفخ كأنه ثعبان ، وأدرك من تجاربه ومعرفته أنه سارق وأن الوعاء الذي يحمله فيه الشيء الذي سرقه . فصاح فيه قائلاً : قف مكانك ، وأدرك هذا الشخص من صبيحته هذه أنه بطل ولا قدرة له عليه ، فسلك سبيل الخيلة لينجو منه ، وقال : إني بستانى ، أحمل بعضاً من ثمار هذا البستان ، وأريد أن أعجل به إلى المدينة لأبيعه ثم أعود إلى هذا البستان لمزاولة أعمالى فيه ، ثم مد يده وأخرج أصبعاً من الموز وناوله إياه وقال : ذق هذا الموز فلعله يعجبك وتكون أول من يشتري منى ، فأكله معروف وسقط على الأرض مغشياً عليه ، فكشفه هذا الشخص ثم سقاه شيئاً فأفاق من غشيته فنظر معروف إليه وقال : لم فعلت بي هذا يا رجل ؟ فقال : مالك وللناس ؟ ! إنك رجل مسلم ولا تفتأ تؤذى اليهود ، فوقعت في شر أعمالك ، فقال معروف : أنت يهودى ؟ فقال : نعم ، وقد سرقت الآن هذا النصراني الذي قتل ملكنا إسرافيل ، ولما تصديت لي بنجتك وكفتك ،

وها أنا ذا سائر بكما إلى ابنه شرميل ليقتلكما في أبيه . تذكر معروف شيعة ، واستغاث به سرّاً ، وإذا بجاخام قد أقبل عليه من البستان يتلو التوراة بلغة اليهود ، فكلمه ذلك السارق واثلتفا وصحبه في مسيره ، وكان هذا السارق اسمه مردخ ، فقال له الجاخام : أشركني في الثواب معك ، واجعلني أحضر قتل هذا المسلم لآخذ قطرة من دمه وأضعها على فطير العيد ، فقال : تعال معي وخذ من دمه ما تشاء .

وضع مردخ السارق معروفًا وابنه على جواد معروف وسار في طريقه إلى سمرقند والجاخام معه ، وانتصف النهار وهو سائر ولفحه وهج الحر فال إلى ظل شجرة في طريقه ليستريح ، فعقل الجواد ووصى الجاخام أن يحرس من معه حتى ينام قليلا ، ثم اضطجع وغرق في نومه ، فوضع الجاخام على وجهه منديلا ملطخاً بالبنج فنفذت رائحته إلى صدره وغشى عليه ، ثم أوثق كتافه ، وأطلق معروفًا وابنه . وأيقظ هذا السارق وعرفه أنه جمال الدين شيعة ، وسأله لم فعل هذا ؟ فقال : إن عرقوصاً قتل إسرافيل ملك سمرقند ، فبعثني ابنه شرميل الذي خلف أباه ، لأسرقه ويقتله في أبيه ، فلما سرقتني لقيني هذا فبنجته وأخذته ، ثم جئت أنت وكتفتني كما ترى ، فقال شيعة : إن دخلت في دين الإسلام عفوت عنك وإلا قتلتك ، فقال : لن أسلم أبداً ، فجرد شيعة سيفه وقطع عنقه ، ثم قال لعرقوص : كيف وقعت في يد هذا الكافر ؟ فحكى له قصته ، فأحضر لهما شيعة جوادين ليعودا بهما إلى مصر .

وذات يوم أحس الملك الظاهر ضيقاً في صدره فخرج إلى الخلاء وحده ، وساقه المسير إلى سفح الجبل ، فجلس ينظر فيما خلق الله من سماء وأرض وما سخر للإنسان من شمس وقمر ونهار وليل والطيبات من الرزق ، ثم غلبه التماس فنام ، ثم استيقظ من نومه وهو مكثف اليدين ومربوط على ظهر جواد وبجانبه رجل فداوى كأنه المارد ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ماذا جنيت حتى فعلت بي ما فعلت يا هذا ؟ فقال الرجل : عجباً لكم أيها الملوك !! تتأرون في سلطانكم ، وترعون أنكم فوق البشر ، تستحلون المنكر ، وتستبيحون الحرام !! فقال : وأي منكر فعلته يا هذا ؟ فقال : أألسنت الملك الظاهر ؟ فقال : بلى ، فقال : لم يكفك أن فرضت نفسك سلطاناً على مصر ، فحرمتني ملك القلاع والحصون ومنحت شيحة ملكها ، وأنا أشد منه عزماً وأطول باعاً وأمضى سلاحاً !! فقال : إني ما رأيتك ولا سمعت عنك قبل هذه الساعة ، فمن أنت ؟ فقال : أنا قادم بن شر صاحب قلعة دمورية ، ثم أخذه إلى قلعته ووضعه في السجن .

انتظر إبراهيم وسعد عودة الملك ، ولما لم يعد ارتابا في أمره وقلقا ، فخرجا يمشيان في الخلاء ، وكان مشيهما في طريق دمورية فلقبهما قادم ابن شر وسلم عليهما ، وسأله إبراهيم : إلى أين ذهب الملك ؟ فقال : إنه

عندى فى ضيافتى ، وقد اصطلحنا وتبدد ما بيننا من خلاف ، ولا بد من زيارتى لتناول طعامى مع الملك الظاهر حرسه الله ، فرجعا معه إلى داره ، ولما دخلها هوى بهما سطح الأرض وهما سائران فى دهليزها فسقطا فى سرداب بعيد الغور ، فرقع إبراهيم رأسه إلى قادم وقال : أهذه ضيافتك أيها النذل الحقير ؟ ! فقال قادم : وهل تنتظران منى لكما غير هذا ؟ ! لقد خضعتما لرجل قصير القامة اسمه شيحة ، كما أخلصتما فى خدمة ملك أبوه مملوك عجمى اسمه الظاهر ، وإذا أردت العدل فيكما قتلكما ، ثم أمر رجاله أن يقبضوا عليهما ويلقوهما فى السجن مع ملكهما . فألقوهما فى السجن كما أمر . ولما رأهما الملك حوقل واسترجع ثم قال : إنك يا ربنا ولى الصابرين .

وأراد قادم قتلهم لتخور عزيمة شيحة ويضعف شأنه وحينئذ يتمكن من القبض عليه وقتله ولكن العقلاء من أعوانه قالوا له : إنك إن قتلهم فما أنت بناج من المسلمين لقوتهم وكثرة عددهم ، ولأنهم لا يقعدون حتى يأخذوا بثأرهم فى أقصى صورته وأبشع ضروبه ، ونرى أن تجسهم فى سجنك وتجمع الجموع من رجالك وحلفائك وأصدقائك من المملوك ثم تلقى المسلمين فى معركة حاسمة تطفى مصباحهم وتمحو آثارهم ثم تقضى فيهم بعد ذلك بما تشاء وأنت آمن على نفسك وديارك ، فقال : ذلك خير ما رأيتم . وأرسل رسوله بكتاب منه إلى « عاصى بن بحر » سلطان بنى الأدرع .

لقى رسوله شارد بن جردون فى طريقه غلاماً على ناقة كأنه ضال فى

تلك البيداء الفسيحة الأرجاء فسأله عن الطريق إلى قلعة سلطان بنى الأدرع ، فقال له : تعال معي فأني ذاهب إليها فشكره الغلام وسار معه ، وبعد قليل أخرج الغلام من جراب معه طعاماً ليأكل وناول الرسول بعضه وقال : كل ياسيدي من رزق الله ، فأخذه مثيباً عليه وأكل قليلاً منه فسقط عن جواده مغمى عليه ، فنزل الغلام وكتبه ، ثم فتشه وأخذ الكتاب الذي معه ، ثم أيقظه وعرض عليه الإسلام فأعرض وأبى ، فقتله الغلام ونزع عنه ثيابه ولبسها ، ثم سار بالكتاب إلى عاصي بن بحر سلطان بنى الأدرع .

كان هذا الغلام جمال الدين شيحة ، فدخل على سلطان بنى الأدرع وناوله الكتاب ، ففضه وقرأ فيه :

قبضت على الملك الظاهر وإبراهيم وسعد وألقيتهم في غيابة السجن إلى أن أقتلهم ، وأريد أن تأتيني بجنودك لنستولى على بلادهم ونجلس على عرش ملكهم وإذا تم لنا ذلك فستكون مصر والشام لي وتكون القلاع لك ، فابعث إلى مع رسولي ما عزمتم عليه ، فلما حضرت إلينا بجنودك ، وإما حضرت إليكم بجنودي لنكون بدأ واحدة على هؤلاء المسلمين .

قرأ عاصي الكتاب على مسمع من رسول قادم بن شرفنظر إليه نظرة غاضبة وقال : وهل جنتت أنا حتى أتبع هذيان قادم بن شر ؟ ! وكيف امتدت يده إلى ملك المسلمين ؟ ! وكيف جسر على أن يفكر في قرع أبوابهم ؟ ! ثم أمر بالقبض على الرسول ، فقال الرسوا :

إن كان لا يرضيك ما كتبه قادم بن شر فكن حلماً ولا تؤذني ، فرجما وجدت عندي ما يسرك ، فقال : لا يسرنى إلا قتلك ، وقتل سيدك الكلب ، فقال الرسول : يعجبني فيك العقل والوفاء : فقال : إن بيني وبين شيعة عهد لا ينقض وإن عصاه أبي قبضت عليه وأسلمته إليه ، فأبان الرسول عن نفسه ، وقال : نعم الصاحب الوفي يا ابن بحر ، فقال : إني لن أخونك أبداً ، غائباً كنت أم حاضراً . فقال شيعة : اختم لي ورقة بيضاء ودعني لأرى هذا الغادر الماكر سوء فعله ، فحتم له ورقة بيضاء وناولها إياها وقال : إن أردت أن أذهب معك لأهلكه وأخرب دياره قمت من فوري ، فقال : شكراً لك . ثم ودعه وانصرف .

كتب شيعة في الورقة ما أرادته ، وذهب إلى قادم في هيئة رسوله ، وناولته تلك الورقة فقرأ فيها :

حضر إلينا رسولك ، وقرأت كتابك . وقد أخذت في حشد الجنود وجمع الجموع ، وأريد أن تحضر إلينا وحدك ومعك رسولك هذا فقد أعجبني أدبه ولباقته ، ومعك الملك الظاهر وإبراهيم وسعد لنقتلهم على مرأى من جموعنا ، وقد كفلت لك القبض على شيعة كما قبضت أنت على ملكه وأمرائه وإني لمرتقب حضورك على أحر من الجمر .

فرح قادم بن شر فرحاً عظيماً وأسرع إلى الرحيل إليه ومعه الملك وإبراهيم وسعد والرسول . ومر في طريقه بغار فمال إليه وقال للرسول : سأنام قليلاً لأستريح ، وعليك أن تحرس هؤلاء الرجال حتى أستيقظ ،

فقال الرسول : نوم العافية يا سيدى ، وكن مطمئنا . فقال : أعطنى شربة من الماء قبل أن أنام ، فناوله قدحاً شرب منه فخر مغشياً عليه ، فانكب شبيحة عليه وكتفه ، وأطلق الملك وسعداً وإبراهيم ، وأعطاه ما أخرجه من غيبوبة البنج التى غرق فيها ، فناداه باسمه وقال : ما هذا الذى فعلته بى يا شارد بن جردون ؟ فقال : شردت روحك من جسمك ؛ أتحسبى رسولك شارد بن جردون ؟ ! أنا جمال الدين شبيحة الذى سيسلخ جلدك إن لم تدخل فى دين الله ، ثم رحلوا إلى سلطان بنى الأدرع فلما وصلوا إليه استقبلهم بما يليق بملك المسلمين من حفاوة وإجلال ، وبعد يوم من نزولهم عنده أحضر قادم بن شر وعرض عليه الإسلام فأبى ، فنهض إليه وسلخ جلده على مشهد من الناس ، ونادى ابنه محمداً السابق فحضر لساعته ، وأمره أن يأخذ الجلد ويحشوه تبناً ويعلقه على باب دمورية ، ففعل ما أمره به أبوه .

• • •

كان فى أول بلاد الروم قلعة حصينة لامرأة ساحره يخافها ملوك الروم لأن قوتها فوق قوتهم بسحرها ، وبلغها أن عرقوص بن معروف اتخذ مدينة الرخام قاعدة حربية لمحاربة ملة الكفر وأهله ، ونشر دين الله وحمايته ، فأرسلت إليه « وردنوش » أعظم قوادها فى خمسة آلاف لمحاربتة ، ولكن عرقوص بن معروف أسره ، بعد قتال عنيف وعرض عليه الإسلام فأسلم وأسلم جميع من معه ، وأقاموا فى مدينة

الرخام جنوداً في صفوف المسلمين ، فعرضت أمر هزيمتها على أعوانها فقال أحدهم : إن أردت أن تكوني غالبية فأحضري عالم الملة جوان فإنه يعرف أحوال المسلمين وله خبرة بقتالهم فأمرت أحد أعوانها من الجان أن يحضره حيث يكون ، فانطلق مسرعاً وأحضره وخادمه البرتقش ، وقصت عليه ما فعلت ، فقال لها : إن فائدك ومن معه من الجنود قد أسلموا وصاروا جنوداً في صفوف عرقوص ملك مدينة الرخام ، وأعتقد أنه ما دام جمال الدين شيحة على قيد الحياة فلن يغلب أحد من المسلمين ، فاغتازت وأحضرت البرق الخاطف وهو أحد أعوانها من مرده الجان وأمرته أن يحضر لها من مدينة الرخام عرقوص بن معروف وشيحة فانطلق مسرعاً ، وخطفهما من مجلسهما ، ووضعهما بين يديها ، فأعجبها شكل عرقوص ، ولهذا ألقتهما في سجنها حتى تقضى في أمرهما ، على الرغم من إلحاح جوان في أن تعجل بقتلهما .

وقالت الساحرة لجوان : إن لي في الدير غلاماً قوياً ماهراً في الحرب اسمه نور فابعث إليه ليكون عضداً لنا في قتال المسلمين فإنهم لا محالة قادمون إلينا بعد خطف عرقوص وشيحة ، فأرسل إليه رسولا يدعوه إلى قتال المسلمين ، فلما بلغه قال : كيف أقاتل أناساً لم يؤذونا ولم يعتدوا علينا ، وذهب إلى أمه مريم في الدير وأخبرها فقالت : أطمع أمر جوان والساحرة ، ولكنك إن دخلت الحرب فاحذر أن تقتل أحداً من المسلمين ، غير أن لي ثأراً عند أحدهم وأود أن تأتيني به أسيراً ،

فقال ومن ذلك يا أماه وما الذى قدمه لك من إهانة؟ فقالت : إنه جمال الدين شيحة وكان قد جرحنى ، ولم أبرأ من جرحى حتى الساعة . فقال : سمعاً وطاعة ، وإن إحضاره يسير على ، لأنه محبوس فى سجن الساحرة . فلما دخل على الساحرة ونظر إليه جوان : انقبض صدره ، وساوره الخوف منه ، فقال للبرتقش : إن قلبى يهتر خوفاً من هذا الغلام القصير ، وأخشى أن يكون شيحة ، فقال : إن شيحة فى السجن وإن صدق ظنى كان هذا الغلام ابن شيحة . وقالت له الساحرة أنت نور وأمك مريم ؟ فقال : نعم ، فقالت : إني دعوتك لقتال المسلمين ولا بد أن تبيت معى فى فراشى كل ليلة حتى لا أتمكن أمك من أخذك ، فقال : أملك مطاع ، وبات معها الليلة الأولى ، وبينما هى غارقة فى نومها أخرج خنجره وشق بطنها وقطع عنقها فانت ، وارتفع صياح الجان عقب موتها قائلين : أراحك الله يا نور كما أرحتنا من هذه الساحرة الماكرة ، وبطل ما كان لها من السحر فخرج نور وأطلق المحبوسين وقبض على شيحة وقال له : إن لأمى ثاراً عندك وقد أمرتنى أن أحملك إليها فيما سرت معى طاعماً مختاراً وإما حملتك إليها غصباً ، فقال : سأذهب معك مختاراً فهيا بنا إليها .

ولما دخلا على مريم استقبلته فرحة مبتسمة وقالت : لا خوف عليك فما طلبتك إلا لتلتقى بزوجتك وابنك ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقالت : أنا مريم التى تزوجتنى فى أثناء فتح المسلمين للسواحل ، وقد حملت منك

بنور هذا، فهو ابنك وعلى دين الإسلام ، ففرح جمال الدين ونهض إلى ابنه فاحتضنه وقبله ، وقال نور ولم أخفيت عنى هذا يا أماه ؟ فقالت : أخفيت أمرك عنك وعن غيرك حتى أحافظ على حياتك من القوم الكافرين .

وكان وردنوش قد حضر بجيش كبير بعد خطف عرقوص وشيخة ، فلما أطلقهما نور من السجن ، ذهب عرقوص إلى الجيش وأوقد نار الحرب واستولى على قلعة الساحرة وأخذ ما فيها من الأموال وبعث بها إلى الملك الظاهر في مصر وأخبره بما وقع له وجمال الدين شيخة ، ثم استقروا في مدينتهم ومساكنهم .

كان مريم وزير ملك الأفلاق قد شرح الله صدره للإسلام فأمن سرّاً، وأخفى إسلامه خشية القتل أو الأذى ، وأحب أن يرحل إلى مصر ليظهر إسلامه ويقوم بخدمة الملك ، وما ينبغي لدينه من جهاد، وأخفى كل هذا عن زوجته التي لا تزال مستمسكة بدينها ، فعرفها أنه يود زيارة القدس ويقضى فيها أياماً للتبرك ، فوافقت على رغبته وأخذها ومضى حتى كان في مصر ، وهناك دخل على الملك وعرفه بإسلامه ورغبته في المقام عنده وأن زوجته لا تزال على دينها ، ففرح به وقال : عسى الله أن يهديها للإيمان ثم أنزله في بيت يليق به وكفل له المعيشة الراضية ، وقربه منه واتخذته من أمرائه .

علم جوان برحيل مريم إلى مصر وإسلامه ، فاغتاظ ولحق به

مستخفياً في هيئة العلماء الداعين إلى الله ودينه ، واحتال في أن يلتقي بمرين ويسمعه المواعظ ويتلو عليه آيات من كتاب الله ، حتى سكن مرين إليه وأنس به فكان يقضى معه جزءاً من الليل يستمتع بحديثه ومواعظه .
وذات ليلة كشف له جوان عن نفسه وقال : إن المسيح بعثني إليك وهو غاضب عليك لأنك صبأت وأسلمت وقال بلغه عنى أن يرجع إلى دنيى وسأجعله على ملك مصر ، وأخذ جوان يوسوس في صدره ويفويه حتى أضله وارتد عن إسلامه .

ففرح جوان وقال : ولقد أمرنى المسيح أن أشير عليك بأن تخفى ردتك عن الإسلام ، ثم ترجو من الملك أن يساعدك في هداية زوجتك مريئة إلى الإسلام — وكانت زوجته مريئة حاضرة — وتطلب منه أن يقبلها في قصره مع حريمه على أن يجتهدن في هدايتها للإيمان ، ويحببنه إلى قلبها ، وحينئذ تسلم نفاقاً ورياءً ، وتكون أنت قد أعطيتها سمّاً قاتلاً تحمله في شعرها حتى تتمكن من وضعه في طعام الملك فإذا أكل منه مات لساعته ، وإذ ذاك يضطرب جبل المسلمين وتتاح لك الفرصة للجلوس على عرش مصر .

اتفق جوان ومرين وزوجته مريئة على هذا ، وفي الصباح طلب مرين من الملك ما وصاه به جوان ، فقبل زوجته مريئة في قصره مع حريمه ، ووصاهن أن يحببن إليها الإيمان لتدخل في دين الله ، وأقامت بينهن في قصر الملك مدة .

وفى صبيحة يوم استيقظت مريئة وهى تزغرد فاجتمعت جوارى القصر ونساؤه إليها فلما رأتهن نطقن بالشهادتين وزغردت ثم قالت : الحمد لله الذى هدانى للإيمان ، وحرّم جسدى على النار بالإسلام ، ثم سألتها عن سبب إسلامها فقالت : - كما علمها جوان - جاءنى فى المنام الملك الصالح أيوب وأسمعنى حديثاً شبيهاً ، وأنى كتبت فى سجل القدر من المسلمات الصادقات وأمرنى بالإسلام فأسامت ، واستيقظت من نوى فرحة مزغرودة .

بلغ الملك إسلامها ففرح بها وأحضرها بين يديه وقال لها : اطلبي منى ما شئت يا مريئة ، فقالت : أبغى أن أقضى حياتى فى خدمة ملك الإسلام ، وأن يكون ذلك مع جوارى المطبخ ، فقال : جعلتك رئيسة لهن . ففرحت مريئة ، وقالت فى نفسها : سهل عليك يا مريئة وضع السم فى طعامه .

أعدت مريئة بطيخة للملك ومزجتها بالسم الذى معها ووضعها على السفرة فى حجرتها ، وبلغت الملك أنها أعدت له بطيخة شبيهة ، وأنها تحت طلبه ، واتفق أن دخل السعيد ابنه تلك الحجرة ورأى البطيخة ، ولكنه لم يأكل منها ، وأحس الملك شيئاً فى تلك الحجرة فسأل عنه فقيل : كان ابنك السعيد بها وخرج .

طلب الملك البطيخة فأنت بها مريئة ووضعها أمامه ، ولما أكل منها أحس ألماً شديداً فى بطنه فصرخ وتلوى ، فأحضر الخدم لإبراهيم

وسعداً في الحال وحكوا له ما حصل . فقال : إن الملك مسموم ، ونادى :
يا شبيحة ، فأراه حاضراً أمامهم ، وحكوا له ما جرى للملك عقب أكله
شيئاً من البطيخة ، فقال عرفت كل شيء ، وأخرج من جرابه شيئاً .
وأطعم الملك إياه فشفى في الحال . وقال له : إن البطيخة فيها سم .
فقال إبراهيم : ما وضع السم في البطيخة إلا مرية ، فقال الملك : اتق الله
يا إبراهيم واجتنب الظلم وقول الزور ، ما وضع السم في البطيخة إلا
ابن السعيد . فهو الذي دخل الحجرة التي كانت فيها . وقد أمرت
بقتله ، وعبثاً حاول إبراهيم صرف الملك عن رأيه في ابنه ، فقال : إذا
كنت مصرّاً على قتله فاكتب لي بيدك أمراً بقتله ، حتى إذا ما قتلناه
وندمت نكون في مأمن من عقوبتك ، فكتب لهم بيده أمراً بقتل ابنه
السعيد .

وغياب إبراهيم ساعة ثم جاء وفي يده ذلك المحكوم عليه بالإعدام
ويقول : هذا جزء الخائن ، فقال سعد : أدخله على الملك بظهره ثم
اقطع عنقه ، فأدخله إبراهيم بظهره وضرب عنقه بالسيف وأطاح رأسه ،
فذاع نبأ موته في القصر وخيم عليه سحابة من حزن ألم ، وتسلى مريم
إلى جوان وأخبره أن الملك قتل ابنه السعيد ، ففرح وقال : العاقبة لأبيه ،
اكتب إلى ملك الأفلاق بذلك وأنتك رجعت إلى دين المسيح ، وأن يركب
في جنده إلى بلاد المسلمين ، فكتب إليه بذلك ، وأخذ جوان الكتاب
ورحل إلى ملك الأفلاق .



أمر الملك بقتل ابنه

كان عرقوص ومعروف قادمين إلى الملك لزيارته ، فلقيا جوان والبرتقش في طريقهما فقبض عرقوص على جوان وسأله : من أين قدمت الآن ؟ فقال : من مصر ، فقال : ومن خلق فسوى إن لم تصدقني في إخباري عما فعلته أنت في مصر قتلتك أنت وتابعك ، فقال البرتقش : إن لم يقل الحق قلته أنا ، فقال جوان ، أعطني الأمان وعدني أن تخلي سبيلي ، فقال : لك ما طلبت . فحكى له ما وقع من ارتداد مرين وقتل السعيد ابن الملك ، فقال : وأين تذهب الآن ؟ فقال : بكتاب من مرين إلى ملك الأفلاق ، فقال : أعطني الكتاب ، فناوله إياه ، فقال : سأفي بوعدى وأجلى سبيلكما ولكنكما إن دخلتم مدينة الأفلاق جعلت منكما مثلاً وعبرة ، فقالا ، لن ندخلها ، وأمرهما بالانصراف .

قدم عرقوص وأبوه إلى الملك وحكى له ما وقع من ابنه السعيد وعاقبة فعلته وخطيئته ، فقال عرقوص وهو يكظم غيظه : تلك عاقبة الحيانة ، ثم قال : إن لي عند مولاي الملك أمنية ، قد وعدني بها ، فقال : وما تلك يا عرقوص ؟ فقال : أن أتولى حكم مصر يوماً كاملاً لا ينازعني فيه منازع ، فقال : ولك ما طلبت ، وليكن هذا اليوم . ثم قام من مجلس حكمه وأجلسه مكانه ، وجلس الملك في مكان من الديوان مشرف عليه .

أمر عرقوص أن يتعقد مجلس الملك ، فحضر في الحال رجاله من

وزراء وأمراء وعلماء ، ثم قال : يا إبراهيم هل فى الديوان زغل ؟ فقال : نعم ، فقال : هاته إلينا ، فأمسك يد مريم وجذبه من مجلسه وأوقفه قدام عرقوص وقال : هذا هو الزغل ، فقال : ولماذا تركته فى الديوان وسكت عنه ؟ فقال : كان ذلك بأمر السلطان ، فقال عرقوص : يا مريم ، من الذى سم السلطان ؟ فقال : لا أدرى ، فقال : وما رأيك فى هذا الكتاب الذى كتبه بيدك وأرسلته مع جوان إلى ملك الأفلاق ، ثم ناوله إلى أحد الجالسين وأمره بقراءته على مسمع من المجلس فأخذه وقرأ :

من الوزير مريم إلى ملك الأفلاق .

لقد رجعت إلى دين المسيح ، وقد علمنا جوان حيلة فعلناها ونجحت فقد أسلمت زوجتى مريئة نفاقاً ووضعت السم فى بطيخة وأكل منها الملك وأشرف على الهلاك ولكن شيحة حضر وأسعفه وبرئ من الخطر ، وقد آتهم ابنه السعيد - وقتله ، فاركب الآن بجنودك إلى مصر وسأكون معك ، لنقوض عرش المسلمين ونملك أرضهم وديارهم .

فضج المجلس وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم أمر إبراهيم أن يحضر مريئة زوجة مريم الخائن ، فأحضرها وكانت نظرات الغضب واللعنة تحزها ، فقال عرقوص : أحرقهما على عجل ثم اتنى ، فذهب إبراهيم بمريم وزوجته وأشعل فيهما النار حتى كانا رماداً ، ثم رجع إليه فى مجلسه وقال : نفذ أمرك وهذه العاقبة لعدوك ، فقال : الحمد لله ، ثم نهض

واقفاً وتنحى عن العرش وقال : يا ملك الإسلام هذا عرشك ، ونحن عبيدك وخدمك ، وحفظك الله من كل مكروه .

جلس الملك على عرشه والهـم يملأ صدره ، والحزن يضطرم في قلبه ، على ابنه السعيد الذى قتله ظلماً وعدواناً ، ثم قال : يا إبراهيم أين السعيد ؟ فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال : إن لم تحضره يا إبراهيم طلبتك بدمه ، فقال : إن معى أمراً كتبته بيدك ، فاطلب دم ابنك منك ، فقال : لا تجادل وأحضر ابني وإلا قتلتك ، فقال : لم يكفك أنك ظلمت ابنك وقتلته فأردت أن أكون مثله ، وإذا حكمت وظلمت فإلى من يشكو المظلوم ؟ وإنى لا أملك إلا أن أقول : أمرى بيد ربى ، وفي تلك اللحظة دخل جمال الدين شيحة ، فأجلسه الملك بجواره ، ثم قال شيحة : أرى المجلس قلقاً مضطرباً كأن أمراً عظيماً وقع فما حكايتكم ، فقال إبراهيم : أمر الملك بقتل ابنه السعيد ، ونحن لأمره مطيعون ، فقال شيحة : وهل قتلته يا إبراهيم ؟ فقال : إنه الآن عند منكر ونكير ، فقال شيحة : لك يا إبراهيم من الملكة ألف دينار ، إن رددت السعيد إلينا حياً ، فقال الملك : ومنى ألف دينار ، فقال كل من كان حاضراً : ومنى ألف دينار ، فقال : هاتوا دنائركم وسأذهب إلى منكر ونكير أفأوضحهما فى أمر عودته ، وقال شيحة : أعطوه الدنانير واتركوه ليذهب إلى حيث شاء وأنا الضامن ، فجمعت الدنانير وأخذها إبراهيم ومضى . وبعد ساعة حضر إلى المجلس وفى يده السعيد ، فوجم المجلس

عجباً ودهشة ، وقال الملك : كيف أحييته بعد أن أطحت برأسه أمامي ؟ فقال : يا مولاي ، أحضرتي سعد من سجن الملك رجلاً بدويّاً محكوماً عليه بالإعدام وألبسه ثياب السعيد ، وأمرني أن أدخله بظهوره ، وهذا الذي قتلته وما ظلمته ، لأنه يستحق القتل شرعاً .

وأما السعيد فقد حفظته في داري حتى أحضرته الآن بين أيديكم ، فقال الملك ألم تقل إنه عند منكر ونكير ، سميت اثنين من أتباعي منكرًا ونكيرًا وكان عندهما وتحت رعايتهما . فشكر له الملك جميل معرفته وزادت محبته في قلبه .

وأراد عرقوص العودة إلى مدينة الرخام ولكن كتاباً جاء من صاحب الإسكندرية يشكو فيه من سرقة الأموال وعدم الاهتمام إلى اللصوص ، فقال : إني ذاهب إلى الإسكندرية لأرد الأموال إلى أصحابها وأستأصل شأفة اللصوص الذين ظهروا فيها وأزعجوا الآمنين ، وقال أبوه معروف : وأنا معه في هذا العمل المحيد ، فقال الملك : وقد جعلتك والياً على الإسكندرية حتى تجعلها آمنة مطمئنة وتطهرها من عبث العابثين .

لبث عرقوص وأبوه في الإسكندرية باحثين عن اللصوص وما عثروا على أحد منهم أو عرفوا مكانهم ، وفي يوم الجمعة كانا يصليان الجمعة في المسجد فرأى عرقوص رجلاً من الأشراف جالساً بجانب المنبر ، فأمسكه وأقامه ، ثم جره وخرج به من المسجد ، وخرج معروف معه فقال لابنه : لم فعلت هذا في ذلك الرجل الشريف ولم يقع منه ما يستحق عليه

الطرد من المسجد؟ فقال : هذا الذى سجنك فى القيطان ، وكان السبب فى تربيتى محروماً منك ، فقال : إذن هو كنيار القيطانى ، ثم كفه معروف وضربه الحاضرون ضرباً مبرحاً ، وسأله عرقوص : أين أموال الناس التى سرقتموها؟ فقال : لا أعلم عنها شيئاً ، ولقد قلمت إلى الإسكندرية وحدى فى تلك الأيام . فسأله : وأين المركب الذى جثت فيه من مدينتك؟ فقال : كان لتجار وقد سافر إلى وجهته ، فقال له رجل أجنبي كان واقفاً بجواره : اطلب منه الأمان ودله على اللصوص وإلا دلته عليهم ، فقال : دله أنت ، فقال الرجل سر معى وأنا أدلك على مكانهم ، فسار عرقوص وأبوه وهذا الرجل حتى وصلوا إلى كنيسة فقال الرجل : فى هذه الكنيسة رفقاء كنيار وجماعته ، فدخلها عرقوص وأبوه ، وجعلا يفتشان فلم يجدا أحداً ، فوقفا حائرين يفكران ، ثم دققا فى البحث حتى عثرا على غطاء خشبي لا قفل فيه ، فرفعه عرقوص ووجد من تحته سرداباً فى الأرض وهم أن ينزل فيه فنهه أبوه وقال : انتظر قليلاً فربما كان فيه الموت ، وإذا بدخان صاعد منه له رائحة ذكية ملأت صدرهما فوقما على الأرض مغشياً عليهما ، وخرج من السرداب أربعون محتالاً من القيطان فكتفوهما وحملوهما إلى فناء الكنيسة وأحاطوا بهما وإذا بنارنجة نحاسية سقطت بينهم من الجوفانكسرت وخرجت منها رائحة دخلت فى أنوف هؤلاء المحتالين فسقطوا كأنهم موتى من الإغماء .

كان جمال الدين شيحة هو الذى ألقى النارنجة النحاسية فظهر فى الحال ،

وأيقظ معروفاً وابنه ، وذبح المحتالين جميعهم ، ثم أخرجوا من السرداب الأموال التي سرقوها ، فنقلها عرقوص إلى ديوان الحكم وهناك ردها إلى أصحابها: واطمأن الناس واستقر الأمن ، ثم أخذ كتيار وعاد إلى مصر هو وأبوه معروف ، وأحضراه بين يدي الملك وقصا عليه ما حصل ، فقال الملك: لا جزاء لكنتيار القبطلاني عندي إلا القتل ، فقال كتيار: ولكني أحببت أن أدخل في دين الإسلام ، وبعد ذلك افعلوا بي ما تشاءون ، فقال الملك : إن أسلمت حرم علينا دمك إلا بالحق ، فأسلم وقال ، وأحب أن أن أكون خادماً لأبي بكر البطرني في الغراب المنصور ، فقال البطرني: والله لن تضع قدمك في الغراب المنصور أبداً ، فقال عرقوص: تعال معي ، وأقم عندي في مدينة الرخام ، وهناك أصنع لك سفينة مثل الغراب المنصور ، فقال الملك: اذهب يا كتيار إلى الإسكندرية واصنع لك مركباً كما تحب واختر له من الأسماء ما شئت . وهذا كتاب مني إلى صاحب الإسكندرية ليمدك بالمال والرجال . وكان إبراهيم بن حسن غائباً في هذا اليوم ، فاغتم فرصة غيابه وأخذ الكتاب وسافر إلى الإسكندرية . ولبت كتيار في المدينة حتى صنع مركباً كبيراً ، ثم ركب فيه وجرى به في البحر ، ولما بعد عن المدينة رفع على المركب راية بلاده ودينه الذي ارتد عن الإسلام إليه ، واستمر يجرى به الفلك حتى كان في بلدته فدخل على إخوته وحكى لهم ما حصل له ثم قال : ولا بد من جمع الجموع ومحاربة المسلمين فحشدوا السفن والمراكب وجمعوا الجموع وتأهبوا للرحيل .

obeikandi.com

نهاية جوان

١

بلغ صاحب الإسكندرية الملك ما فعله كنيار وأنه تسلل وهرب على مركبه الذى صنعه ، فأمر الملك البطركى بالسفر على الغراب المنصور وإحضاره ، فقال : سمعاً وطاعة ، وركب الغراب وانطلق يجرى به فى البحر حتى رسا على جزيرة العرائيص ، وكان كنيار قد احتاج إلى شىء من جزيرة العرائيص ، فركب هو ومن صحبه المركب وأقلعوا به حتى بانث لهم الجزيرة ، وتأكدوا أن الغراب المنصور فى الميناء ، فاختار بعضهم من محتاليه فى مركبه وسبحوا فى البحر حتى كانوا عند الغراب المنصور ، فطلعوا وركبوا فيه سرّاً ، وكان الليل قد اشتد ظلامه وأمعن فى سكونه ، ثم أطلق فى الغراب المنصور رائحة البنج الذى معه ، فغشى على جميع من فيه وعلى أبى بكر البطركى وساق كنيار الغراب المنصور إلى مدينة القيطلان ، حتى رسا به فى مينائها ، فخرج إلى إخوته وأخبرهم ، فسجنوا من فى الغراب جميعهم ، وأتلفوا الغراب ونقلوه إلى الميناء الحرب .

وقدم جوان وقوبل بالحنفاوة البالغة وأخبره كنيار ما فعله ، فقال : الآن قويت شوكتك ، وأصبحت تقاتل الملك الظاهر وأنت آمن ، وأنا ضامن لك الفوز والظفر ، وأن تجلس على عرش مصر ، ولكن فاتك شىء عظيم إن فعلته كان لك قوة لن تغلب ، فقال : وما ذاك ، فقال : ما دمت قد أتلفت الغراب المنصور فكان من المحتوم أن تنشئ مثله ،

وتسخر أبا بكر البطرني في صنعه ، فقال : لقد أشرت بما فيه الخير ، وأحضر أبا بكر البطرني وكلفه أن يصنع مركباً مثل الغراب المنصور ، فقال البطرني : لا أستطيع صنعه إلا بمعونة رجالى الذين ألقيتهم في السجن ، فإن أنت أخليت سبيلهم وأجريت عليهم أرزاقهم صنعت لك المركب الذى تريده ، فأطلق كنيار مراحهم وأمر رجاله أن يحضروا لهم ما يحتاجون إليه من أخشاب وغيرها .

وعكف البطرني ورجاله فى الميناء على صنع المركب حتى أخرجه أكبر وأوسع وأقوى من الغراب المنصور ، وكان كنيار قد أغلق بالسلسلة الميناء حتى لا يستطيع البطرني أن يخرج منه .

فرح كنيار وأنزل فيه المدافع والعدد الحربية ، وركب فيه هو وجوان والبرتقش ، ومائة من أعوانه ، وأمر البطرني أن يغدو به ويروح فى الميناء بين السلسلة والساحل ، فجعل البطرني يجرى به فى الميناء وهم جالسون يشربون الخمر حتى أفقدتهم وعيهم ، وأصبحوا كأنهم فى غشية من الإغماء ، وكان المد قد ارتفع بالماء فوق السلسلة ، وصار من الممكن أن يعبر المركب فوقها دون أن تعوقه ، واغتم البطرني هذه الفرصة وانطلق يجرى بالمركب حتى بعد عن الميناء وغاب عن المدينة .

وأمر البطرني رجاله أن يذبحوا رجال كنيار فذبحوهم وألقوهم فى اليم ، وأبقوا كنيار وجوان والبرتقش ، فكتفهم البطرني وأقلع إلى مدينة الإسكندرية . وهناك أسلم كنيار إلى صاحبها واليها وأبقى معه فى المركب جوان والبرتقش ، وكتب إلى الملك الظاهر كتاباً قص عليه فيه قصته ، ثم قال : إن رجال

القيطلان قادمون إلى الإسكندرية في عدد لا يحصى لقتالك ، وهذا لتستعد
للقائهم ، وإني لمنتظر قدومك ، فلما قرأ الكتاب أمر بالجنود أن تسافر إلى
الإسكندرية في الحال ، فتجهز الجيش وسافر معه الملك إليها .

وذات ليلة اشتد خوف جوان فيها ، فقال للبرتقش : إن بقينا فنحن
هالكون ، فقم واقطع جبالي بأسنانك ، وبعد أن أنطقت من قيودي
فككت قيودك وهربنا قبل أن يأتي الصباح ، فهذه ليلة شغل فيها المسلمون
عنا ، وقد لا يتاح لنا وقت مثلها .

فك كل من جوان وتابعه قيود صاحبه ، واتفق أن كان في الميناء
مركب لتجار من الروم ، فناجاهم خفية ، وعرفهم أنه جوان وتابعه ،
وأنه يريد الحرب به ، فأنزلهما في مركبهم وأخفوهما عن الأنظار ، وقال
صاحب المركب لجوان - وكان من القيطلان- : إنك إن دخلت القيطلان
من غير كنيار صعب على إخوته وعاتبوك عتاباً قد لا تحتمله ، فقال :
أما كنيار فلا أستطيع الآن أن أصل إليه ، ولكني أستطيع سرقة البطرني ،
فإذا أخذته إلى القيطلان بادلنا المسلمين وأنجينا به كنيار : فقال : إن
فعلت هذا كنت في منجاة من العتب واللوم .

أراد أبو بكر في تلك الساعة أن يخرج إلى البر ، فرأى هذا المركب
الذي فيه جوان ، وظن أنه من مراكب الميناء التي تنقل الناس والبضاعة بين
الساحل والمراكب الكبيرة ، فتنزل فيه وقال لربانه سر بي إلى الساحل ،
وكان جوان يراقبه ، فأخرج في الحال بنجاً وبنجه ثم كتمه وأمر الربان
أن يقلع ويرحل إلى القيطلان .

أما إخوة كنيار القيطلاني فإنهم أصبحوا فلم يجدوا المركب الكبير الذى صنعه أبو بكر البطرني ولا جوان والبرتقش وكنيار ، فعرفوا أن مكيدة دبرت وانتهت بهرب البطرني سارقاً كنيار وجوان والبرتقش فى المركب الذى صنعه . فجهزوا مراكبهم وانطلقوا بها فى البحر كأسراب الحمام حتى التقوا بجوان فى مركبه ، فانتقل إليهم وحكى لهم ما حصل وما فعله ، وقال : ولقد سرقت أبا بكر البطرني لنخلص به كنيار الذى سرقوه ، فقال أحد إخوته : اقتلوه وارموا جثته فى البحر ، فقال البرتقش : إن قتلتموه قتل المسلمون أخاكم كنيار ، ولكن خذوه معكم إلى الإسكندرية وحافظوا عليه حتى تخلصوا أخاكم ، وبعد ذلك اقتلوه أو احرقوه ، فترلوا على رأى البرتقش وساروا إلى الإسكندرية .

كان عرقوص قد ذهب إلى مدينة الرخام فصنع مركباً عظيماً سماه السحاب السيار ورجع به إلى الإسكندرية ، ليدعم به قوة السلاح البحرى لجيش الإسلام ، وكان وصوله إليها وقت وصول الملك وجيشه ، وقدم إليه عرقوص فرحاً وبلغه أنه صنع السحاب السيار ، ليغيب به الكفار ، ويملاً قلوبهم خوفاً ورهبة ، وكان سرور الملك به عظيماً .

وقطع عليهم هذا السرور أن جاءهم نبأ هروب جوان والبرتقش وفقد أبى بكر البطرني وأن ملوك القيطلان قادمون إلى الإسكندرية لمحاربة المسلمين ، فبدأ على وجه الملك ما يخالج فؤاده من هم وغم ، فقال عرقوص : لا يخزئك قدمهم ، فإنى راكب مع جنديك إليهم ، لأجعل البحر قبراً لهم

وأجعل القيطلان ملكاً لك ، يجرى فيها نفوذك وحكمك .

أفسح البحر صدره لمراكب المسلمين ، فأقلعت تجرى كأنها حمام تحوم على مرج نضير ، ولما بان لهم وجوه الأعداء جعل عرقوص من الجيش ميمنة وقلباً وميسرة : وهجم على الأعداء هجمات كاسحة ، وألقم البحر كثيراً منهم ، فضجوا وفرعوا إلى جوان قائلين : أين وعدك الذى وعدتنا؟! وإن دامت هذه الحال فإن البحر سيبتلعنا ولا يُبقي منا أحداً ، فقال لهم : الحرب سجال ، وإذا غلبتم اليوم ، فغدأ ستغلبون ، وقد دبرت لكم حيلة تظهرون بها على أعدائكم ، فقالوا : وما تلك يا عالم الملة ، وكاشف كل مضرة؟ فقال : لا يعرف فنون الحرب فى البحار من المسلمين إلا عرقوص ، ولكنه لا يبلغ شأو كنيار فيها ، ولا يستطيع الوقوف فى وجهه ، وأرى أن تكتبوا إلى ملك الإسلام أن تعطوه أبا بكر البطرني ويعطيكم كنيار ، وإذا ما قدم كنيار وقبض على زمام الحرب فقد قضى على المسلمين وصاروا طعاماً لسمك البحر وحيثانه .

أعجب الكفار حيلة جوان : فكتبوا إلى الملك بها ، وعرض هو كتابهم على عرقوص ليبدى رأيه فيما كتبوا فقال : إن شعرة واحدة من جسم أبى بكر البطرني بألف رجل من هؤلاء الكفرة ، وإذا كانوا قد عقدوا آمالهم فى النصر على كنيار فإنى سأخيب آمالهم وأمحو رجاءهم ، ففرح الملك وأجابهم إلى ما طلبوا : وما هى إلا فترة من زمن حتى كان البطرني فى مجلس الملك ، وكنيار عند إخوته ملوك القيطلان ، ففرحوا بعودته وشكوا له ما حل بهم من هزيمة ، وقالوا : إن عرقوصاً أصل كل بلاء

ورزية . فقال : إنني أستاذة . وما تعلم فنون الحرب إلا مني ، وغداً سأخرج إليه وألقيه في اليم طعاماً لسمكه .

ولما بان وجه النهار ركب كنيار فلکاً على قده ، وانزلق به على سطح الماء بين الجيشين وصاح قائلاً : جئتكم يا عرقوص ، فابرز إليّ ، لأقدمك للحيتان لقمة سائغة ، فما أتم كلامه حتى كان عرقوص على فلكه أمامه ، وقال : هاأنذا جئت إليك ، حتى لا أضن بالموت عليك ، وحتى تلقمك بضمك وشفيتك ، ثم جعل كل منهما يرى خصمه بسهام من موت عاجل ، أو يغرقه في لجج البحر الزاخر، وهو في حذر من أن يكون هدفاً مصاباً . واستمر عرقوص يحاوره وبداوره حتى دنا من فلكه فد يده وكفاه قابتلته اللجة . وكان كنيار يلبس ثوباً أسود ، وعرقوص يلبس ثوباً أبيض فهوى عرقوص في أثره . وبعد برهة ظهر على سطح الماء دم أخذ يكثر قليلاً قليلاً ، ثم طفا أحدهما في ثوبه الأسود ، فابتهج الكفار وأسف المسلمون أسفاً أليماً ، ولكنه ما فتئ أن غطس وغاب في اللجة عن الأنظار ، ثم ظهر هذا ثانية بين مركب المسلمين ، وتشبث بمركب وقفز من الماء قفزة قوية كان على أثرها في المركب ، وتبينه المسلمون فوجدوه عرقوصاً ، ففرحوا وزال أسفهم ، ثم سألوه كيف قتل خصمه ؟ وكيف ظهر في ثوبه فقال : ألقيت بنفسي في اللجة على أثره ، وأمسكته تحت الماء وقطعت عنقه بأسناني ، وخشيت أن أظهر بين الكفار في ثوبي الأبيض فأقتل بنيالمهم وقدائفهم ، فترعت عنه ثوبه الأسود ولبسته ، ولما ظهرت أول مرة وجدتنى عند الكفار فغطست وجعلت أسبح إلى أن كنت

عندكم ثم خرجت من الماء وقفزت في هذا المركب ، فقالوا : ما أشجعك وما أصبرك !!

سقط في أيدي الكفار بعد موت كنيار وخارت عزائمهم ، ولكنهم حاولوا أن يكون الغلب لهم فما استطاعوا وفي كثير منهم ، فخاف الباقون وولوا الأدبار ، وتبعهم جيش المسلمين حتى دخلوا ميناء القيطان وخرجوا من المراكب إلى المدينة ، وأوجعهم ضرباً ، وقتلوا عبد الصليب وكثيراً من رجالهم ، وملكوا المدينة واستولوا عليها ، وجلس الملك على عرشها .
جاءه غلام فقال : إن أبي وأعمامى قد هلكوا ، وأنا وارث ملكهم من بعدهم وأحب أن أكون ملكاً في المدينة على أن أكون تابعاً لك ، خاضعاً لأمرك ، مؤدياً ما تفرضه علينا من الجزية كل عام ، وإن جرى على يدي ما يغضبك كان دمي حلاً لك ، فقال : قد جعلتك ملكاً في المدينة ، على أن تكون لنا مطيعاً ، وعلى أن تعطينا الجزية كل عام ، ثم ترك الملك له المدينة ومضى إلى جيشه ، ثم أمره بالرحيل إلى مصر ، فركبوا فلكهم . وقالوا باسم الله مجراها ومرساها ، وانطلقت أشرعها فامتألت بالهواء ، وضربت بمجاذيفها وجه الماء . وما لبثت الريح التي كانت رخاء أن اشتدت حتى صارت إعصاراً فتفرقت سفن المسلمين .

ولما هدأت الريح وتفقد المسلمون سفنهم ، لم يجدوا فلك عرقوص .
ووصل الملك إلى مصر حزيناً على فقد عرقوص .

ساق الإعصار فلك عرقوص إلى جزيرة قريبة من رومة ، وكان أبوه معروف معه ، فخرج إلى الجزيرة ومشي فيها حتى دخل بستاناً قد جملمته أشجاره وزينته أزهاره ، ورأى قصراً منيفاً يشع جمالا وبهجة ، فجلس بجانبه ، ليستريح من تعب ، وكان هذا القصر لابنة ملك رومة ، واسمها شمس ، وأطلت من نافذة قصرها كعادتها فألفته جالساً ومخايل البطولة والمجد بادية في وجهه ، فقالت في نفسها : وماذا عليك لو نزلت إلى هذا الغريب الذي يتم شكله عن كرم وسيادة وشرف وإمارة ، فربما كان في حاجة إلى طعام أو شراب . فتزلت إليه ووقفت أمامه وقالت : من أنت أيها الغريب الكريم ؟ فنظر إليها فلألت يجملها وعذب حديثها قلبه وسمعه وبصره وقال : إني حوارى سائح واسمى عزم المسيح القاطع ، فقالت : مرحباً بعزم المسيح القاطع ، وأرجو أن تأتي معي في قصرى لتباركه ، وتبارك من أنست بك ، وسعدت برؤيتك ، فاستجاب لها ودخل القصر معها ، وجلست إليه في غرفة فخمة الأثاث وأحضرت له طعاماً وشراباً فأكل وشرب وشكر لها كرمها وعطفها وشرف مسعاها وجميل ضيافتها ، فزادها حديثه هذا محبة في قلبها ، فقالت له : إن في حديثك طلاوة وحلاوة ، وإني لألمح فيه أنك على دين

قويم غير ما عرفنى من أنك عزم المسيح ، فجعل يحدّثها في البر والكرم والأمانة والوفاء ، وأن الدنيا زائلة والآخرة خير وأبقى ، فقالت : بربك الذى تعبده إلا عرفنى دينك ، فقال : إن الدين عند الله الإسلام ، وإنى مسلم أعبد الله ولا أشرك به شيئاً ، فقالت : ليتنى كنت مسلمة فأنال ما أبتغيه ، فقال : وماذا تبغين من إسلامك ؟ فقالت : ما تبغيه كل مسلمة ، وإن المسلم ليجرى في دمه جميل العشرة ، والإحسان إلى العشير ، وبودى لو أسلمت وقرنت حياتى بشهم كريم ماجد مثلك ، فقال : وماذا عليك لو أسلمت وتزوجتك ؟ فقالت : علمنى كيف أسلم ، فعلمها كيف تنطق بالشهادتين ، فنطقت بهما وتزوجها عرقوص وأقام معها في قصرها ، وطالت غيبته على أبيه الذى ينتظره . فخرج من القلک يبحث عنه وقاده قلب الأب إلى ذلك القصر ، فوقف حائراً يرسل النظر إليه ويرجعه ، ورأته جارية على هذه الحال ، فظنت أنه غريب ضال ، أو باحث عن النقى الذى دخل القصر ولم يخرج ، وأخبرت سيدها شמוש ، فنبض قلب عرقوص ونهض في وسط الغرفة واقفاً ونظر إليه فقال : إنه أبى ، فأمرت شמוש جارتها أن تأتيها به ، فنزلت إليه وقالت : تفضل يا سيدى ، فإن الذى تبحث عنه مع سيدتى في غرفها ، وهو عندها أعز إنسان .

دخل معروف على ابنه وزوجته ، واستقبلاه استقبال حفاوة واحترام ومحبة ، ثم جلسوا ، وعرفه ابنه بما حصل ، ثم قال عرقوص : ارجع أنت

بالفلك إلى مدينة الرخام ، وكن نائباً عنى فى الحكم حتى يقضى ربه بما يشاء .

فرجع أبوه إلى فلكه ، ولكن القلق على ابنة يساوره ، فلم يبرح مكانه إلا بعد يومين ، ثم سافر إلى مدينة الرخام .

وذات يوم جاء ملك رومة ليزور ابنته شمس فى قصرها ، فوجد عرقوصاً معها ، فنظر إليها نظرة ساخرة وقال : من هذا يا شمس ؟ فأجابه عرقوص : أنا يا سيدى . حوارى يمشى فى مناكب الأرض واسمى عزم المسيح القاطع ، فقال أبوها : مرحباً بك ، باركت القصر وصاحبته ، فتعال معى إلى ديوانى لتباركه ، فصحبه عرقوص وقضى معه فى ديوانه ذلك اليوم ثم رجع إلى زوجته .

جعل عرقوص يقضى نهاره فى ديوان الملك وليله فى قصر ابنته ، وهو فى سرور عظيم به ، وذات يوم قدم جوان ورأى عرقوصاً فى ديوانه فسأل الملك عنه فقال : هذا عزم المسيح القاطع ، فابتسم جوان ابتسامة ساخرة وقال : هذا عرقوص بن معروف ، ثم حدثه كثيراً عن تاريخه ، ففزع الملك وساوره القلق على ابنته ، فقال جوان : ولكى يبين لك صدق فراستى اقبض عليه الآن ، فأمر الملك بالقبض عليه ، ثم كتفه وقال له جوان : كيف أنت الآن يا عرقوص ؟ أظننت أن المسيح نائم عنك ؟ لقد بعثنى من خلفك ، لأكشف للناس عن خداعك وكذبك ، وكيف تجسر على ابنة الملك وتقيم معها فى قصرها ؟ ! ما جزاء من فعل فعلتك

إلا أن يقتل ، فسكت عرقوص مطرقاً ولم يجبه بكلمة ، وأمر الملك بقتله ، فقال البرتقش : عجباً لكم أيها الملوك ! إذ حال السلطان بينكم وبين البصر بالعواقب ! فقال الملك : وكيف ذلك يا برتقش ؟ وهل هناك خطيئة أكبر من خطيئة هذا الخادع الأثيم الكذاب ؟ ! فقال البرتقش : وإن أنت قتلته فقد ارتكبت خطيئة أعظم وأكبر ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقال : إن وراء هذا ملك المسلمين وجنوده ، وإن قتلته فقد خربت ديارك ، وضيعت ملك آبائك وأجدادك ، فقال الملك : وماذا ترى ؟ فقال : ضعه في السجن حتى تهتدى إلى رأى صائب فيه ، فأمر الملك بإلقائه في السجن .

وكان على مقربة من رومة دير السراذيب ، يقيم فيه موسى بن حسن القصاص تلميذ إبراهيم ، وكان محبباً إلى النصارى ومشهوراً بينهم ، ويعرفون أنه البطريق الكبير ، كما كان معروفاً عند المسلمين بأنه فداوى شريف ، فجاءه جمال الدين شيحة ، ولما سلم عليه وأجلسه وحياه قال له : يا جمال الدين ، عرقوص محبوس في سجن رومة ، فقال جمال الدين : لقد جئتك من أجل هذا راجياً منك المعونة ، فقال موسى : لا أبخل عليك بنفسى وما أملك ، فإذا تريده منى ؟ فقال : اكتب إلى رومان ملك رومة وقل له : سيكون عندي في الكنيسة ليلة الأحد القادم حوارى لبيان شريعة المسيح ، فعليك أن تحضر أنت ووزراؤك لتعرف منه حكمة المسيح وأسرار شريعته ، فإذا حضروا فاترك الأمر لى . فكتب موسى إلى

رومان ما أشار به جمال الدين .

ولما علم جوان بهذا الكتاب قال: للملك: أحب أن أكون معكم ، فقال البرتقش على أذن جوان وألقى فيها : لا تلتق بهذا الحواري ، لأنه من عند المسيح والمسيح يعلم أنك كذاب ، فقال جوان : أخشى أن يكون هذا الحواري جمال الدين ، وقد جاء من أجل عرقوص والكيد لنا ، فقال البرتقش : إن كان كما تقول فما أنت راجع إلا بجنينة أمل فادحة ، فقال جوان : ليكن ما يكون ولا بد من الذهاب إليه .

وفي الوقت المعلوم ذهب إلى الكنيسة رومان ووزراؤه وأمراؤه وجوان والبرتقش ، ونظمهم المجلس وارتقبوا ما يقوله ذلك الحواري القادم على موسى ، وبعد سكتة طويلة بدأ موسى الحديث بتلاوة شيء من الإنجيل ، فاعترضه جوان قائلاً: أسمعنا يا حواري صوتك ، واطرد هذا العبي الذي عقد لسانك ، ولا تشمت بنا حسادك ، فسمع صوت يلبى في أرجاء الدير ويقول : اسكت ، ففرعوا وارتخت أطرافهم وشخصت أبصارهم ، قرأوا ناراً وشرراً يتطاير فوق سور الدير ، ثم سمعوا منادياً ينادى : يا موسى أقبل إلينا ، فهض من فوره إلى ناحية الصوت وقال : هأنذا جئت إليك أيها الحواري ، فقال : لماذا سكت عن تلاوة الإنجيل؟ ما جزاؤك إلا التأديب والضرب ، وإذا بمقرعة تهوى عليه ضرباً ، ثم قال له : ارجع كما كنت فرجع إلى المجلس واستقر في مكانه ، فسمعه المجلس يقول : يا موسى ، أرسل رومان ملك رومة ، فهض الملك إليه قائلاً : سمعاً وطاعة يا حواري المسيح ،

فقال : لأى شىء تقعد عن الجهاد ومحاربة المسلمين ، فصاح جوان قائلاً : كثيراً ما حفزته إلى قتالهم ، ولكنه يخلد إلى التهاون ، فأرأوا شبحاً يطوف بهم ويرسل شرراً من فمه ، ثم قال الحواري : من المتكلم ؟ فقال البرتقش : جوان ، فقال : ومن جوان هذا ؟ فقال : عالم الملة الرومية ، فقال الحواري : يا رومان ، أنت أكبر ملوك الملة الرومية ، وإن المسيح يبلغك أن عرقوصاً ترك الإسلام ورجع إلى الملة الرومية فأحضره حتى أسمعه نصحى وأبلغه رسالة المسيح ، فقال : أمهلنى حتى أحضره ، فقال : أسرع وأحضره ، فعاد رومان إلى المجلس وأمر موسى أن يحضر عرقوصاً ، فأرسل أتباعه وأحضره من سجنه مكتفياً ، فلما حضر سمعوا الحواري يقول : فكوا قيوده ففعلوا ثم قال : يا عرقوص ، أنت على دين المسيح السليم فلماذا قعدت عن الجهاد فى سبيله ؟ فقال : لأن ملوك الروم أغفلوا شأنى ولم يساعدونى ، واتبعوا كذب جوان وخبثه ولؤمه ، فقال الحواري لملك رومة : جهز فى الحال ألفين من جنودك وأمر عليهم عرقوصاً ، وأرسله بهم ومعه ابناك فرتين ومرتين إلى بلاد المسلمين ، واطرد الآن جوان وإلا أحرقتكم وجعلتكم رماداً ، ثم نفخ نفخة أرسل فيها لحياناً أفرع الحاضرين ، فانكبوا على جوان وطرده من الدير هو والبرتقش ، فاستقبله أربعة من أعوان موسى وفيهم محمد السابق فكتفوه ورموه فى غار .

تسابق الكفار إلى أن يكونوا مع عرقوص فى جنده ، ولكن رومان قال :

سيكون الجيش كما قال الحواري ، ولن أخالف له أمراً .

كان هذا الحواري جمال الدين شيحة ، فتركهم ومضى إلى معروف في مدينة الرخام وقال له انتظر قدوم ابنك ، وحكى له ما فعله .

وبعد أيام قليلة كان عرقوص وجيشه أمام مدينة الرخام ، فخرج إليه أبوه معروف وسلم عليه ، ثم نادى عرقوص في الجيش قائلاً : ما كنت نصرانياً ، ولكنها حيلة عملت لأخرج من سجن ملككم الظالم ، وما أنا إلا مسلم ، وأدعوكم الآن إلى الإسلام لتتحقنوا دماءكم ، فاغتاظ فرتين ومرتين وحضماً الجيش على القتال ، فهبوا في وجه عرقوص ، وأسرع معروف وجنده فأطفأوا ثورتهم بسيوفهم وقتلوا كثيراً منهم وقبضوا على فرتين ومرتين ، وقال : أنما رهينة عندى حتى يبعث أبوكم بشموس زوجتي ، ورجع المهزومون إلى رومان وأخبروه بما وقع ، فهاج الناس ، وغشيتهم سحابة من حزن أليم .

أما جوان فإن شيحة دخل عليه في الغار ، وضربه مائة سوط وأطلقه ، ففر إلى رومة ووجد الملك وحاشيته في غم وألم ، لما فعله عرقوص بهم ، فقال له : ألم أقل لك إن هذا الحواري شيحة ؟ ولكن اصبر قليلاً فسأنتقم لك وأخلص ابنك ، فقال : افعل ما شئت يا جوان .

كان الملك الظاهر قد سافر بجيشه إلى الشام ليجدد القصر الأبلق
ويقيم فيه مدة، ولا أصلحه واطمأن به المقام سمع رجلا تحت نافذته
يقول : مظلوم يا ملك الإسلام . . . فدعاه الملك وسأله عن ظلامته
فقال : أنا حسن السكري من الشام ، وأشتغل بالتجارة منتقلا ببضاعتي
بين مصر والشام ، ولى شريك اسمه شمس الدين السحرقى ، وفى هذه
الأيام سافرت ببضاعتي من الشام ، ومعى ابن لى يبلغ من العمر عشر
سنين . ولا كنت أمام قلعة صيدة خرج إلى يعقوب الصيداوى وطلب
منى أجرة حراسته الطريق ، فقلت : هذا مال السلطان ، ولا أجرة
لحراسته ، فأخذ منى البضاعة غضباً ، فبكى ابنى وقال له : حرام عليك
أن تنهب مال أبى ظلماً ، فأمسكه وذبحه ، فقلت أنى عهد الملك الظاهر
تنهب الأموال وتذبح الأبناء ؟ ! فقال : لو كان معك من ينقل خيرك
إلى الملك الظاهر لذبحتك أيضاً ، فارجع إليه وبلغه ما فعلته ، وليأتنى
بجندته ، وليركب ما شاء من خيله . وهذه ظلامتى .

فعل يعقوب الصيداوى ما فعله وهو سكران ، فلما أفاق من سكره
أنخبره رجاله بما وقع منه ، فقال : كان عليكم أن تقتلوا التاجر حتى
لا يخبر الملك الظاهر ويعاقبنى ، فقالوا: أنت الذى أمرت بإخلاء سبيله ،

وما ينبغي لنا أن نخالف أمرك ، فقال : علينا أن نستعد لقدمه ، وأنتم
أربعمائة رجل ، فخذوا مكانكم فوق هذين الجبلين ، وليكن مائتان منكم
هنا ، ومائتان هناك . وسألقاه في الوادي ، فإن وجدتموني غلبته فلا
تتحركوا من مكانكم ، وإن غلبني فارموه بنا لكم وادفعوه عني .

ركب الظاهر جواده وخرج إلى قلعة صيدة وحده فلما أشرف عليها
لقيه يعقوب على جواده ، ووقع بينهما نضال عنيف خشي يعقوب
الصيداوى عاقبته ففر من وجه الملك هارباً ، ولكن الملك ما لبث أن رأى
الجبلين يحطرانه نبالا فجلس ورفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم اكشف
عني ضر المعتدين . فما آتم دعاءه حتى رأى فارساً مقبلاً على جواد كأنه
الريح ، وهجم على جبل من الجبلين فأفنى رجاله ، ورأى رجال الجبل الثاني
ما حل بزملاتهم صرخوا هاربين ، ثم نزل الفارس إلى الملك فداوى جروحه
وجروح جواده وعاد إلى حالته ، كأن لم يصبه ضر أو أذى ، فقال له الملك :
لقد قدمت لك عندي معروفاً لن أنساه ، فقال الفارس : ومن أنت ؟
فقال : الفقير إلى الله الملك الظاهر ، فصرخ الفارس في وجهه صرخة
عالية وقال : لو علمت أنك الملك الظاهر لمزقتك إرباباً ، ولا ينبغي لي أن
أسترد معروفاً قدمته ، وأتبع الحسنة السيئة ، ولكني سأتركك إلى فرصة
أخرى ، فقال الملك ، ولم ذلك أيها الفارس الكريم ؟ فقال : لأنك
منحت شيعة ملك القلاع وحرمتني ، فقال الملك : إن أنت ملكتنى
هذه القلعة وقطعت رأس صاحبها منحتك السلطة ، فضحك الفارس



الملك الظاهر يدعو ربه

وقال : ارجع إلى قصرك ، وقد كفلت لك فتح هذه القلعة .

رجع الملك إلى قصر الأبلق ، وحكى لرجاله ما حصل له ، وجعل يثني على الفارس ويحمد له صنيعه ومعروفه ، فقال إبراهيم : إذا ملحت فلا تسرف في المدح حتى تبين فقال : وهل تعرفه ؟ فقال : إنه نصير النمر ، ولنا معه إهانة سابقة كان فيها من الأذلين . فقال : لقد وعدني أن يفتح قلعة صيدة ويقتل صاحبها ، فقال : لا تثق به في وعد ، فإنه يكره الإسلام والمسلمين ، وقم الآن معتمداً على ربك ، وافتحها برجالك ، فسار الملك في جيشه حتى كان أمامها ، ووجدها مغلقة ولا سبيل لهم في دخولها ، فحاصروها ثلاثين يوماً ولم يفتح لها باب ، فقال الملك : قم يا إبراهيم وابحث لك في حيلة نلخل بها القلعة ، فأخذ إبراهيم سعداً وجعل يطفون بها باحثين عن منفذ أو سبيل يعبرانه إلى داخلها . فما اهتديا إلى سبيل ، وكادا يرجعان يائسين منها ، ولكنهما لحا غبرة قادمة ، فانتحيا ناحية حتى تنكشف لهما تلك الغبرة عن رجالها .

كانت هذه الغبرة لجيش من قلعة الشقيق وعلى رأسه ابنا أخت يعقوب الصيلاوي ، وقد جاء لتجديته ، فانتظر إبراهيم وسعد حتى فتحت أبوابها ، ليتسلا إلى هذا الجيش ودخلا القلعة معه كأنهما من رجاله ، واندمجا في كبار الجيش وجلسا معهم ، وبان لهم أنهما غريبان فجعلوا يتسألون ليعرفوا إلى أية فرقة وإلى أى قائد ينتميان ولما أيقنوا أنهما لا من هؤلاء ولا من هؤلاء أمر يعقوب بالقبض عليهما ، فجردا سلاحهما وهما

أن يقاتلام ، وكان هياج ومرج استطاع سعد خلالهما أن يفلت فوثب من فوق السور ورجع إلى الملك الظاهر ، أما إبراهيم فإنه ثبت حتى كثروا من حوله وقبضوا عليه وألقوه في السجن . وبينما سعد يحكى للملك ما حصل له ولإبراهيم جاءهم إبراهيم . ولما انتهى سعد من حديثه سألو إبراهيم كيف خلس منهم بعد أن قبضوا عليه فقال : رموني في السجن ، وكان السجن جمال الدين شيحة فأطلقني وجئت إليكم ، ففرح الملك بوجود شيحة في القلعة وارتقب كل خير على يديه .

وفي الصباح طلب يعقوب إبراهيم فلم يجده في السجن ، فسأل عنه السجن فقال: ما رأيته ولا علمت به، فقطع عنقه، ثم فتح أبواب القلعة وخرج بالجيش لقتال الملك الظاهر، وبعد قليل بدأت المبارزة بين الفرسان، وكان الظافر فرسان المسلمين، وفي اليوم الثاني أقبل نصير النمر وبرز إلى فرسان المسلمين وجعل بأسر كل من برز إليه منهم ، وبلغ عدد من أسره من أمراء المسلمين عشرين أميراً في يومين، وفي كل يوم يأتي برعوس من أخفه منهم على رماح ويضعها أمام خيمة الملك ، فضاق صدره وقال : يا إبراهيم ماذا تفعل؟ فقال : لا يصلح أمرنا إلا إذا حضر شيحة ، وإذا بالأمراء الذين أسره نصير النمر ، وقطع رعوسهم قد أقبلوا على جيادهم ومعهم شيحة . فاندش الملك وأصحابه ونهضوا إلى شيحة يستقبلونه، فقال شيحة: اذهب يا إبراهيم إلى دير صيلة واثنتا منه بنصير النمر، وقال الملك لشيحة : لمن هذه الرعوس التي فوق هذه الرماح ؟ فقال : هذه رعوس

الأمراء الذين أسرهم نصير النمر ، وقد صنعت لهم رعوساً غيرها وجئت بهم إليك . ثم ضحك فقال الملك : أظنك تخفى شيئاً عني وتريد أن تحكيه . فقال : كان نصير النمر قد أغار على دبر وقتل من فيه إلا بطريقاً . فسكن فيه واتخذ هذا الطريق خادماً له ، ووصاه أن يفعل خلاف ما يأمره به ، فإذا قال له : افتح الباب أغلقه . وإن طلب منه ماء جاءه بطعام وهكذا ، فجاءه بهؤلاء الأمراء الأسرى وقال له : اقطع رعوسهم واجعلها على رماح ، فأخذهم البطريق وأخفاهم في مكان عنده وجاءه من ميدان القتال برجال غيرهم يشبهونهم وقطع رعوسهم وجعلها على رماح . وبعد ذلك دخل عليه في نومه وبنجه وكفنه ، ثم تركه في الدبر وأحضر الأمراء من مكانهم وجاءهم بخيل ركبوها وقدم بهم إليك ، وكان هذا البطريق جمال الدين شيحة .

فضحك الملك وقال : لازلت للمسلمين خير معين ونصير ، ثم مضى إبراهيم وسعد إلى الدبر فوجدوا نصيراً منكباً على وجهه فحملاه وأتيا به ، فأيقظه جمال الدين ، ففتح عينيه على الملك الظاهر ، فصرخ صرخة عالية ، ثم التفت إلى جمال الدين وقال له : ما فعل بي هذا إلا أنت أيها القصير ، وماذا عزمت عليه في أمري ؟ فقال شيحة : سوف ترى بعد أن أفرغ من عملي وأفتح القلعة ، فأمر الملك بحبسهم فظة عليه حتى يفتح القلعة .

دخل شيحة القلعة في صورة رئيس الحرس ، فرعلى الحراس في أماكنهم

على سور القلعة وبنجهم ثم ذهب إلى يعقوب وطمأنه على سور القلعة ،
 وأن الحرس في يقظة واستعداد ثم تركه بعد أن بنجه ، ثم ذهب إلى أبوابها
 وفتحها وكان ذلك بالليل والناس هاجعون في فراشهم ، ثم انطلق إلى الملك
 الظاهر وأمره بدخول القلعة فوراً ، فأسرع بجيشه ودخلوها ، وذبخوا الحرس
 جميعهم ومضى إلى قصر يعقوب فلنخله فوجدوه مغشياً عليه فكتفوه ووضعوه
 بين يدي الملك الظاهر ، وجلس الظاهر على عرش القلعة وأحضر الرجل
 التاجر ، فقال له : أهذا الذى نهب مالك وذبح ابنك ؟ فقال : نعم ،
 فأمر بقطع رأسه فقطعوه ، وأعطى الملك التاجر أضعاف بضاعته التى نُهبت
 إلى أهله ، ثم طلب نصيراً فلم يجدوه فى معتقه . كان قد هرب الطود وفرقد
 ابنا أخت يعقوب الصيداوى حين فتحت القلعة ، فاختلطاً بجيش الملك
 الظاهر ، ورأيا نصيراً محبوساً مكتفياً ، فاحتالا وأطلقاه ومضيا به إلى
 عبد الصليب فى قلعته ، وكان نصير فى أشد الغضب مما حل به ، وأصر على
 أن يقتل الملك الظاهر وشيعة وإن تعلقا بالسحاب ، ولما اجتمعوا بخالمهم
 حكوا له ما فعله المسلمون بيعقوب الصيداوى فحزن حزناً أليماً ، وجاءهم
 إذذاك جوان وجلس إليهم وأوقد فى صدورهم نار الغضب على المسلمين
 ووعدهم أن يساعدهم بحيلة فى فنائهم .

عرف الملك الظاهر من جواسيسه أن الطود والفرقد ابني أخت يعقوب
 الصيداوى سرقا نصيراً وهربا إلى عبد الصليب صاحب قلعة الشقيق فأمر
 بالمسير إليها وفتحها والقبض على نصير وصاحبيه ، فصدع الجيش بأمره ،

وبعد قليل كانوا في معسكرهم أمام القلعة .

بعث الملك إبراهيم بكتاب منه إلى عبد الصليب ، فلما كان بين يديه وهم أن يناوله الكتاب ، نهض نصير قائماً وصنع إبراهيم على وجهه وقال :
ما نحن بقارئين لكم كتباً ، ولكننا سنسلفك دماءكم بسيفنا ، ثم أمر أن
يلقى في السجن ليكون باكورة لمن سيأخذ في الميدان من أمراء المسلمين .
فجذبه الحرم ورموه في السجن .

وفي الصباح برز نصير إلى الميدان في قوة وثقة من نفسه ، وغضب
بضطرم في صدره ، فجعل يأسر كل من برز إليه من فرسان المسلمين
حتى بلغ عددهم عشرين فارساً في ثلاثة أيام ، فقال جوان لعبد الصليب :
إن نصيراً يأسر الأمراء والفرسان من المسلمين ويلقيهم في السجن ، وقد
أصر على إرجاء قتلهم حتى يأسر ملكهم ، وهذا خطأ وخيم العاقبة ،
وأرى أن تقبض على نصير هذا وتحبسه حتى تقتل هؤلاء الأسرى ،
فأحضره عبد الصليب وجعل يثني عليه ويلهج بشجاعته وقوته ، ثم ناوله
كأساً من خمر ممزوجة بالبنج فشربها نصير وهو فرح بملحه ونصره ،
فسقط مغشياً عليه ، وأمر عبد الصليب رجاله فكتفوه وألقوه في غيابة
السجن .

وفي الصباح نزل الفرقد إلى الميدان وجاءه شاهين فضيق عليه وأسره ،
فنزله الطود فألقه شاهين بأخيه ، فاغتم عبد الصليب ودق طبول الهدنة
بقية هذا اليوم وقال لجوان : قد أشرت علىّ بالقبض على نصير فساعات

حالتنا وأسر المسلمون أمراءنا بعد أن كنا ظاهرين عليهم بسيف نصير النمر ، فقال : ما أشرت عليك إلا بما أمر به المسيح ولعل له في ذلك سرّاً وحكمة ، فأحضر الأسرى واحداً واحداً واقتلهم وابدأ بإبراهيم ، فأمر السيف أن يأتيه بإبراهيم ويضرب عنقه وحضر السيف ومعه إبراهيم فلما رآه جوان قام فزعاً وقال : هذا شيحة وما هو بسيفك فاقبض عليه قبل أن يقتلنا ، ثم عجل بقتله مع إبراهيم ، فأمر بالقبض عليه فوراً ، وقال البرتقش : ألم تتعظ بما أشار عليك جوان به من القبض على نصير النمر وبما وجلت من آثاره السيئة ؟ ! أتريد أن تقتل أمراء المسلمين ليقتل الملك الظاهر الفرقد والطود ؟ ! أما علمت ما فعله بالملك من قبلك ؟ ! حافظ على أمراء المسلمين في سجنك حتى يتبين الأمر وتبصر العاقبة ، فقال عبد الصليب : إنك عاقل حازم وأمر أن يلقي إبراهيم وشيحة في السجن مع بقية الأمراء والفرسان .

وأقبل ساعثنذ جماعة من غلمان مرد يقدمهم غلام قوى البنية ، اسمه نوير ، فسلم على عبد الصليب وسأله عن غيوم الفتنة التي تظلل القلعة ، فحكى له ما حصل وما أشار به جوان من حبس نصير النمر بعد بلائه الحسن في القتال ، وانكفاء الإناء بعد حبسه ، فقال الغلام : ما أشأم طلعة جوان ! وما أفسد رأيه ! وهل رأينا منه إلا هلاك الأنفس وخراب الديار ؟ غداً أحارب أعداءكم ، وأرد إليكم الطود والفرقد رغم أنوفهم .
 اقشعر بدن جوان حين رأى هذا الغلام ، فقال لتابعه البرتقش :

ما أخوفنى من هذا الغلام ! وما أحسبه إلا شيحة، فقال : وإن صدق ظنى فهو ابنه، فقال: وما رأى؟ فقال: رأى أن تورب ، فقال : لن تطاوعنى نفسى أن أترك القلعة قبل أن ينقذ فيها غراب الخراب .

وفى الصباح كان الغلام فى ساحة القتال ينادى من يبارزه ، فسبق الفرسان إليه . ولكن قدرته كانت فوق قدرتهم ، فكلما برز إليه فارس جرحه ورده إلى قومه ، وعف عن القتل أو الأسر ، إلى أن جاءه سعد فأرهبه الغلام وأعسره ، ولما أحس عجزه قال لسعد: إنك تبارزنى وجماعة من قومك يساعدونك من خلفك ، فالتفت سعد إلى الوراء ، وفى أثناء ذلك فر الغلام إلى القلعة هارباً ، فرماه سعد بحجر فشح رأسه، واستمر الغلام يمضى قدماً حتى دخل على أمه ، وطلب إليها أن تضمد جرحه ، وحكى لها ما فعله سعد به ، فضمدت جرحه وقالت : لا أخاف عليك إلا من رجل قصير فى العرب اسمه شيحة ، وإن أتيتنى به أكلت من لحمه وشربت من دمه ، فقال : إن شيحة فى السجن ومن اليسير على أن أحضره ، ولكن أى شىء بينك وبينه حتى كرهته ؟ فقالت: جرحنى جرحاً لم يبرأ ، فقال : سأريك به لتأرى لنفسك منه ، ثم أحضره مكتوف اليدين فقالت أمه : يا نوبر ، كيف جئتني بأبيك مكتوف اليدين ؟ ! فقال : إنه شيحة الذى جرحك ، فقالت : إنه أبوك وأنت ابنه وأنا أمك وزوجته ، فقال : إن أبى رباح بن مكافح ، فقالت : إن رباحاً هذا جدك للأمك ، وأما أبوك فهو شيحة ، وقد أخفيت ذلك حتى أحافظ عليك من

الروم وكيدهم ، فتم إليه وفك قيوده ، وقبل يديه واتبع دينه ، فنهض
 فوير وفعل ما أمرته به أمه ، وضمه شيحة إلى صدره وعلمه الإسلام ،
 ثم جلسوا في متعة من هذا اللقاء الجميل ، وقال نوير : سأحارب في
 صفوف العرب وأملكهم هذه القلعة ، فقال أبوه : إذا جاء الليل فأطلق
 سراح المسجونين منهم ، واثنتي بنصير النمر . كتوف اليمين ، ففعل
 نوير ما أمره به أبوه ، وانطلق جميعهم في ظلام الليل إلى جيش العرب .
 وفي الصباح وصل إلى عبد الصليب نبأ هروب الأسرى ونصير ، فقال
 لجوان : كيف رأيت عاقبة مشورتك ؟ وماذا أفعل الآن وقد هرب الأسرى
 وحرمنا من معونة نصير النمر ؟ فقال : إن ملك العرب لا حول له ولا قوة ،
 فأركب جوادك ، وبرز إلى ساحة الوغى وقل لهم : لا ينبغي أن نكون
 سبياً في سفك دماء الأبرياء من الفرسان ، وليبرز إلى ماكمكم فإن غلبني
 كنت في طاعته . وكانت القلعة له ، وإن غلبته دخلتم في طاعتي ، وبذلك
 ينتهي ما بيننا من خصومة وعراك ، وقال جوان : واعلم أنك ظاهر عليه
 لأنه ضعيف عاجز .

نزل عبد الصليب إلى الميدان ، وقال ما علمه إياه جوان ، فتقدم
 غلام أمرد إلى الملك الظاهر وقال : ائذن لي يا مولاي أن أبارز هذا اللعين
 لأقتله ، وأثار لأبي الذي قتله ، وأنا نور الدين بن فلك ، ولن أسكت
 عنه حتى أقتله كما قتل أبي ، فقال له : دونك وما تريد ، فانفلت إليه
 فرحاً ، وهجم عليه هجوم الليث فأطاح رأسه ورجع يتبه فخراً ، ولكن

جوان حض الروم على القتال فاندفعوا إلى الميدان يحاربون ، وقابلهم العرب فردهم خائبين . وجلس الملك على عرش القلعة ، ثم ولى عليها نور الدين ، وأمر بالرحيل إلى مصر ، وكان قد هرب الفرقد والطود لأن كلاً منهما فك قيود أخيه بأسنانه ، أما نصير فكان في حراسة إبراهيم وسعد .

رشا نصير إبراهيم فأعطاه صكاً يلزمه أن يدفع لإبراهيم ستة آلاف دينار ليتمكن من الهرب ، وأخذ إبراهيم الصك وأطلقه ، ثم دخلا على الملك وأخبره أن نصيراً هرب واعتذر بأن تعب السفر أغرقهما في نوم ثقيل طويل فتمكن نصير من الهرب في تلك الفترة ، فصبر الملك على مضض ، أما شيحة فإنه أصر على أن يقبض عليه .

أخذ شيحة يجوس خلال الأسواق والطرق في مصر وكان في شكل درويش من الدراويش فوجد دكاناً في أول حارة الروم فارغاً من البضاعة ، وقد جلس فيه اثنان على هيئة التجار فسلم عليهما واستجداهما فأعطياه نصفين من الفضة ، فأخذهما شاكرًا ، ولكن أحدهما سقط منه على الأرض فركه ومشى دون أن يعبا به ، فقال الفرقد: يا درويش ، وقع منك نصف فخذنه . فرجع إليهما وقال: لا أنحنى لأخذ شيء يسير سقط مني ، لأنني أعرف صناعة الكيمياء ، وأحول المعادن إلى ذهب خالص ، وعندى مال كثير ، وقد صرفت عنى الناس والحكام بالتنكر في هيئة درويش يستجلى فخذعهما قوله هذا ، وقال الطود: ألا تحب أن تحسن إلينا وتأخذنا عندك لتكون من

خدمك واحتسب أجرك عند ربك؟ فقال: ذلك لا يكون إلا خفية وفي مكان منعزل لا تحيط به شبهة، فقال الفرقد: عندنا ذلك المكان المنعزل، ولا يجيئنا فيه إلا صاحب نثق به، على أن يجيئه إلينا قليل، فمر بنا إليه واتخذنا من دراويشك ومن أطوع خدمك وعلمتنا صناعة الكيمياء، فقال: الإحسان جميل أيها كان، ولا يضمن به إلا لثام الناس. فهيا بنا إلى مكانكما.

وسار ثلاثتهم إلى بيت الفرقد والطود ودخلوه وأغلقوا بابه، وبعد أن جلسوا ووضعوا الموقد بينهم وأشعلوا النار فوقه طرق باب الدار، فأدرك شيحة أن الطارق صاحبهم وأنه نصير النمر، وفتح الطود الباب وأخبره أمر الدرويش، فلما دخل عليه نصير عرفه فقال: إلى يا نصير، وفتح إلى عصا في يده يريد أن يهشم بها رأسه ولكن شيحة أسرع وقفز إلى الحارة من نافذة الحجرة وجرى، فأسرع نصير وقفز من تلك النافذة وجرى خلفه، فدخل شيحة رباعاً في السكرية وصعد فيه حتى دخل على امرأة في حجرتها تغسل ثيابها، وكان يبدو عليه الرعب والفرع فسألته عما أفزعته فحكى لها قصة نصير. فأطلت من النافذة وألقت عليه الماء، فشمها، فشمته بأقذع مما قاله لها، وانتظر بالباب إلى أن يخرج ويمسكه، وقال شيحة لتلك المرأة: ساعديني وخذي هذا الكتاب إلى الملك الظاهر، فقالت: سيصله فوراً.

لبست المرأة ثيابها وأخذت منه الكتاب وخرجت، فظنها نصير شيحة، وأراد أن يمسكها ولكنه عرف أنها امرأة فتركها، ومضت إلى

الملك وناولته الكتاب ، فلما قرأه عرف أنه محبوس في بيت المرأة في السكرية وأن نصيراً وقف ببابه ينتظر خروجه ، وأنه يطلب منه الرجال لإنقاذه ، فأمر إبراهيم أن يأخذ رجاله ويذهب إلى ذلك البيت ليخلص شيخة ويقبض على نصير .

ولما رأى نصير إبراهيم ورجاله مقبلين فر هارباً ، فلم يتبعه أحد منهم وقدموا إلى البيت وخلصوا شيخة ، فخرج وسار معهم إلى الملك ، وقص عليه إبراهيم ما حصل ، فقال الملك : لقد تهاونت يا إبراهيم في القبض على نصير ، وأحب ألا تربى وجهك إلا إذا قبضت عليه وأحضرتة ، فأخذ إبراهيم سعداً وخرجا يبحثان في المدينة ليمسكاه .

أما نصير فإنه استمر في هربه حتى وجد بالغورية فرساً مسرجة فامتطأها ووخزها وانطلقت كأنها الريح إلى منزل صاحبها ، وكان شيخاً من شيوخ القليوبية معروفاً بالكرم وسماحة الخلق ، فقيل له : إن رجلاً امتطى الفرس وجرى بها ، فقال : لا بأس في ذلك ، فستذهب به إلى منزلي ضيفاً له علينا كرم المثوى ، وبعد أن فرغ من أعماله رجع إلى منزله فوجد نصيراً فيه فسلم عليه وحياه وأكرمه ، وكان نصير قد حاول أن يصرف الفرس عن طريق منزل الشيخ فلم يستطع .

وفي تلك الليلة قدم إبراهيم وسعد إلى منزل هذا الشيخ وكانا متنكرين في صفة غريبين ، فأنزلهما مع نصير في بيت الضيافة ، وكان قد عرفاه وهو لم يعرفهما ، فقال إبراهيم لسعد : انتظر حتى ينام ، ثم نهجم عليه

ونمسه ونخبر الشيخ أنه طلبه الملك ، ثم جلس جميعهم يتحدثون ، فقال نصير للشيخ : أما عندك رجل يسلينا بطرف من حكاياته ؟ فقال الشيخ : قدم علينا الآن رجل شاعر وسأحضره إليكم ، ثم قام وأحضره ، وقال : هؤلاء ضيوف ويحبون أن تسامرهم وتسليهم بشعرك ، فقال : إني جوعان ، فأمر الشيخ الخدم أن يحضروا له لبناً يطفىء به هب الجوع حتى ينضجوا له الطعام ، ولا حضر اللبن ووضعه الخدم بين يديه وهو جالس معهم قال نصير : إذا رأى أحد لبناً ولم يطمع منه أصابه النكد ، ولا بد من أن أطمع منه . فقام الشيخ إلى المصباح ليصلحه فأطفأه ثم رجع إلى قصعة اللبن وجلس ، وأمر الشيخ الخدم فأصلحوا المصباح وأوقدوه ، وانكب نصير وإبراهيم وسعد على اللبن يشربون منه ، فسقطوا على الأرض مغيثاً عليهم .

فزع الشيخ إلى الشاعر وقال له : ما هذا ؟ فقال : أنا شيحة ، وهؤلاء مطلوبون للملك ، ثم قام وأوثق كتافهم وحملهم على جمل فكان نصير في شق وإبراهيم في الشق الثاني وسعد على ظهر الجمل ، وأحكم ورباطهم وسار بهم إلى الملك . وصل شيحة بهم إلى الملك ووضعهم بين يديه وأيقظهم من غشيتهم ، وقال : أما إبراهيم وسعد فإنهما يستحقان التأديب ، وأما نصير فلا بد من سلخه ، ولبس شيحة ثوب السلخ وهم أن يقتله ويسلخه ، فقال نصير للملك : أهذا جزاء من أنقذك من الموت ونجاك من أعدائك ؟ ! أما وعدتني أن تجزيني أحسن الجزاء ؟ ! وهل

قتلى أمامك هو ما وعدتني به من الجزاء الحسن !؟ فقال الملك : لا يحميك يا نصير إلا الإسلام وأن تطيعني وتطيع شيحة، فنطق نصير بالشهادتين وأعلن طاعته للملك ثم قال : أما أن أطيع شيحة فذلك ما لا يكون ، فالتفت الملك إلى شيحة وقال : لقد حمى نصير نفسه بالإسلام وطاعني ، وما دمت أنا في طاعتك يا شيحة، فقد أصبح نصير بهذا في طاعتك، وأحب أن تغفو عنه، فقال شيحة : وإني لن أرد لك أمراً، وعفا عنه . فقال الملك : لك عندي يا نصير أمنية فاطلبها الآن فقال نصير : أمنتني في حياتي أن أكون خادملك وأن تجعلني مع إبراهيم في ميمتك ، فقال : لك ما طلبت يا نصير ، فقال إبراهيم : المركب الذي له رئيسان مصيره إلى الغرق ، فأعفىني من الشركة وليقم نصير وحده بشئون ميمتك ، فقال الملك : وإني لا أرغمك على أمر لا ترغب فيه ، وقال سعد : وما دام إبراهيم قد اعتزل فإني لا أستطيع العمل بدونك ، فقال الملك : أنت وما تريد ، فخرج إبراهيم وسعد واعتزلا العمل في ديوان الملك . وقام نصير بخدمة الملك محاولاً أن يقف على أسراره وشئون ديوانه ، وكان لشيحة مرداب تحت الأرض من ديوان الملك إلى بيته ، اتخذته له طريقاً سريعاً يعبره ليلاً ، عرف نصير هذا الطريق فارتقب انصراف شيحة من الديوان في الثلث الأول من الليل كما دتته ، واقتفى آثاره خفية، ولما قرب من نهايته أسرع إليه وأمسكه من رقبته وقال له : أين تذهب الآن ؟ ! أنت تسلخني ؟ ! ثم حمله تحت إبطه ومضى إلى بيته ، ثم أحضر

الطود والفرقد وقال لهما : سأسبقكما إلى قلعة الطير ، فاثباتي هناك ، لأنني أخذت شيحة وأريد شنته في تلك القلعة ، ثم ركب جواده ووضع شيحة تحت فخذيه ، وسار يقطع الوعر والسهول ، ومر في طريقه بأبناء إسماعيل ، وكانوا راجعين إلى قلاعهم من وليمة ، فقال لهم : هذا شيحة سلطانكم تحت فخذى وإني ذاهب به إلى قلعتي لأصلبه على بابها ، وإن كنتم ذوي نخوة وقلرة فخلصوه مني ، فهموا به يقاتلونهم ولكن شيحة قال لهم : لا تتحركوا من مكانكم واتركوني ، فقال سليمان : كيف تتركك في يد عدوك ؟ فقال : إذا وجد منكم الغلبة وخزني بسيفه وقتلني ، وخلصتموني من يده قتيلًا ، وأية منفعة لكم أولى في ذلك ؟ فقال سليمان : أنت وشأنك معي يا نصير . وصل نصير إلى قلعته وأحضر رجاله وقال لهم : هذا شيحة جئت به لأقتله وسألحق الملك الظاهر به ، فقالوا : كان عليك أن تأتي بأولاده معك لتكون آمنًا على نفسك منهم ، وإنك بهذا كمن قطع ذنب الأفعى وترك رأسها ، وستكون في خطر لاحق له إن أنت قتلت دون أولاده ، فقال نصير : لن أقتله حتى أجيء بأولاده وأقتلهم معه ثم وضعه في السجن ، وانتظر أولاده يحضرون إليه ليخلصوه ، أما أبناء إسماعيل فإنهم كتبوا إلى الملك الظاهر بما وقع لشيحة من أسر نصير له وما عزم أن يفعله فيه ، وكان الملك الظاهر في دهشة وخوف لغيب شيحة ونصير معًا ، فأحضر إبراهيم وسعداً وسألهما عنه فقال إبراهيم : قد قربت نصيراً منك على غير رغبة منا ، ولا نظن إلا أنه

كاد له وأخذه ، وجاءه كتاب سليمان الجاموس وهو يتحدث إليهما ، فلما قرأه قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، لقد كنت السبب في نكبة شيعة ، ثم أمر الجيش بالرحيل ، فسار به وأخذ بنى إسماعيل معه ، وكانوا ينتظرونه في طريقه حتى وصل إلى قلعة الطير وعسكر بالجيش أمامها ، وأراد أن يكتب إلى نصير وإذا محمد السابق مقبل على جواده ومعه صندوقان فأفرغهما وأخرج منهما الطود والفرقد وقال : وجدتهما في طريقهما إلى نصير النمر ، ليساعدها في قتالها ، فأمر الملك بوضعهما في السجن .

قدم إلى نصير الطود والفرقد فقالا له : لقد جئناك لتحميننا ونكون من أتباعك إن قدرت على حمايتنا وإلا فثنا عن أحد غيرك يحميننا ، فقال : إني قادر على حمايتكما وحماية عشرات معكما ، فأقيا عندي ، وقد وكلت إليكما حراسة شيعة لأفرغ لقتال المسلمين ، فقالا : سمعاً وطاعة ، فركلهما شيعة ، وكان الطود والفرقد ابني شيعة ؛ نورا ونويرا ، فأخرجاه من سجنه .

نزل نصير ميدان القتال ، وبرز إليه إبراهيم ودامت المبارزة بينهما جميع النهار، ولما دنت الشمس للغروب انكب إبراهيم عليه وأمسكه وأسرع إليه سعد فأعانه ، وأخذاه أسيراً ، فهجم جيش نصير ليخلصوه ، وهجم جيش الملك ليصلوهم ، واشتعلت نيران القتال وكانت الغلبة لجيش الملك الظاهر ثم سمعوا شيعة يصيح من فوق السور ويقول :

يا معشر العرب ادخلوا القلعة فقد فتحت أبوابها ، فاندفعوا إليها ودخلوها . وجلس الملك على عرشها وأحضرها بين يديه نصيراً والطود والفرقد ، فأنذروهم القتل الأليم ، ثم وكل حراستهم إلى إبراهيم وأمر الجيش بالرحيل فارتحلوا حتى كانوا عند الخانكة فترلوا ، وأمر الملك أن يقتل نصير والطود والفرقد على رماها وكلف إبراهيم أن يأخذهم إلى ساحتها الرملية ويقتلهم فيها . فأخذهم إبراهيم ومضى في الخلاء ، أما الفرقد والطود فإنه قتلها وأشعل النار فيهما ، وأما نصير فإنه جعل يسترحمه ويقول : اعف عني هذه المرة فربما هداني ربي إلى الإسلام وكنت فيه قوة ، فتأثر إبراهيم بقوله ورجع به وألقاه في السجن ، وسأله الملك عن تركه نصيراً دون أن يقتله ، فقال : أرجأت قتله إلى صباح الغد ليكون لغيره عبرة ، ولما جاء الصباح أخبر السجنان الملك أنه وجد باب السجن مكسوراً ولم يجد فيه نصيراً ، فأحضر إبراهيم وعاتبه لأنه لم يقتله مع الطود والفرقد ، فقال : إذا كان في أجله بقية فليس لنا فيه حيلة . وحضر إذ ذاك شيخة فوجد العتاب على أشده ، فقال : لا تغضب أيها الملك ، وسأجد في طلبه حتى أحضره .

كان الذي خلص نصيراً من سجنه جوان اللعين ، وذلك أنه بنج السجنان وكسر باب السجن ثم دخل فيه وأخذ نصيراً من يده وخرج به إلى الخلاء ، فقال له نصير : من أنت ؟ فقال : أنا جوان عالم الملة ، فقال : وما دفعك إلى خلاصي ؟ فقال : كرهت أن يكون مثلك

مملوكًا ومحبوسًا تحت إمرة بلوى حقير مثل شيخة ، وأنا الذى علمته الحيل والمكائيد ، فقال نصير : إذا كان الأمر كذلك فإما قتلتك وإما علمتني حيلة أقتل بها شيخة ، فقال جوان : إن أعطتني نلت ما تبغى ، فقال : إني طوع يمينك فأشر على بما تريد .

وكان جوان قد مر برومان فشكا إليه وقال : إن عرقوص بن معروف عنده ولدا فرتين ومرتين رهينة لزوجته شموس ابنتي ، وأخشى أن أبعث بها إليه فيقتلها ولا يردهما إلى ، فقال جوان : سأردهما إليك دون أن ترسل إليه ابنتك شموس .

وقال جوان لنصير : سأعلمك حيلة تخلص بها فرتين ومرتين ابني رومان من يد عرقوص وسجنه ، فإذا ما أحضرتهما إلى أبيهما اتفق هو ومملوك الروم وحاربوا العرب وخربوا ديارهم وقتلوا ملكهم وشيخة ، وكنت أنت سيد أرضهم وبلادهم ، فقال : وما تلك الحيلة ؟ فقال : اذهب إلى دكان سمعان ، واجعله يكتب على صفحة سيفك : نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ، وعلى الصفحة الأخرى : هذا السلاح للجهاد به في طاعة الله ، وهو لنصير النمر المطيع الخاضع لحمال الدين شيخة ، فاندعش نصير وقال : ما هذا يا جوان ؟ فقال : إنك لا تستطيع أن تدخل على عرقوص وتحوز ثقته إلا بهذه الطريقة ، ففعل نصير في سيفه ما أمره به جوان ثم أخذه وسار إلى مدينة الرخام ، ودخل نصير على معروف وقال : السلام عليكم ، فقال معروف : وعليكم السلام ،

ارجع يا نصير ، ولا تطأ بقدمك بساط ابني ما دمت تعصى جمال الدين شيحة . فقال نصير : لقد أطعته وهذا سبني شاهد على ما أقول ، فنظر معروف إلى سيفه وقرأ ما كتب عليه ثم قال : أهلاً وسهلاً بك يا نصير ، تفضل ، ثم أجلسه في حفاوة وإكرام وجعل يثنى عليه لابنه عرقوص ويشيد ببطلته وشجاعته ، فبجعله عرقوص في مسيرته ، وكان أبوه في ميمنته وأقام أياماً حتى عرف مكان فرتين ومرتين في سجنهما والسبيل إليهما ، وكان جوان ينتظره في مدينة الأفلاق ، وفي ليلة دخل السجن عليهما فأطلقتهما ومضى بهما إلى جوان في تلك المدينة ، وهم جوان أن يأخذ نصيراً معهما إلى أبيهما ، فقال البرتقش : أبق نصيراً هنا في مدينة الأفلاق وخذ فرتين ومرتين إلى أبيهما ، فربما طلبت منه أن يقاتل العرب فيمتنع ويقول : إن ابني رجعا إلى أبيهما سالمين فلا حاجة بي إلى قتال الملك الظاهر ولا غيره ، وحينئذ يغضب نصير ويقتلك ، فإذا كنت وحدك وقال لك رومان هذا القول استطعت أن تهرب من وجه نصير ، فقال جوان : حسن هذا يا برتقش ، ثم أقنع نصيراً بالبقاء في المدينة حتى يرجع إليه بجيوش رومان ومن معه من الملوك لغزو العرب في بلادهم . فقال نصير : سأمكث في هذه المدينة حتى تأتيني بجيوش الروم .

أما عرقوص فإنه وجد نصيراً غائباً فساوره ظن السوء وزاده ثباتاً على ظنه حين أتاه السجن وبلغه أن فرتين ومرتين سرقا من السجن . ودخل عليه شيحة وهو غارق في غمه وتفكيره ، فسأله عن حاله فأخبره بقصة

نصير وسرقة ابني رومان اللذين كانا رهينة لزوجته شمس أختهما ،
 فقال شيحة : لا تحزن وسأتيك به وبزوجتك وأنت مطمئن وادع ،
 ثم تركه شيحة وانصرف إلى مدينة الأفلاق فوجد نصيراً فيها ،
 فجعل يسرق من بيت الحاكم وبيوت الوزراء الأموال والحواهر ويضع
 في بيت نصير حتى ضجوا وقلقوا ، وفي ليلة كان الحاكم جالساً في
 غرفته فنزل شيحة في شكل حوارى من السقف ووقف بين أرض الغرفة
 وسقفها وقال : أنا حوارى من حوارى المسيح أرسلنى إليك ويقول لك :
 أعط الناس أموالهم التى سرت منهم ، فقال له : ومن أين أحجى بها
 حتى أردتها إليهم ؟ فقال شيحة : بدبر الأفلاق البطريق أبو الدواهي ،
 فأحضره بين يديك ، واسأله عنها ، فإنه يرشدك إلى مكانها وإلى من
 سرقها ، وإذا عرفت السارق فاجزه شر الجزاء ، وإن لم تفعل ما أمرتك
 به جئتك الليلة القادمة ونفخت في وجهك فأحرقته ، ثم نفخ نفخة طويلة
 كانت ناراً حامية ، فانطوى على نفسه من الرعب وقال : سأفعل
 ما أمرنى به المسيح .

وفي الصباح أحضر نصيراً وقال له : أين أموال الناس ؟ فقال :
 لا أعرف عنها شيئاً ، فقال : أحضر لى البطريق أبا الدواهي من الدير ،
 فأحضره في الحال ، وكان البطريق قد أوهنه الكبر وأنحله الضعف حتى
 بدا عظماً قد لف في ثوب فضفاض من الجلد ، فقال له : أتانى حوارى
 من عند المسيح وقال : سل البطريق أبا الدواهي عن الأموال التى سرت

فإنه يرشدك إلى مكانها ويدلك على من سرقها وقد أحضرتك من أجل ذلك ، فقال : ما سرقها إلا كبير من الكبراء فاجمع كبار رجالك لأعرفه منهم ، فجمع الحكام والأمراء والوزراء ، ثم طلب بعضاً من الدقيق ، فأحضر له ، فصنع منه عجينة وأعطى كل كبير لقمة منها وأمرهم أن يأكلوها ، فأكل كل منهم لقمته إلا نصيراً فإنه لم يستطع أن يبلعها ، فقال البطريق : يخيل إلى أن نصيراً هو الذى سرقها ، ولكن أنظرونى قليلاً ، ثم أحضر ورقة وكتب عليها شيئاً يعرفه ثم نفخها فطارت فى الهواء وقال لهم اتبعوها حتى تحط على مكانها ، فاتبعوها حتى حطت على بيت نصير ، فأخبروه أنها حطت على بيت نصير ، فقال : من حطت على بيته فهو الذى سرق الأموال ، ولكن نصيراً لا يزال ينكر أنه سرق ، فقال البطريق : اضربوه حتى يعترف ، فضربوه وما تنازل عن إنكاره ، فأحضر البطريق ورقة وكتب عليها ونفخها فطارت ثم حطت فى مكان من بيت نصير ، فقال : احضروا فى هذا المكان وستجدون فيه الأموال ، فحضروا وأخرجوا جميع الأموال والحواهر المسروقة ، فردوها إلى أصحابها ، وقبضوا على نصير وسألوا البطريق : ما جزاؤه ؟ فقال : أن تبنا سور المدينة على أن يحمل نصير الحجارة والطين ، ففعلنا ما أمر به البطريق . واستمر نصير فى الشقاء حتى بنى سور المدينة ، وقال البطريق : إن حوارى المسيح جاعنى فى المنام وأمرنى أن أذهب إلى كنيسة مريم لزيارتها ، ثم ودعهم وانصرف من المدينة ، وكان هذا البطريق شيحة .

ذهب شيحة إلى رومة فوجد الناس مجتمعين في زحمة شديدة حول رجل اسمه عبد الصليب يقوم بالألعاب مسلية شائقة ، فوقف معهم ، ولما انتهى من ألعابه بسط منديله وأخذ يدور عليهم وكل منهم يضع فيه ما تجود به نفسه من النقود ثم مضى إلى بيته ، وتبعه شيحة فجلس أمام بابها يبكي ، ولما خرج منه عبد الصليب لقضاء بعض شؤنه ، وجدته بالبواب يبكي ، فسأله عن بكائه فقال : مات أبي في حرب بيننا وبين العرب ، فقالت أمي : اذهب إلى عمك عبد الصليب في مدينة رومة لأننا افتقرنا ولم نجد ما نقتات به ، فجئت رومة وجعلت أفتش عن عمي فلم أجده ، فقال عبد الصليب : وما اسمك ؟ فقال : بولص ، فقال : أنا عمك عبد الصليب ، فتعال معي ، فذهب معه حتى قضى بعض أموره ، ورجعا إلى البيت وناما فيه ، ولما جن الليل بنج شيحة عبد الصليب ثم كتفه وأيقظه ، وعرض عليه الإسلام ولما صد عنه وأبى قتله . ثم لبس ثيابه وجعل صورته كصورته ويات إلى الصباح ، ثم خرج إلى المدينة يعرض على الناس ألعاباً عجيبة مدهشة حتى أعجب دوفش بن رومان وأخذه عنده ليسل زوجته ، التي كانت في نفور منه وأبت عليه أن يدنو منها ، وكانت ابنة ميخائيل ملك القسطنطينية ، وقد كره الله إليها زوجها دوفش لأن في علمه أن تؤمن به ، فصانها وحماها بكراهيتها له حتى لا ترى منه ولا يرى منها ، وكان هو بلحماها لا يغصبها ولا يفعل شيئاً لا تريده .

وقدم جوان اللعين إلى رومان وسأله عن دوفش ابنه فقال : إنه في بيته

مع زوجته ومعهما عبد الصليب يعرض عليها ألعاباً تكاد تكون معجزة ليسلى زوجته ، ولعلها تنسى بذلك نفورها وترضى به زوجاً لها ، فقال جوان : هاتوه ليعرض علينا شيئاً من ألعابه ، فأرسل ابنه في طلبه ، فقال لمارية : إن جوان عالم الملة قد حضر عند أبي ويريد أن يرى ألعاب عبد الصليب . فأظهر امتعاضاً وألماً ، وعرفت ذلك منه مارية ، وكانت قد أنست به وعزمت أن يمكث عندها ولا يفارقها فقالت : ليستظر جوان حتى أشبع نفسي من السرور بألعابه وبعد ذلك أبعث به إليه ، فبلغ دوفش والده رغبته فقال لجوان : إنها فتاة في مقتبل عمرها ولا ضير علينا أن نعطف عليها ونشبع رغبته فلنصبر قليلاً حتى تشبع رغبته ، وعزم شيحة أن يفر بمارية ليلاً حتى لا يلتقي بجوان ، فلما جاء الليل بنجها وزوجها ، ثم كتب ورقة علقها في رقبة دوفش وفيها : اعلم يادوفش أني شيحة وقد سرقت زوجتك مارية وذهبت بها إلى عرقوص في مدينة الرخام ، وهي رهينة عنده حتى يبعث أبوك ابنته شמוש إلى زوجها عرقوص ، ثم وضع مارية في صندوق حمله وخرج ، ولقبه البواب عند الباب فسأله إلى أين تذهب ؟ فقال : إلى الملك رومان ، فقال : وما هذا الذي تحمله ؟ فقال : لا تسأل عن شيء لا يعنيك ، فقال : اجلس بجواري هنا حتى يطلع النهار ثم أذهب معك إلى جوان والملك رومان ، فقال شيحة : ومن أنت ؟ أنت سابق ؟ فضحك البواب وقال : يا أبنى لم لا تأخذ حذرک من البواب ، وهأنذا قتلته وجلست بالبواب مكانه ، فقال

شبيحة : خذ مارية وكنابى هذا وامض قدماً إلى الملك الظاهر ، واحفظ مارية في قصر الملك مع حريمه حتى أعود إليكم من مدينة الرخام ، فقال : سمعاً وطاعة ، وكتب الكتاب وناوله إياه فأخذه وانفقت وجعل يقطع الفيافي والقفار ، وأخرجها من الصندوق ليطعمها ويسقيها فوجدت منه خلقاً كريماً ورجولة نادرة وعبادة قويمة لله رب العالمين ، فسألته عن دينه فقال : دينى الإسلام ، وأخذ يذكر لها مزاياه وما يحث عليه حتى شغفت به ، وطلبت منه أن تسلم وتعلم شرائعه وأحكامه . فأنطقها بالشهادتين وأسلمت ، ثم حملها ومضى ، وقال فى نفسه ما دمت قد علمتها الإسلام فلا بد من الزواج منها ، وفتح كتاب أبيه وقرأه فوجده يقص حكاية سرقتها ويوصى الملك أن يحفظها حتى يعود ويتزوج منها ، فزق محمد السابق كتاب أبيه وقلد خطه وكتب غيره يرجو فيه الملك أن يزوج ابنه مارية عقب وصوله إليه ، فلما قرأ الملك الكتاب فرح به وأقام له الأفراح وزوجه مارية ، فلنحل بها وانتظر عودة أبيه .

أما جمال الدين فإنه انتظر فى مدينة رومة ليعرف ما سيكون ، وفى الصباح دخل الخليم على دوفش فلم يجلبوا زوجته ووجدوه مغشياً عليه وفى عنقه ورقة ، فنقلوا الخبر إلى أبيه ، فحضر هو ووزراؤه وعرفوا كل شىء ، وانتظروا حتى أفاق بعد مدة وعرف منهم ما حصل ، فثارت ثائرتة وثائرة أبيه رومان ، وأمر بالجيئش أن يسافر مع دوفش وأخيه دومار إلى مدينة الرخام ، فانفلت شبيحة يجرى كالبرق حتى كان عند عرقوص فأخبره بقدم ذلك الجيئش وأمره أن يستعد للقائه فقال : مرحباً بالقتال ، وقال

شيحة : ليخرج معي أبوك معروف في طائفة من الفرسان والأبطال
لنكمن لهم في طريقهم ، حتى إذا ما التقيتا ونشب القتال بينكما ، هجمنا
عليهم من خلفهم وأعملنا فيهم السيوف من الأمام والوراء حتى نهلكهم
أو يفروا خائبين ، فقال : نعم الرأي يا شيحة ، ونقلوه في الحال . وبعد
قليل من الأيام حضر الجيش ونشبت حرب طاحنة أسر عرقوص فيها دوفش
ودومار وقتل جيشه وجيش أبيه ألوفاً من الأعداء ، فولوا الأدبار ورجعوا
مهزومين ، ورجع عرقوص ظافراً ، ووصاه شيحة أن يحافظ على دوفش
ودومار حتى يرسل أبوهما زوجته شמוש ، ثم ودعه وانصرف عائداً إلى
مصر . ولما وصل إليها وسأل الملك عن مارية أخبره بما فعله وأراه الكتاب
فعرف حقيقة الأمر وحمله حنان الأبوة على أن يخفي خطأ ابنه ومكره وصبر .
أما المهزومون فإنهم أخبروا رومان ملك رومة بأسر ولديه وهزيمة
جيشهما ، فهم أن يجهز جيشاً آخر للقتال فقال وزيره محبتون : أنت
تعلم أنه لا طاقة لأي ملك من ملوك الروم بقتال العرب ، وإن قاتلناهم
أهلكنا أبناءنا وخربنا ديارنا ، وأرى أن تكتب إلى الملك الظاهر بما
حصل وتعهده أن ترسل شמוש إلى زوجها عرقوص إن أرسل إليك دوفش
ودومار وتطلب منه أن يكون ضامناً لك فيما قلت ووعدت ، أما مارية فلا
بد أنها أسلمت وأرسلت إلى مصر ، ولا فائدة منها لنا بعد إسلامها ،
فكتب رومان الكتاب وبعث به وزيره محبتون إلى الملك الظاهر في مصر .

ركب الوزير مخبتون في السفينة بعد الغروب، وباتت تلك الليلة في الميناء، فجاءه جوان وبنجه وهو نائم، ثم أخذ كتاب رومان من جيبه فزقه ووضع مكانه كتاباً آخر من عنده كتب فيه: من رومان الملك العظيم الذي تعرف شدة بطشه إلى ذلك المملوك الحقير الذي ارتفع في غفلة الزمن إلى منزلة المملوك، أما بعد فقد سرق عرقوص أولادى فاكتب إليه أن يردهم إلى أبيهم، وإن لم تفعل فستجدنى عندك حاضراً، أصب عليك الدمار، وأخذ منك الملك والديار، وهذا نذير لك قبل أن يحل بك العطب. وفي الصباح أيقظه جوان وتحدثنا قليلا، ثم أقلعت السفينة بالوزير، فتزل في الإسكندرية، ثم سافر منها إلى مصر ودخل على الملك الظاهر بعد أن أذن له. وقدم إليه هدية ثمينة كان قد جاء بها من رومان إليه، وناوله كتابه فأمر بقراءته، ولما انتهى من قراءته اريد وجه الملك من الغضب. فقال له أحد الحاضرين معه: لا يرسل الهدية إلا من شعر بالذلة، والمملوك أجدر الناس بالحلم، ولا بد أن يكون هذا الكتاب قد حمل على رومان ظلماً وزوراً، فقال الملك للوزير مخبتون: أهذا كتاب رومان؟ فقال: إنه برىء من هذا، وما كتب إلا ما يشرح الصدر ويرضى النفس، فقال: ومن الذى بدله وغيره؟ فقال: بات جوان معى ليلة

في السفينة ، وأظن أنه سرق كتاب رومان وبدله ، فسمح له بالعودة إلى رومان ليأتي بكتاب غير هذا .

كان الوزير عند ملكه رومان وأطلعه على ما جرى فغضب وقال :
اكتب أنت إليه بما شئت واختمه بخاتمي ، فكتب الوزير كتاباً رقيقاً
وختمه بخاتم رومان ومضى به إلى الملك الظاهر ، فأطفاً الفتنة التي أجمع
نيرانها جوان الأثيم، وكتب الظاهر إلى عرقوص يقول : إلى البطل المغوار
عرقوص ، طلب إلى رومان أن ترسل إليه أولاده على أن يرسل إليك زوجتك
شموس ، فأرسل الأولاد إلى أبيهم وأنا ضامن لك وصول زوجتك إليك .
وأرسل سعد بكتابه هذا إلى عرقوص فلما قرأه نظر إلى سعد وقال :
أما كان الأجدد بالملك أن يرغم رومان على إرسال زوجتي ويجعل الوعد
منى بإرسال أولاده وعداً لا يخلف وأمرأ لا ينقض ، ثم كتب للملك
رافضاً طلبه .

ناول الملك الكتاب للقارئ فقرأه ، فغشى الجلسة سحاب كثيف من
وجوم ، وضحك الملك من شدة الغضب ، وقال : اتركونا من الحديث في
أمر عرقوص . فإما أدبته وشفيت الغضب بالتنكيل به وإما عفوت عنه غير
عائني بسفاهته وحمقه ، ثم أمر أن يحضر إليه أبو بكر البطرني ، فلما
حضر ناوله كتاب عرقوص الذي أرسله إليه وقال : اذهب إلى مدينة
الرخام وأعط معروفًا هذا الكتاب سرّاً دون أن يعلم به عرقوص ابنة ولا
أحد غيره ، فقال : سمعاً وطاعة ، ثم كتب إلى معروف كتاباً آخر

قال فيه : قد أرسلت إليك مع كتابي هذا كتاب ابنك عرقوص إلينا ، فإن كنت حريصاً على دوام صحبتنا وسلامة أمر العرب فائتني ومعك ابنك فوراً لأطفئ تلك الفتنة وربك يخلق ما يشاء ويختار . .

قرأ معروف الكتابين فعلمت وجهه سحابة من الحزن ورفع يديه إلى السماء وقال : عجز الروم عن الوقوف بسيوفهم في وجه العرب فلجأوا إلى تدبير المكاييد لصدع الصفوف وتفريق الكلمة ، فاللهم أبطل كيدهم واحفظ العرب من مكرهم ، وأصلح ذات بينهم حتى يكونوا غصة في حلق الروم وقلدى في أعينهم ، إنك على كل شيء قدير ، ثم نهض إلى ابنه فوجده نائماً فبنجه وحمله وذهب به مع البطرني إلى السفينة التي جاء البطرني بها ، ثم أقفلت وجرت في البحر إلى الملك الظاهر . واعترضهم في طريقهم مراكب للأعداء فقامت بينهم مناوشات حربية اضطر معروف أمامها أن ينه ابنه ويوقظه فنهض وانتضى سيفه وهزمهم ووجد أن أباه قد سرقه ليحملة إلى الملك الظاهر، وهو لا يريد أن يمضي إليه، فركب في مركب للأعداء سراً وأرغمه على المسير به إلى مدينة الرخام ، فصدع صاحب المركب بأمره وطار به إلى المدينة ، وهناك أعلم رجاله ما فعله أبوه به . وعتب عليهم أنهم أهملوا شأنه حتى سرق فاعتذروا بأنهم لا يعلمون شيئاً مما فعله أبوه .

أما معروف فإنه بعد للمعركة تفقد ابنه فلم يجده فقال للبطرني : ارجع بنا إلى مدينة الرخام فإنه لا فائدة من المضي إلى الملك دون أن يكون

ابننا معنا ، فرجع البطركى به إلى المدينة .

ولما دخل على ابنه قام إليه وسلم عليه وقال له : إنك يا أبى فى آمن من
 يدى ولسانى ، وأحب أن تعتزلى وتقيم وحلك فى مكان بالقلعة ، فإنى
 لا آمن على نفسى منك ، وأخشى أن تسرقنى كما سرقنى وتمضى بنى إلى
 الملك الظاهر ، وأحب أن تتركنى وشأنى معه ، فلما قهرته وإما قهرنى .
 فاعتزله أبوه وأوى إلى غار فى جبل الرخام وأقام فيه يبكى ويدعو الله
 أن يقى ابنه شر نفسه ، فجاءه شيحة فى شكل درويش من اللراويش
 وسلم عليه فرد عليه السلام وقال له : ادع ربك أيها الشيخ الصالح أن
 يهينى لابنى من أمره رشداً ، فقال الشيخ : يا معروف ، أنا أخوك شيحة
 قتم معى إلى ابنتك لأصلح بينكم ، دخل شيحة ومعروف على عرقوص فلما
 رأى أباه قال له : إن اعتزالك أخف على نفسى وأهون؟ فلم قدمت يا أبى؟
 فعرفه شيحة بنفسه وقال له : ما الخبر؟ فحكى له ما حصل من أوله إلى
 آخره ، فقال شيحة: إنك عندنا وعند الظاهر مليكنا بأمة الروم وملوكها ،
 والخطأ إن وقع فن ورائه صوابه ، ولا عصمة إلا لنبى ، والكمال لله وحده ،
 والفتنة ضلال والهادى فيه غى ولثم ، وأنت أكبر من أن تمكن الفتنة
 من نفسك وسيفك ، فتكون طامة كبرى عليك وعلى قومك ، فإن لم
 ترحل مع أهلك الليلة إلى الملك الظاهر طائماً مختاراً وتعتذر إليه فإنى قاتلك
 وسالخ جلدك فيما بعدها من اللبالي ، ثم اختفى شيحة فجأة فلم يكن له أثر ،
 وساد المكان سكون طويل ، ثم قال عرقوص : أسمعت يا أبى ما قاله شيحة؟

فقال : يا بني إنك تعلم أنه رجل يفعل ما يقول ، وأنه لا يبغى إلا إصلاح ذات البين ، وما دام الخبر وجهته وهدفه فلا ضير عليك أن تطيعه ، فسكت قليلاً ثم قال : هيا بنا إلى الملك الظاهر ، ففرح أبوه وركبا في الفلك وجرى بهما إلى مصر .

أما البطرني فإنه رجع وحده إلى الملك الظاهر وأخبره بما حصل ، فقال الملك : وهل كان الأعداء يترصدونكم ويعلمون أنكم قادمون إليهم هذه الليلة وفي تلك الساعة ؟ ! أخبرني يا أبا بكر بالواقع على حقيقته واحذر أن تخفي عني منه شيئاً ، ودخل شبيحة إذ ذاك عليه فقال : إن ما أخبرك به البطرني حق ، وإن معروفاً وابنه قادمان إليك في شمس الغد ، فاطمأن الملك ولبث ينتظر قدومهما .

وفي أثناء النهار دخل معروف على الملك وابنه في يده وقال : هذا ابني بين يديك فافعل به ما تشاء ، فأخذه الملك بيده وأجلسه إلى جانبه وجعل يحدثه حديثاً لينا حتى أزال غيظه ومحا غضبه ثم قال : أغضبك أني أمرتك بإرسال أبناء رومان إليه ؛ لأنك فهمت أن ذلك عن ضعف مني ، وسواء أصدقنا وعده أم لم يصدق فإننا نستطيع أن نصل إلى ما نريده من ملوك الروم رغباً أو رهباً ، ولهذا أرى أن تنفذ ما أمرتك به وترسل إليه ولديه ، أما زوجتك فإنها آتية لا ريب فيها طوعاً أو كرهاً ، فقال ذلك لا يكون ؛ لأنني أخشى أن يقتلها بعد أن يصل إليه ولداه ، فقال أيديمر - وكان يحمل في صدره لعرقوص عداوة قديمة -

كيف تجعل رغبتك فوق رغبة المليك ؟ ألم تعلم بأن رومان قادر يجنسه أن يمحوك من الوجود ، إذا تخلى عنك المليك ، وفلم يطق عرقوص صبراً على هذا الكلام ، وهم به يضربه أو يقتله فغضب الملك وقال : كل منكما يلزم مجلسه ، ثم أخذ يقرعهما لأنهما لم يحترما ديوان الملك ومقر حكمه ، وقسا في تقرعيهما حتى غضب عرقوص وغادر مجلسه ، فلقبه جوان في هيئة درويش وقال السلام عليكم ، فأجابه : سلام الله على من هداه ، فقال : مالى أراك غاضباً يا بنى ؟ فقال : كنا نرجو النصفه عند العرب فوجدناهم ظالمين ، فواحسرتى على أيام قضيتها بين الروم عزيزاً مطاعاً ، فقال : وماذا يمنعك أن تعود إليهم لتعود إليك أيام العزة والجاه ؟ اعلم يا عرقوص أن الذى يحدثك جوان عالم الملة الرومية ، وبودى أن أرافلك إلى ملك من ملوك الروم لتنزل عنده ؟ فقال : ومن هذا الملك الذى سمنضى إليه ؟ فقال : رومان ملك رومة ، فقال : إن له عندى ولدين رهينة لزوجتى شموس ابنته ، فقال جوان : سنأخذ معنا ولديه ، وهناك أصلح بينك وبينه ، وتقيم عنده مع زوجتك شموس فى رخاء وسعة ، فقال : هيا بنا إلى ما أردت ، فقد كرهت العرب ويشت منهم .

وأخذه عرقوص إلى مدينة الرخام ، فأخذ ابنى رومان وساروا إليه ، وكان جوان قد بعث إلى رومان من سبقهم ليخبره بقدمهم ويوصيه أن يلتقى عرقوصاً لقاء حسناً لأنه ترك العرب وأصر على قتالهم مع الروم ، وأن يقيم عندك مع زوجته شموس .

استقبلهم رومان وأبدى ابتهاجه بانضمامه إليهم ، وقال جوان :
 إن عرقوصاً يريد أن تجمع ملوك الروم في جيوشهم برومة ليخرجوا منها
 معه لغزو العرب غزوة ماحقة تقضى عليهم ، فكتب إليهم بهذا ،
 فكتب رومان إلى الملك بما قاله جوان ، واجتمعوا بجيوشهم في رومه ،
 ثم رحلوا منها إلى مدينة حلب ، ونزلوا أمامها ليستعدوا لفتحها والاستيلاء
 عليها ، وشعر بهم صاحب المدينة وعرف من جواسيسه مقصدهم ، فكتب
 إلى الملك الظاهر بذلك وطلب منه النجدة والمعونة ، فأتاه الملك بجيش
 جرار نزل به في أرض حلب تجاه جيوش الروم الغازية .

كان معروف قد خرج من مجلس الملك بعد أن غادره ابنه غاضباً ، وأقسم لهم وهو خارج أنه سيقتل أول رجل يخبره أن ابنه ركب في جيش لقتال الملك الظاهر ، وقال لإبراهيم وسعد سأوى إلى مكان منعزل ، فاصحباني حيث أكون لأنس بكما وأخفف آلامى بمصاحبتكما فساروا به إلى دمشق .

وذات يوم دخلوا المسجد الأموي للصلاة فوجدوا رجلاً يصنئ وهو متقلد عدة الحرب فسأله إبراهيم : لماذا لبست عدة القتال وأنت في مدينة يرفرف عليها السلام ؟ فقال : إن عرقوصاً جمع ملوك الروم وهم مجتمعون على قتال الملك الظاهر أمام مدينة حلب ، فقال لإبراهيم : يا سعد ، بلغ معروفًا هذا النبأ ، فقال سعد : بلغه أنت يا إبراهيم فإني لا أزال أذكر أنه أقسم ليقتلن أول رجل يخبره أن ابنه يحارب الملك الظاهر ، فقال : تعال معي . فعسى أن نهتلى إلى وسيلة نبلغه بها هذا الخبر ، ثم خرجا من باب المسجد فوجدنا رجلاً يهودياً ينادى من عنده فضة ليشتريها ، فقال إبراهيم : إذا دلتك على رجل عنده فضة كثيرة فماذا تفعل ؟ فقال : أكافئك بفنجان من القهوة ، فأخذته إلى معروف وقال له : أسأله عن الفضة التي عنده ، وبلغه أن عرقوصا جمع ملوك الروم وهو يحارب

الملك الظاهر أمام مدينة حلب ، فقال : شكراً لك وسمعاً وطاعة ، فذهب إليه وأخبره ثم قال : هات ما عندك من الفضة لأشترىها ، فقام إليه ناهضاً وقال : ما عندى لك إلا الموت العاجل ، ثم ضربه بسيفه فأطاح رأسه . والتفت إلى صاحبيه وقال : أسمعنا ما قال؟ فقال إبراهيم : ما سمعنا ، فإذا قال ؟ فقال معروف : أخبرني أن ابني عرقوصا انضم إلى ملوك الروم وهو في قتال مع الملك الظاهر ، فأصبح من الواجب علينا أن نركب ونذهب لمعونه «فركبوا ومروا بقلعة صهيون وأمر معروف عماد الدين أن يجمع رجاله ويسيروا معه لمناصرة الملك الظاهر، ودخل على مريم زوجته وأخبرها أن ابنها ترك العرب ورجع إلى الروم وألف من ملوكها عصابة على العرب ، وأنه الآن يقاتل الملك الظاهر فقالت : سألتك بالله أن تأخذني معك ، لعله إذا رآني حن قلبه ورجع إلى الهدى والصواب .

اجتمع كل أولئك وساروا إلى حلب ، فنصبوا خيامهم ونزلوا فيها كما نزلت مريم في خيمة معروف التي أعدت له ، ثم ذهب معروف إلى الملك الظاهر ودخل عليه في مجلسه ، فسلم وحيا وقال : هذا يوم المنى ، إذ أقف مجاهداً في سبيل الله وأقتل بسيفي أعز الناس عندي ، فعجب الملك من ثبات إيمانه والتفت إلى أيلمر وقال : أنت السبب في كل هذا يا أيلمر ، فقال معروف : تلك إرادة الله التي لا راد لها ، وأرى أن تكتب إلى عرقوص كتاباً كعادتنا قبل بدء الحرب ، والله بعد ذلك يفعل ما يشاء . فكتب كتاباً وبعث به إبراهيم إلى عرقوص ، ولما

فضه وجد فيه : غرك الشيطان يا بنى وخذحك فجمعت ملوك الروم الذين
 أخذهم سيف العرب لمحاربتى ، وظننت أنكم ستغلبون ، وإني أنصح لك أن
 ترجع إلى العرب قبل أن يحل بك غضبهم ، وحيث لا ينفعك النعم ،
 فإن أبيت فلا لوم علينا ، وهذا إنذار منا لك والسلام ، فكتب إليه
 عرقوص : دعنا من إنذارك وتهديدك ، والسيف خير حكم بيني وبينك ،
 وغداً يكون ما يكون ، ورجع إبراهيم بالكتاب إلى الملك الظاهر فلما قرأه
 مزقه وقال : سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

وفى الصباح قفز عرقوص إلى الميدان وصاح قائلاً : لا يأتيني إلا
 الملك الظاهر والكلمة المطاعة لمن غلب منا ، ولا حاجة بنا إلى سفك دماء
 الأبرياء ، فركب الملك الظاهر ونزل إليه ، وجعلا يتبارزان جميع النهار ،
 ثم قال الملك : يا عرقوص إن شجاعتك لا ينكرها إنسان ، ولكنى لا أريد
 أن أبغى على مسلم مثلك فارجع وتعال فى صباح الغد ، لنم ما بدأنا من
 المباراة ، فقال : ولك ذلك .

مضى يومان وهما يتبارزان وصمد الملك حتى بدد من ذهن عرقوص
 ما كان يظنه فيه من عجز وقصور ، وبعد جهد عنيف أصابت ضربة
 طائشة فم الملك فسال منه الدم ورآه رجاله فانكبوا عليه كالمنظر واختطفوه
 من الميدان ومضوا به إلى خيمته ثم نادوا : يا شيحة ، فحضر فى الحال
 وضمده جرحه وشفى ، وأشاروا عليه بالمقام فى قصر الحاكم بالمدينة ، وأن
 يعتصم الجيش جميعه بها ، وفى الحال دخل الجيش وحصن أسوارها

وأبوابها بالجنود المدججين بالأسلحة وأدوات القتال .

أما جوان فإنه أشعل النار في صدور الروم وأغرامهم بفتح المدينة والاستيلاء عليها، فخدعهم قوله، وكانوا كلما أغاروا عليها استقبلتهم السهام فشجت رعوسهم وشقت صدورهم وبقرت بطونهم وحصدتهم حصداً ، وما استطاعوا أن يشقوا طريقاً إليها من أى باب من أبوابها .

وحانت من معروف التفاتة في الخلاء فرأى ابنه قد اعتزل في مكان فوق الجبل فقال لأمه مارية : إني ذاهب إلى عرقوص لعلى أجد في اعتزاله أملاً في عودته إلينا ، فقالت : وإياك إن عصاك أن تدعو عليه . فقال لها : يفعل الله ما يشاء .

وذهب إلى ابنه وجعل يذكره بالآخرة وطاعة الوالدين ويدعوه إلى أن يعود إلى قومه ولا يتأوى مليكه، فأبى وأصر على مناوأة الملك . فغضب معروف ودعا عليه فقال : ابتلاك الله بالغرابة وسؤال الناس ، والضعف والشقاء والمقام في ديار أعدائك ، ولطف الله بك فيما قدره عليك ، ثم رجع إلى زوجته مريم فسألته عما فعله فقال : غضبت ودعوت عليه ، فقالت : ألم أحذرك أن تدعو على ابنك ؟ فقال : ذلك قضاء الله الذى لا مفر منه ، والله تعالى لطيف بعباده .

وهجم الروم ليلاً فصدمهم العرب صدماً عنيفاً ، وفروا من وجه معروف في المكان الذى وقف فيه ليدافع عنه وجرى من خلفهم وهو يحصدهم بسيفه حتى أبعدهم عن مكانه من سور المدينة ، ثم رجع وهو



معروف وقد فاضت روحه

يقول لعنة الله عليكم أيها الروم ، لا تهربون ولا تثبتون ، وعلى غفلة منه وهو راجع إلى مكانه أصابه سهم في فخذه فجرحه جرحاً بليغاً ، فغمز جواده ، وأسرع به إلى مكانه فاضطجع فيه وجعل يذكر الله ويسبحه حتى فاضت روحه ، ولقى ربه شهيداً .

ومر إبراهيم وسعد به في مكانه كعادتهم فوجداه قد مات والنور يشع من وجهه وشيبتة ، فحزنا عليه حزناً أليماً ، وذهب سعد إلى الملك فأخبره فجاء مسرعاً إليه هو وأصحابه ، وأسفوا عليه أسفاً شديداً ، وجاءت زوجته مريم فسقطت في حفرة في طريقها وماتت لساعتها ، وكان معروف لا يزال قابضاً على سيفه فحاولوا أن يأخذوه من يده واحداً بعد واحد فما استطاعوا ، فتقدم إبراهيم وقال : أنت وعدتني أن يكون سيفك لي بعد وفاتك وما عهدناك إلا وقيماً ، ثم مد يده وأخذ السيف فناوله إياه كأنه حي من الأحياء، ثم أمر الملك بدفنها فدفنا رحمة الله عليهما.

وذهب بطريق إلى عرقوص في معزله فوق الجبل فقال : أبشرك بموت بطل عظيم من أبطال العرب اسمه معروف ، فكاد عرقوص أن يصعق ولكنه تجلد وقال : كيف تقول إنه مات وهو قادم إلينا من خلفك ، فالتفت البطريق وراءه فضربه عرقوص بسيفه وشقه نصفين ، ثم نهض ونزل من فوق الجبل وركب جواده وثار في الروم ثورة النار في الهشيم ، وراه الملك الظاهر وهو يقاتل الروم ويسقيهم الردى فمضى إليه حتى كان

بجواره وقال : هداك الذى استأثر بأبيك ونقله إلى جنته ورحمته ، فامتحيا عرقوص وانفلت بجواده فى الصحراء ، ورآه الروم فظنوه قد فر مهزوماً ، ففروا من خلفه ، وتشتتوا فى الصحراء بعد أن أذاقهم الله لباس الذل والوبال .

واجتمع ملوك الروم بعد هذا التشتت وأجمعوا رأيهم على أن يأخذوا للملك الظاهر جوان اللعين ويصالحوه على دفع الجزية حتى يأمنوا على أنفسهم وديارهم من العرب ، فرجعوا إليه وأعطوه جوان اللعين وصالحهم على دفع الجزية ، وتقدم أحدهم وقال : إن أعطيتموني جوان فلکم صندوق من الذهب ، فقال إبراهيم : الصندوق خير لنا من هذا اللعين ، ثم أخذوا الصندوق وأعطوه جوان ، وأمرهم الملك بالرجوع إلى بلادهم آمنين . ثم أمر بالرحيل فارتحلوا وقطعوا السهول والأوعار حتى دخلوا مصر وهم فى حزن أليم على معروف وأهله .

فكر عرقوص فى أمره فوجد أنه أغضب العرب وملكهم بعصيانه وتمرده ، وأغضب ملوك الروم بنقض عهودهم وقتالهم ، كما فقد أباه الذى كان يعطف عليه ، فلم يجد إلا الهيام على وجهه فى الفلوات يأكل من نبات الأرض وحيداً طريداً ، فجعل يمشى فى مناكبها حتى مر ببستان فيه من كل فاكهة فدخله ، وكان هذا البستان لملك اسمه الرقشوان وله بنت اسمها الرقطة ، وكانت ذات جمال يشع فتنة ، وكانت قد تعلمت كثيراً من العلوم والعزف على آلات الطرب ، وكان أبوها يحجبها عن الناس

حتى لا يطلب منه يدها أحد من الناس ، لأنه رغب أن يصطفيا لنفسه ، وكان لها قصر في ذلك البستان ، فنزلت منه وجعلت تمشي في طرقات البستان حتى رأت عرقوصاً نائماً بجوار فسقية جميلة ، وجواده يرعى الكلاً هنا وهناك ، فوفقت تنظر إليه وتعجب من جماله ، واستيقظ إذ ذاك فرأها واقفة بجانبه فاعتدل جالساً ، وسألته الفتاة عن اسمه فقال : اسمي عزم المسيح ، فقالت : هذا اسم مبارك فتعال معي إلى القصر لأقوم بواجب الضيافة ، فمشى معها وأجلسته في حجرتها على فرش حريري وثير ، وأحضرت له الطعام والشراب فأكل وشرب ، ثم أحس منها ميلا إليه ورغبة في زواجها منه ، ولكن الحياء يمنعها أن تفضي إليه بذات نفسها ، فجعل يحدّثها عن الإسلام وفضائله وأحكام الزواج فيه ، فقالت : إني أحببت الإسلام ورغبت في الزواج منك من أجله ، فعلمها الإسلام وأبرم عقد زواجه منها وعاش معها في نعمة واسعة .

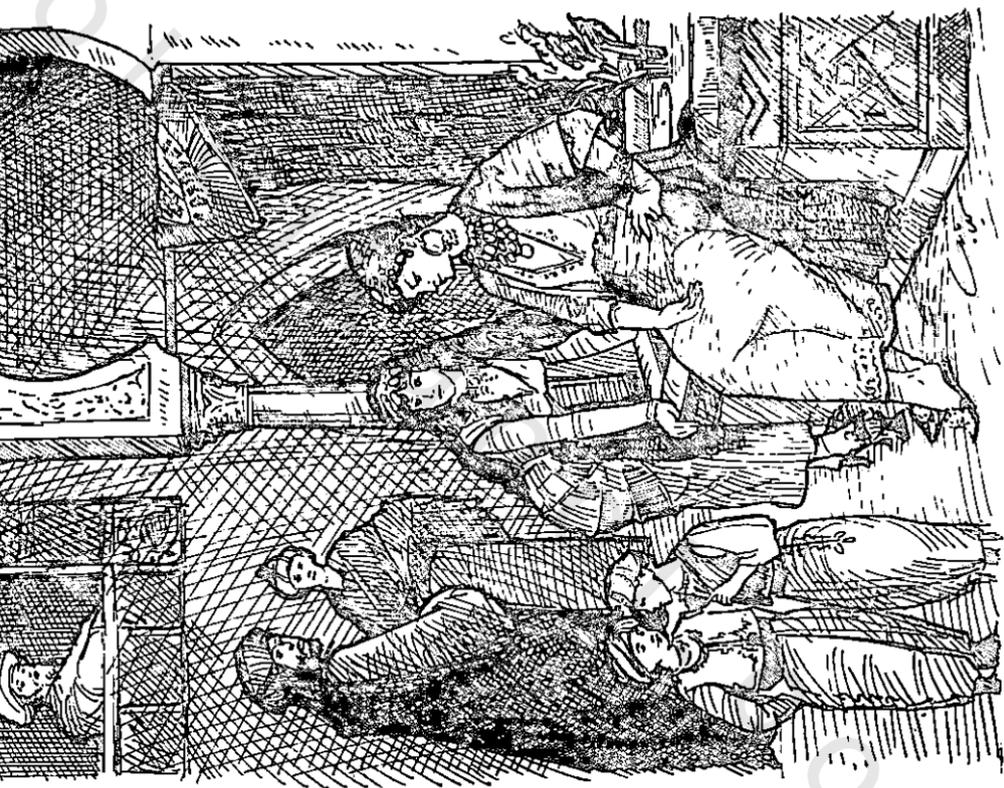
وذاذ يوم أطل من نافذة القصر فرأى جوان اللعين قادماً على أتانه ومعه امرأتان على بغلين ، وكل امرأة معها غلام في حجرها ، فأمن النظر فيهما فوجدهما زوجتيه ، إحداهما بنت مغلوبين ، والأخرى بنت رومان ، وكان الغلامان ابنيه وبكى عرقوص حين رآهما ، فسألته الرقطة زوجته عن سبب بكائه فقال : هاتان المرأتان زوجتاي ، وهذا جوان وتابعه البرتقش ، وجوان هذا سبب محنتي وحكى لها ما حصل ، فقالت : سأحضر جوان بين يديك لتفعل به ما تشاء .



عرقوس نائم والرقتة تقرب منه

وانتظرت حتى قدم إليها وكان تحت قصرها ، فقالت للبرتمش :
 غبم عنا طويلا ، وانقطعتم عن زيارتنا مدة طويلة ، فقال : ها نحن أولاء
 قد جئنا ، فقالت : تعال يابرتمش فذهب إليها وقام إليه عرقوص فأمسكه
 من عنقه وقال : إما صدقت وأخبرتني كيف أتيتا بهاتين المرأتين وطفليهما
 وإلا قتلتك ونلت أجراً جزيلا بذلك ، فقال دخلنا مدينة الرخام ، فقال
 جوان : أريد أن أسرق زوجتي عرقوص لأردهما إلى أبيهما ، فدخلنا
 بستان قصرهما ، ولما نزلنا فيه احتال جوان وبنجهما ثم حملهما وخرجنا
 وكنت أظن أنه سيذهب بهما إلى أبيهما ، ولكنه جاء بهما إلى هذا
 البستان فرأيتنا قادمين ، فاعف عني وأنا أبعث به إليك ، فقال : انزل
 وأرسله إلينا ، فنزل البرتمش وقال لجوان : إن الرقطة تطلبك فاصعد إليها ،
 ولما دخل عليها في حجرها ووجد عرقوصاً معها بال في ثيابه من الخوف ،
 وقال عرقوص : أوحشنا غيابك يا جوان !! فقال إنك في قلبي
 يا سيدى ، وما نسيك ، وقد أتيت بزوجتيك ولا أزال أفتش عنك حتى
 وجدتك في هذا المكان ، فقال عرقوص : وهل كنت ولي أمرهما في غيبي ؟
 وهل تقدمتا لك بالشكوى من ضنك الزمن وضيق المعيشة ؟ ! ثم
 قام إليه وجعل يضربه حتى أشرف على الهلاك. ثم فتحت له الرقطة
 حجرة مظلمة مهجورة في القصر فألقاه فيها وأغلقها عليه .

انفلت البرتمش من البستان إلى الرقشوان أبي الرقطة في قلعة مجمع
 البحرين وقال له : إن عرقوصاً مع ابنتك في قصرها ، وأراد جوان أن



يطرده فأمسكه وأوجعه ضرباً ، ولا أدري إن كان قد فاضت روحه في يده أو لا يزال حياً ، وإن مات جوان ضنت عليكم الأرض بنباتها ومائها ومتم جوعاً وعطشاً ، فقم الآن وخلص جوان وابنتك ، ففرع الرقشوان ومضى لساعته إلى قصر ابنته فوجد عرقوصاً معها في حجرتها وكانا ناعمين ، فبنج عرقوصاً وكتفه ، وأخرج جوان من سجنه ، ثم أخذهم جميعهم إلى قلعته ، وهناك أمر السيف أن يقطع رقبة عرقوص ، فجاء السيف لينفذ أمره ، وكان السيف شيحة فعرفه جوان وعرف به الملك فأمر بقتله معه ، فتقدم البرتقش وقال : لا تجعل قتلها على يديك وإلا قتلك ملك المسلمين ، ولكن احبسها في سجنك حتى يأتيها جوان برجل غيرك يقتلها لتكون آمنة على نفسك ، فقال جوان : احبسها عندك حتى آتيك بمن يقتلها ، فنفذ الرقشوان مشورته .

مضى جوان إلى مدينة الأفلاق ودخل سجنها بعد أن بنج الحرس ، وفك القيود عن نصير النمر وأحضر له سلاحاً وجواداً ، وظن أنه ميشكر له هذا الصنيع الجميل ، ولكن نصيراً قال له : إني قاتلك الآن يا جوان لأنك ضحكت على وخذعتني حتى مكنت مني شيحة الذي أوقعني في هذا العذاب الأليم ، الذي خلصتني منه الآن ، ولو أنك أوقعت في يدي شيحة لأنتقم منه لعفوت عنك ، فقال جوان : وما جئتك الآن إلا لأخلصك وأبشرك ، فإن شيحة وعرقوصاً محبوسان في سجن قلعة مجمع البحرين ، فاذهب إليهما واقتلها ، فقال : أسرع إليهما لأشفي غيظي منهما بقتلها .

دخل نصير وجوان والبرتنش على شيحة وعرقوص في سجنهما فنظر نصير إلى شيحة نظرة ترسل الشرر وقال : سأكل من لحمك وأشرب من دمك وأريح الناس من محالك وكيدك، وإذا دخان يملأ المكان ، وإذا نصير وجوان والبرتنش وشيحة وعرقوص تأخذهم إغماءة جعلتهم كالموتى ، وأقبل محمد السابق فكثف نصير وجوان والبرتنش، وإذا نوير يضع بين يديه صندوقاً ، ففتحه وأخرج منه الرقشوان مكتفأ مغشياً عليه ، ثم أطلق محمد السابق دخاناً آخر فأفاقوا جميعهم من غشيتهم وقال : آنتسنا يا عالم الملة ، أبشر بما يحل بك من المصائب والحن ، ثم هوى عليه ضرباً بالسوط حتى مزق جلده . ورأى نصير والرقشوان ما حل بجوان فأيقنا بالهلاك وقال الرقشوان : إني حموك وأبو زوجتك يا عرقوص فأكرمنى واشفع لى عند شيحة ، فقال شيحة : يا عرقوص ، إن أردت العفو عنه فلا مانع لى ، وإن عاد إلى عناده وعدائه جعلته عبرة بين الروم ، فقال الرقشوان : إني لكم عبد خاضع وإن حصل منى ما تكروهون فافعلوا بى ما تشاعون ، فتركه شيحة وجاء بنصير النمر ، فالتفت إلى عرقوص وقال : اشفع لى عند شيحة وأعتقنى من عذابه على أن أكون عبدك وفى طاعتك ما دمت حياً ، وإن كان قد فرط منى ما يفضبك فأنت أهل لكرم النفس والعفو عند التوبة والندم ، فقال شيحة : إن أحببت العفو عنه أكرمته بالعفو من أجلك ، على شرط أنى إن قابلته فى أى مكان وليس معه تذكرة منك قتلته وإن

كان في مجلس الملك الظاهر ، فقال عرقوص : أسمعت يا نصير ؟ فقال : سمعت وأطعت ، فقال : وعلى شرط أن تكون على دين الإسلام ، فقال : وأنا الآن على دين الإسلام حقاً ، ونطق بالشهادتين فعفا عنه شيحة ، وقال عرقوص للرقشوان : خذ جوان والبرتقش وضعهما في السجن ولا تعتقهما إلا بأمر من جمال الدين شيحة ، فقال : سمعاً وطاعة ، وقال البرتقش : أعطوني جوان ، وسأذهب به إلى بحيرة يفرة على ألا تطأ قدمه مدينة الرخام أبداً . وإن حاول الذهاب إليها قتلته ، وكان البرتقش صادقاً عند شيحة ، فأطلقهما وأخذ البرتقش جوان ومضى به إلى بحيرة يفرة . ثم كتب عرقوص كتاباً إلى وزيره في مدينة الرخام ولي فيه نصيراً مدينة الرخام وجعله فيها الحاكم المطلق الذي لا ينازعه منازع وقال : خذ هذا الكتاب إلى وزيرى وخذ معك زوجاتى الثلاث ليقرن في المدينة مكرمات فقال : سمعاً وطاعة .

ودخل نصير مدينة الرخام ولبث حاكماً فيها ، أما عرقوص فإن شيحة عرض عليه أن يمضى معه إلى الملك الظاهر ليصلح بينهما فقال : لن أعود إلى بلادى حتى أرى أبى معروفاً أماى ، فقال شيحة : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم تركه وانصرف .

أخذ عرقوص سبيله في القفار حتى بعد عن بلاد الروم والعرب ، فوجد نفسه وحيداً في أرض خالية قفراء تحيط به الجبال من كل ناحية ، تفح ناراً من وقدة الحر ، فتضرع إلى الله وقال : يا رب إن ذنبي عظيم ، وإن لم تدركني بلطفك هلكت ، فاغفر لي خطيئتي وارحمني فإنك غفور رحيم ، ثم مشى قدماً وهو لا يدري أين يذهب وسلك طريقاً واسعاً بين بحرين ، فجعل يمشى والطريق يضيق رويداً رويداً حتى كانت سعته ذراعاً ، فضاقت صدره ، وأحس وحشة مفزعة ، فسمع صوتاً من خلفه يقول : شد حيلك يا ولدي ، لطف الله بك فيما قدره عليك ، فالتفت إلى ناحية الصوت فلم يجد أحداً ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، هذا جزء من يعصى والديه .

ثم سار حتى انتهى به الطريق صباحاً إلى برية واسعة ، فوجد أناساً من الروم يلعبون ، ولما رأوه فروا من وجهه هارين ، فأسرع حتى أدرك واحداً منهم وسأله عن هربهم حين رأوه ، فقال : هربنا منك لأنك عفرت من الجن ، فقال : إني إنسان مثلكم ولست بعفريت ، فقال : هذا الطريق ما رأينا فيه إنساناً أبداً ، فلما جئنا منه حسبتك عفرتاً ، فسأله : وما اسم مدينتكم ، ومن ملكها؟ فقال : كان اسمها مدينة الهجير والبر

الطويل ، والآن اسمها مدينة التصاوير ، وملكها عبد الصليب ، فقال :
اذهب إلى إخوانك وأصحابك وبلغهم أنى إنسان ولست بعفريت ، فأسرع
إليهم وبلغهم ما قاله عرقوص فاطمأنوا .

دخل عرقوص المدينة واستأجر غرفة من خان وأقام فيها حتى فرغ
ما معه من المال ، فطرده صاحب الخان وأوى إلى جانب الطريق واتخذة
مقاماً وجعل يقتات من استجداء السابلة ، وكان قد براه الضعف وأنهكه
الهرال .

وأقبل إليه في جوف الليل والناس نيام شيخ وقال له : جنيت على
نفسك بمخالفة أبيك معروف بن حجر الذى مات شهيداً ، ولولا دعاؤه
لك باللطف فيما قدره الله عليك لكنت من المالكين ، فخذ هذه الثمرة
منى وأنا عبد الله المغاورى ، ثم اختفى ، فأكلها عرقوص وأحس العافية
تدب في جسمه ، فحمد الله ورجا عنده الخير ، ولما مضى من الليل
ثلاثه جاءته امرأة وقالت له : تعال معى يا سيدى فلن تجد عندى إلا كل
خير لك ، فسار معها وأدخلته بيتها وأدخلته الحمام فاغتسل ولبس ثياباً
نظيفة من عندها وأحضرت له طعاماً فاخراً فأكل حتى شبع ، ثم سألتها :
من أنت يا سيدتى ؟ فقالت أنا امرأة صاحب الخان الذى طردك ، وجاءنى
شيخ منير الوجه وقال : يا مريم أنت من أهل السعادة فادخلى في دين
الإسلام واذهبي إلى ابني عرقوص في مكانه من الطريق وأكرميهِ فإنه
غريب ولا حول له ولا قوة ، فذهبت إليك وفعلت ما رأيت ، وهأنذا أجدد

إسلامي أمامك ثم نطقت بالشهادتين ، فقال : وجب عليك الآن أن تمتنعى عن زوجك ، فقالت : ما قرب منى أبداً ، ثم أخذته إلى مكانه من الطريق وجلس فيه نهاره ، وظلت على هذه الحال سبع ليال ، وفي اليوم الثامن نادى المنادون فى المدينة وقالوا : يا أهل المدينة ، ادخلوا مساكنكم فإن مريم بنت الملك ذاهبة إلى قصرها فى البستان ، وليحذر كل منكم أن يكون فى طريقها وهى سائرة .

دخل أهل المدينة مساكنهم وأقفرت طرقها من كل غاد ورائح ، وسارت مريم فى موكبها إلى قصرها ، ففرت بعرقوس وكان قابعاً فى مكانه من الطريق ، فجاءته عجوز من جواربها وقالت له : أما سمعت النداء؟ وكيف عصيت الأمر وجلست فى طريق ابنة الملك ؟ ثم ضربته وأوجعته ، ورأت مريم منها ذلك ، فأشفقت عليه وقالت للعجوز : ماذا جنى هذا الرجل الضعيف حتى تضريه ؟ وأوسعها تأنيباً وأوجعها ضرباً ، ثم مضت قدماً فى سبيلها إلى قصرها ، وتبعها عرقوس حتى جلس أمام باب القصر وانتظر ما يفعله القدر ، ورأته من نافذة قصرها فأمرت بإحضاره أمامها ، فلما حضر أمامها نبض قلبها بالميل إليه والعطف عليه ، فأكرمه وأنست إليه ثم سألته : من تكون ؟ ومن أين أنت ؟ وما قصتك ؟ فأخذ يسرد عليها قصته فى عبارات مؤثرة تلهب المشاعر وتهيج العواطف والأحاسيس ، وجاء فى خلال حديثه أنه يدين بالإسلام ، فقالت : ألا تحب أن تعرفنى بدينك هذا ، فجعل يسرد عليها مزاياه وشرائعه ويتلو عليها آيات بينات

من القرآن الكريم ، فامتلا قلبها بحبه وانشرح صدرها له ، وقالت : لقد أحببت الإسلام وأردت أن أتخذه لى ديناً فأدخلنى فيه ، فعلمها النطق بالشهادتين ، واتخذته رئيس الخدم فى قصرها حتى تدبر الأمر للزواج منه عن طريق أبيها .

واتفق أن مات وزير أبيها فجعلت مريم تنهى على عرقوص وتبين لأبيها ذكائه وأصالة رأيه حتى اتخذته وزيراً له ، فوجد منه ما حببه إلى نفسه وعرض عليه أن يزوجه مريم ابنته ، وصارت هذه رغبة فى نفسه ، وتم الزواج وعاش عيشة راضية هنيئة .

وذات يوم قدم سبع الأندلس وزير محمد ملك مراکش ومعه خمسمائة جندى مغربى يطلب الخراج من ملك مدينة الهجير عبد الصليب ، فعسكر أمام المدينة وأرسل إلى عبد الصليب كتاباً يطلب فيه الخراج السنوى ، فلما قرأه الملك أمام عرقوص كتب إليه وقال : قد كنت تأخذ الجزية من هذه المدينة وليس لها حام يحميها ، ولكنها الآن فى حوزة حام لها لا يرضى المدلة بدفع الجزية ، فإما انصرفت معافى فى بدنك وجندك ، وإما جعلت السيف بينى وبينك حكماً ، ثم ناول رسول الوزير الكتاب وأمره أن ينصرف به إلى وزيره ، ولما قرأ الوزير سبع الأندلس الكتاب أرسل رسوله وقال : لن أرجع دون الجزية وليبرز إلى هذا الحامى غداً . وفى الصباح كان عرقوص وسبع الأندلس فى الميدان ونشبت بينهما مباراة تعلقت لها الأنفاس فى الصدور ، وانفجرت عن قبض عرقوص

على سبع الأندلس فقال له : أنت وزير وأنا وزير ، ولا حاجة بنا إلى أن يقتل أحدنا الآخر من أجل مال لا تفيد منه شيئاً فارجع إلى ملكك وبلغه ما حصل ، وإن كان مصراً على طلب الجزية فليحضر هو نفسه وليأخذها بحد السيف ، فوجد سبع الأندلس في قول الوزير وجه الحق ، وانصرف بجنده إلى ملكه وبلغه ما وقع . وزاد عرقوص في نفس عبد الصليب بهذا محبة وجميل تقدير .

أما الملك الظاهر فقد جاءه إسماعيل أبو السباع أخو معروف بن حجر وقال : كان لأخي معروف ابن فأين هو الآن ؟ فحكى له الملك قصة عرقوص وقال : ما رأيته منذ مدة طويلة ، فقال إسماعيل : سأسيح في الأرض مفتشاً عن ابن أخي حتى أجده أو أقف على خبره ومصيره ، فقال الملك : وأنا معك ، وقال إبراهيم وسعد : ونحن معكما .

أناب الملك ابنه السعيد في الملك وخرج هو وإسماعيل وإبراهيم وسعد يفتشون عن عرقوص ، وجدوا في المسير يقطعون الفيافي والقفار حتى أشرفوا على جبل مرتفع فصعد فيه إبراهيم حتى كان فوق ظهره ورأى من خلفه جنوداً مسلمين فنزل إليهم وسألهم عن أمرهم فقالوا : نحن جنود ملكنا محمد صاحب مراکش وقد رحل بنا للجهاد ، فقال وأين خيمة ملككم ؟ فدلوه عليها ، فذهب إليه وسلم عليه وقال : إن معي ثلاثة فرسان فهل تقبلنا مجاهدين معك ونحن مسلمون ، فقال : أقبلكم إن كنتم صادقين ، فقال : سترى منا جهاداً لم تره في بطل من أبطال جندك

والله شهيد على ما أقول ، فقال : اذهب واثنى بهم ، فرجع إبراهيم إلى الملك ومن معه وأخبره بما حصل ثم قال : نحن نسير في الجيش مؤتسرين به حتى نكون في العراق ، ونحن بعد ذلك وما نريد ، فذهبوا معه إلى ملك المغرب ودخلوا عليه ، وكان الملك الظاهر ذا هيئة وقار فسأل محمداً صاحب المغرب وقال : ولأى شيء رحلت بجنودك ، فحكى له قصة الجزية وما وقع بين عرقوص ووزيره ، وأن ملك مدينة المهجير حرضه وزيه عرقوص على أن يمتنع عن دفعها إلا بحد السيف ، فعرف الملك وأصحابه أين عرقوص فاطمأنوا وكنموا ما عرفوا في نفوسهم ، وصحبوا الجيش حتى عسكر أمام مدينة عبد الصليب التي فيها وزيره عرقوص ، وأشار الملك الظاهر إلى أن يكتب إلى عبد الصليب كتاباً بيده وخطه على لسان محمد صاحب مراکش فقال له : ذلك أسلم طريق وأحسنه حتى نتيح له فرصة حقن الدماء ، فكتب الظاهر بيده : من محمد صاحب مراکش إلى عبد الصليب صاحب مدينة هجير ، السلام على من اتبع الهدى : أما بعد فأرسل إلينا حامى مدينتك الذي حضك على منع الجزية لتعرف له بالسيف قدر نفسه حتى لا يبغى على غيره ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، ثم بعث إبراهيم بكتابه هذا بعد أن ختمه بخاتمه . ناول إبراهيم عبد الصليب الكتاب فقرأه ثم دفعه إلى عرقوص وكان جالساً معه وعرف إبراهيم وأطرق برأسه فلما قرأ الكتاب عرف خط الملك الظاهر ففرق في حيرة . ودار بخلده : هذا إبراهيم نفسه ، وهذا خط الملك الظاهر بيده ، فكيف يكون على لسان محمد صاحب مراکش !؟

وكيف يكون رسوله إبراهيم ؟ ! ثم قال : غداً يأتيكم حامى المدينة ويبارز ملككم ، والحكم للسيف ، وكتب عرقوص إلى الملك بهذا وأخذه إبراهيم ورجع ، وقد عرف عرقوصاً أيضاً ولكنه كتم معرفته .

قرأ محمد صاحب مراکش الكتاب وبات على نية القتال ، وعرف إبراهيم الملك الظاهر أن عرقوصاً هو الذى كتب الكتاب وأنه لا بد أن يكون قد عرفني كما عرفته وأخفي تلك المعرفة في نفسه كما أخفيها في نفسي ، فقال الملك الظاهر : لن يبرز إليه في الميدان غداً أحد غيري ولن يكون إلا الخير . وفي الصباح كان عرقوص في الميدان ، فجاءه الملك الظاهر على جواده فما كاد يقرب منه حتى سمع إبراهيم يقول : يا عرقوص ، أمامك الملك الظاهر ملك العرب ، فتزل عرقوص عن جواده وأكب على قدمه يقبلها ، وهوى الملك على رأسه فقبلها وقال له : اركب جوادك يا عرقوص وامض إلى أهلك وقومك العرب ، فضى مسرعاً إلى جيش محمد صاحب مراکش واجتمع بإبراهيم وسعد وإسماعيل معه .

ثم رجع الملك الظاهر على أثره ، وساد الفريقان سكون شامل قطعه قلوب عبد الصليب إلى الملك الظاهر فحياه وجلس ثم قال : إن عرقوصاً زوج ابنتي ووزيرى وقد أسلمت وآمنت وأحب أن أكون من رجالك وخدمك ، فسموه عبد الله ، وعرف محمد صاحب مراکش أن هذا الملك الظاهر فأقبل إليه وقبل يديه واعتذر له أن لم يكن يعرفه ، وأقام الملك الظاهر عبد الله على مدينة هجير وساد السلام وزال الخصام وأصر

الملك محمد أن يسير الملك الظاهر معه إلى مراکش فلبى دعوته، ورحل معهم عرقوص بعد أن وصى عبد الله أن يحافظ على زوجته مريم ابنته حتى يأتيه ويأخذها، ثم ودعهم عبد الله وارتحلوا إلى مراکش، وبعد أن مكثوا بها أياماً ضيوفاً مكرمين ارتحل الملك ومعه أصحابه وعرقوص إلى مدينة الرخام فاستقبلهم نصير النمر ووزيره أروع استقبال ، ثم لبثوا في المدينة أياماً وترك عرقوصاً في مدينته ورجع إلى مصر وأقام مطمئناً هادئ البال لا يعكر صفوه حادث .

وذات يوم جاءه وزير ملك برشلونة وناوله كتاباً وجد فيه :

من سيرون الراهب والملك مرتين الأبرش إلى ملك المسلمين ، اعلم أن حامل كتابنا هذا وزيرنا مرين ، ومعه لكم صندوق من المال ، به ألف ومائتا كيس ، وكل كيس به ألف دينار ذهباً ، وذلك لتسمح لنا بدخول كنيسة مريم التي بالشام ، والإقامة بها ثمانية أيام من يوم الأحد إلى يوم الأحد الذي يليه ، وإذا لم تسمح لنا بذلك فقد حكمت فيما تملك ، وما لنا عليك من سبيل ، ولك الشكر على أية حال ، فسمح لهم بما طلبوا على أن يكون عددهم أربعين ، وأعطى مرين كتاباً بذلك ، فأخذه وانصرف . وعلم الوزير شاهين بعد سفر مرين أن الملك سمح لهم بدخول الكنيسة فقال له : لقد طلب الروم من جميع الملوك الذين تقدموك دخول الكنيسة فاسمحوا لهم به ، ولا قبلوا أموالهم ، فقال : ليتني كنت أعرف ذلك ، ولكني لا أرى ضرراً فيه . وما هي إلا زيارة لمبعد .

وذات يوم جاء غلام إلى الملك الظاهر وقال له : لقد رأيت حلمًا ،
فجئت لأقصه عليك ، فقال الملك : اقصص علينا رؤياك .
قال : رأيت في المنام رجلا جاءني وقال : أنا الصالح أيوب ، فإذا
استيقظت من منامك فاذهب إلى الملك الظاهر وقل له : إنك سمحت للروم
بزيارة الكنيسة والمقام فيها ثمانية أيام وقد أخذوا منها السيف والقلنسوة ،
ثم اختفى ، وانتبهت من نومي فلما جاء الصباح قدمت إليك وبلغتك .
فلبت الملك يفكر في هذه الرؤيا وفي السيف والقلنسوة حتى جاءه
شيحة فقصها عليه فقال : أما القلنسوة فإذا لبسها إنسان اختفى عن الأعين
وأما السيف فإنه حاد قاطع ، وقد مكنتهم من أخذهما ويستطيع أحدهم
أن يلبس القلنسوة ويمسك السيف ويقتل من يشاء منكم دون أن يراه
أحد . فقال الملك : ذلك قضاء الله ونسأله اللطف فيه ، وهو ولينا وحسبنا .
وفي يوم من الأيام جاءه كتاب من صاحب الإسكندرية يوضح
بالشكوى من أنه ظهر في المدينة سيف يقتل دون أن يراه أحد ، فبينما
ترى الشخص واقفاً أو ماشياً إذا رأسه يسقط على الأرض دون أن ترى
أحداً ضربه ، وطلب من الملك أن يتدارك هذه الحالة وإلا كانت طامة
كبرى على الأهلين . فقال إبراهيم : ما أظنه إلا سيرون الراهب ، وقد

جاء إسكندرية بالسيف والقلنسوة، اللذين أخذهما الروم من الكنيسة .
 فقال الملك : وجب على أن أذهب إلى الإسكندرية وهناك يفعل
 الله ما يشاء ، فقال عثمان : وإني ذاهب معك يا أشقر ، وأصر إبراهيم
 وسعد على أن يصحباها إليها . وجاءهم إذ ذاك رجل فداوى اسمه عمار
 القدموس صاحب قلعة القدموس ، فقال : جئتك سائلا عن شيحة راغباً في
 ملاقاته لأعترف له بالطاعة والولاء ، فقال : وما سبب ذلك ؟ فقال :
 كنت أجوب بلاد الروم فسمعت طفلاً يبكي ، فجعلت أمه تسكته وتخوفه
 بالمسيح وبالبطريق وبمريم والصليب فلا يعبأ الطفل ولا يسكت عن
 بكائه ، فقالت له : إن لم تسكت أحضرت لك شيحة ، فسكت في الحال ،
 وانزوى في صدرها خوفاً ورعباً ، فقلت في نفسي إذا كان الطفل يخاف
 شيحة ويخشاه أفلا نطيعه نحن ونخشاه؟ ولهذا جئت باحثاً عنه لأكتب
 اسمه على سيفي اعترافاً بالولاء له ، فقال الملك : إنه غير حاضر الآن ،
 وإني ذاهب الآن إلى الإسكندرية لأنظر ما يفعله الروم فيها من المكائد ،
 فقال : خذني معك فعسى أن أجد شيحة ، وإن جاءني مني مت شهيداً
 وهذا ما أتمناه لأحظى بالسعادة في الآخرة ، فقال الملك : توكل على الله .
 وساروا جميعهم حتى كانوا في الإسكندرية ، فوجدوها خالية من
 الغادى والرائح يخيم عليها السكون كأنها مقبرة من المقابر ، فوقفوا في شارع
 من شوارعها يتساءلون عن هذه الحال ، وإذا برجل يقول لهم من وراء
 باب منزله : أيها الناس ، إن كنتم غرباء فاختموا في مكان وإلا طارت

رموسكم من فوق أجسامكم ، فقال إبراهيم : أسمعت أيها الملك ما قاله الرجل ؟ فقال الملك : لا يقع إلا ما أَرَادَهُ اللهُ ، وما انتهى من قوله هذا حتى رأوا رأس عمار القدموس طار من فوق جسمه ، فقال عثمان : علام الانتظار ؟ هيا إلى الخبأ ، فدخلوا خاناً وأغلق صاحبه بابه ، ولبثوا في الخان يومين كاملين وهم لا يهتدون إلى رأى في هذه الحال الأسيفة المفزعة ، ثم بلغهم أن القتل قد زال وانقطع فخرجوا من الخان ومضوا إلى ديوان الحكم وأقاموا فيه ، وبعد يومين جاءهم أن القتل الخفى ظهر في مصر ،^(١) وأن أهلها يستغيثون بالملك ، فرحلوا إليها ومنذ دخلوها وقفت حركة القتل ، فلبث الملك يرتقب ما أَرَادَهُ اللهُ ، وحاول صاحب السيف أن يقتل الملك في ديوانه سبعة أيام متواليات ، ولكن الله كان يشعره به فيتوارى ويزوغ من طريقه ، فقال الوزير : يجب ألا تجلس في الديوان ولا تدخله لأن القاتل جاء في طلبك ولا يقصد غيرك ، وتقيم في البيت بعيداً عن متناول يد هذا القاتل الأثيم حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ، فامتنع عن الحضور إلى الديوان ثلاثة أيام ، وعرف هذا سيرون الراهب الذي يلبس القلنسوة ويطلب الملك ليقته ، فذهب إلى دير في مصر العتيقة وأقام فيه حتى يفهم الملك أن القتل قد بطل فيأمن على نفسه ويحضر إلى الديوان كعادته وحينئذ يذهب إليه ويقتله ، ويسلم رأسه إلى جوان ، ولما سُمَّ الملك من انقطاعه عن الديوان دعا عثمان إليه فلما حضر قال له : ماذا ترى في هذه الحال ؟ تعال معي لترور

(١) يقصد القاهرة .

السيدة نفسية في قبرها ، فإن لها نفحات مباركات ، والله خالق كل شيء وهو على كل شيء قدير : فركب جواده وأخذ عثمان معه إلى قبرها وجلس إليه وقرأ القرآن وأخذته سنة من النوم فرأى السيدة نفيسة تقول له : إذا استيقظت من منامك هذا فامض قدماً إلى باب الفتوح وستجد هناك خياطاً اسمه بيبرس وأصله من طرابلس ، فإذا كنت عنده فافعل ما يأمرك به فإن قضاء الله نافذ فيه . ثم استيقظ وخرج من مسجد السيدة نفيسة وركب جواده فقال عثمان : أتذهب إلى الخياط الذي عرفتك به السيدة يا أشقر؟ فقال : نعم يا عثمان ، ثم سار حتى كان أمام دكانه فسلم عليه ، فرد الخياط عليه السلام وقال له : اقعدي يا سيدي حتى أقضي حقوق الناس ، ثم أحضر أحد جيرانه وأخرج له الملابس وقال هذا لفلان وهذا لفلان . . . فإذا حضراً فأعط كل ذي حق حقه ، لأنني مسافر إلى أمر دعيت إليه ، وإذا حضرت زوجتي فأعطها مفتاح الدكان وهذه التذكرة لتذهب بها إلى الملك الظاهر في ديوانه ، لأن عنده أجرة خياطة ، ولا يعطيها إلا بهذه التذكرة ، ثم سحب الملك ورجع به إلى الديوان ، وقال له : ادخلني حجرة الجلوس ، ولا يكن معي فيها أحد غيرك ، ففعل الملك ما أمر به وكانا معاً في حجرة الجلوس وأغلقت عليهما ، فطلب الخياط ملابس السلطان فأحضرها بين يديه ثم لبسها الخياط ووضع على رأسه عمامة كعمامته ، وطلب مرآة فأحضرها ونظر فيها فوجد نفسه كأنه الملك الظاهر لا يكاد يختلف عنه في شيء ، وإذا رآه أحد لا يظن أنه

غير الملك الظاهر ، ثم قال للملك : قم الآن إلى مكان حنى ، واستخف فيه واحذر أن يعلم بك أحد غير الله، وخذ معك في هذا المكان ما يكفيك من الطعام والشراب ثلاثة أشهر حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وبعد ذلك تخرج كعادتك وتقوم بشئونك وشئون دولتك، والله يفعل ما يشاء ، له الحكم وإليه المصير . فقال : سمعاً وطاعة ، ونهض إلى غرفة كانت معدة من قبل للمقام فيها ، فهي مجهزة من الداخل بمرحاض ومكان للصلاة والعبادة ومكان للنوم ، فأدخل فيها الطعام والشراب ، وجعل لها أقفالاً من الداخل ، ثم دخلها وأغلقها . كل أولئك كان سرّاً لا يعلمه أحد . وكان ذلك ليلاً ، وفي الصباح فيح باب حجرة الجلوس ودخل عليه رجال الدولة فكان الملك الظاهر ولم يرتب في ذلك أحد ، وجاءته زوجته في هذا اليوم ووقفت بالباب حتى يؤذن لها بالدخول . ولما دخلت عليه ناولته التذكرة لتأخذ أجره الحياطة التي عند الملك لزوجها ، فنظر فيها وجعل لها مرتباً شهرياً مدة الحياة من بيت المال ، وسميت في سجل المعونة « أم العيال » ، ثم رجعت وهي تشكر للملك الظاهر عطفه على الفقراء وجميل إحسانه ، وعكفت في منزلها تنتظر عودة زوجها من سفره ، ثم ركب إلى الجمالية ، وأمر رجال الدولة أن يبنوا له مسجداً فيها في أقصر زمن ، فجمعوا له المهندسين والبنائين والعمال وأتموه في ستين يوماً ، وبعد أن أتموا بناء أمرهم أن يدفنوه فيه بعد موته .

ثم أمر أن يفتح الديوان ويجتمع المجلس للحكم والنظر في أمور الدولة

فاجتمع رجال الدولة . وجلس هو على كرسي الملك ، وأخذوا يتشاورون فيما عرض عليهم من الأمور وإذا سيرون الراهب قد دخل المجلس ولم يره أحد من الجنود والحرس ورجال الدولة ، وإذا هم يرون رأس الملك قد طار ، وأن الضارب اختطف الرأس وخرج به ، فهاج المجلس وماج وذاع نبا قتل الملك الظاهر وشمل الحزن عليه جميع الناس قريتهم وبعيدهم قاصيهم ودانيهم ، ثم غسلوه ودفنوه في مسجده الذي بناه بالجمالية ، واجتمع أبناؤه ورجال الدولة واختاروا ابنه السعيد ملكاً عليهم ، وأصر على إحضار رأس أبيه الظاهر من برشلونة وأن يثار لأبيه ممن قتله .

وكتب إبراهيم إلى الولاة وبنى إسماعيل وعرقوص ليجمعوا جيوشهم بالشام لمعونة الملك السعيد ، ولما تم جمعهم رحلوا إلى برشلونة وعسكروا أمامها .

أما سيرون الراهب فإنه رجع إلى الملك مرتين وجوان يحمل رأس الملك الظاهر ، ففرحاً فرحاً عظيماً وقال مرتين : ما رأيتك يا جوان بعد هذا ؟ فقال : أصبح العرب أوهن من خيوط العنكبوت ، فاكتب إلى ملوك الروم ليأتوك بجيوشهم فإذا اجتمعوا غزت العرب وملكت أرضهم وجلست على عرش ملكهم ، فقال : اكتب إليهم يا جوان بما أشرت ، فجعل يكتب ومرتين يحتم بخاتمه ، ثم بعث بها الرسل إلى ملوك الروم ، وبعد أيام كانت برشلونة غاصة بجيوش لا حصر لها ، وحضر السعيد بن الظاهر بجيوشه فوجد برشلونة كأنها في يوم الحشر المجموع له الناس . فاعتمد على الله

وعسكر أمام المدينة .

عرف الملك الظاهر أن الجيوش قد رحلت إلى برشلونة لإحضار رأسه والثأر له من قاتله فطلع من حجراته خفية ورجع ومعه المملوك ربحان وأغلق الباب ، ثم قال له : إن أنت أذعت أمر وجودي قطعت رأسك ، ففرح المملوك بملكه وقال : سمعاً وطاعة ، ثم أمره أن يأتيه بملابس درويش عجمي سرّاً ، فلما جاءه بها لبسها وخرج متنكراً فيها مستخفياً ، وصافر إلى برشلونة ، وهناك نزع عنه تلك الملابس وتنكر في ثياب تاجر من تجار المدينة ودخلها وأخذ يجوس خلالها ، وبينما هو سائر في طرقاتها سمع رجلاً يقول لصاحبه إنى أريد أن أدخل قصر مرتين الملك لأسرق شيئاً من ماله بدلا من خنازيري التي غصبتها منى ، فقال له : إن أردت أن تلخه وأنت آمن فاذهب إليه بعد الغروب ، وستجد جميع الرجال والخدم غرق في غشية من السكر لا يعي أحد منهم شيئاً إلا البطريق مرقبون الذى يعلم صفية بنت الملك مرتين الأبرش ، فعزم الملك على أن يدخله في ذلك الوقت .

دخل الملك الظاهر قصر مرتين الملك وجعل يجوس خلاله حتى سمع البطريق مرقبون يقول : يا صفية ، يقرب الروم القرابين لتدفع عنهم كل غارة ، وأم قويتق قبل أن تلد ابنها قويتقاً كان اسمها قويتقة ، وأبو فصادة قبل أن يلد ابنه فصادة كان اسمه فصاد . هل حفظت ؟ فقالت : نعم ، فقال : أيهما أعظم عندك مرتين أم سيرون الراهب ؟ فقالت : يا أبانا ، مرتين

صاحب الملك ، وسيرون خادم له ، فقال : ولكن سيرون الراهب دخل بلاد العرب وأحضر من كنيسة مريم السيف والقلنسوة وقتل الظاهر ملكهم ، فقالت صفية : لم يُقتل ملك العرب الظاهر ، ولكن الذى قتل رجل يشبهه ، وسيأتى الملك الظاهر مدينة برشلونة ويسمع من فتاة فيها كلاماً ثم يخرج منها إلى جزيرة التلاحمة ، ويلتقى بالطريق صاحب بيت لحم فيدله على بركة بجانب الدير ، ويخرج منها خاتم الكشف ، فيأخذه ويحمله به إلى مدينة برشلونة ، ويقتل سيرون الراهب ومرتين الأبرش أبى ، ويستولى على جميع بلاده ، وستزوجنى أحد أبناء العرب اسمه محمد ، وربما حكيت لك هذا والمملك الظاهر بسمعى ، فغضب البطريق من قولها وصفحها على وجهها وحذرهما أن تحكى ما قالت لأحد .

سمع الملك الظاهر قولها فخرج من برشلونة مسرعاً ومضى قدماً حتى كان فى جزيرة التلاحمة ثم ذهب إلى الدير فطرق بابه ، فجاءه البطريق وفتح الباب وقال : أهلاً بملك العرب ، فاندحش الظاهر وقال : وكيف عرفت أنى ملك العرب؟ فقال : عرفنى سيدى الخضر وقال لى يا لفلفون سيأتيك الملك الظاهر غداً فأدخله الدير وبلغه حاجته التى جاء من أجلها ، واذهب به إلى البطريق الكبير وقل له : هذا الملك الظاهر الذى بشرك به أستاذك ، فبلغه مأربه لتكون من الفائزين .

فاطمأن الملك الظاهر وسار مع لفلفون إلى البطريق الكبير وقال : يا أبانا هذا الملك الذى بشرك به أستاذك ، فقال : أهلاً وسهلاً ، ثم أمر

للفلقون أن يأتيه بمطيته فجاءه بها وركبها وأخذ معه الملك الظاهر ولفلقون
 وخرج إلى بركة بجانب الدير . وأشار إلى مكان في شاطئها وقال :
 احفر هنا يا ملك العرب فحفر حتى عثر على أربعة أحجار ، فقال له :
 أخرجها فأخرجها الملك ووضعها أمامه ، فأمره أن يلقى بواحد منها في البركة
 فرماه فيها ففار ماؤها ، وأمره أن يلقى فيها الحجر الثاني فألقاه فزاد فورانه ،
 فأمره أن يرمى الثالث فيها فرماه فنقص ماؤها ، ثم قال له : ألق الحجر
 الرابع بشدة ، فألقاه فيها بقوة ففاض ماؤها ، وجفت أرضها وبان فيها
 مغارة فقال البطريق : ادخل هذه المغارة ، وستجد فيها كاتريون
 الحكيم نائماً على جنبه الأيمن ، فاقرأ له الفاتحة ، وادع له دعوة طيبة
 وسيمد إليك يده اليمنى ، فخذ الخاتم الفضي من خنصره ثم اقرأ له الفاتحة
 وارجع إلينا بظهرك ، فلما فعل ما أمره به البطريق وأخذ الخاتم قال له :
 توكل على الله وارجع إلى مصر من ميناء السويدية ، فإذا كنت فيها فاركب
 جوادك والحق بجيشك فإن نصره موقوف على وجودك معه ، فشكره الملك
 وصار حتى وصل ميناء السويدية . وكان عبد الله المغاوري ينتظره ، فقال له :
 يا ظاهر ، تعال عندي في هذا المركب ، فذهب إليه وركب في مركبه ،
 وقال عبد الله : باسم الله مجراها ومرساها ، وما هي إلا لحة الطرف حتى كان
 في ميناء بلاق ،

فخرج إلى المدينة بعد أن ودعه عبد الله المغاوري وقال له : هات
 جوادك فإن الله قرن النصر بعنانه ، ولما وصل إلى قلعة الجبل أمر عثمان أن

يأتيه بجواده، فقال: الجواد معد لركوبك فامتطاه، وأخذ طريقه إلى الشام .
 ومن هناك سار إلى برشلونة، وعثمان يتبعه كأنه ظله، وكان إبراهيم قائماً على
 حماية خيمة الملك محمد السعيد ابن الملك الظاهر ، فلما رآه قادماً إليه
 وعثمان من ورائه اندهش وقال : قف مكانك ، من أنت ؟ فقال :
 أنسيتني يا إبراهيم ؟ ! أنا الملك الظاهر ، فقال : الملك الظاهر قتل في
 ديوانه ، وهذا رأسه معلق على سور برشلونة ، وقد جئنا للأخذ بثأره ،
 وتخليص الرأس من أيدي الروم المعتدين ، فقال : ذلك ما بدا لكم
 وللروم ، والله في خلقه شئون ، وقال عثمان : هات يا إبراهيم ابن الملك ومن
 معه من الولاة لاستقبال الأشقر ، واترك هذا الجدل إلى وقت آخر ،
 فذهب إبراهيم وأذاع بين الجيش نبأ قدوم الملك الظاهر ، فخف إليه
 ابنه والولاة وأطلقت المدافع ودقت الطبول وعزفت موسيقى الفرع ،
 وهبت في الجيش ضجة ابتهاج وسرور .

وأحس هذا جوان فقال للبرتقش : إن العرب في حزن أليم لقتل
 ملكهم الظاهر ، ولكنهم فرحوا فجأة ، فامض إليهم وجئني بنجبرهم ،
 فغاب البرتقش إلى نصف الليل ثم رجع إلى جوان وقال له : بشراك
 يا جوان ، فقال : بشرت بالخير يا برتقش فماذا أتيت ؟ فقال :
 قدم إلى جيش العرب ملكهم الظاهر ، وما فرحهم الذي شعرت
 به إلا بقدمه ، فقال : ولكن سيرون الراهب قتله في ديوانه
 وجاءنا برأسه ، فقال : ومن الذي يمشى خلف العربة التي تحمل جثتك

بعد أن يقطعها شريحة ويمزقها كما حدثنا كتاب اليونان ؟ فإن أظعتني فقم لهرب قبل أن تذوق العذاب بالسوط من يد شريحة كما ذقته من قبل ، فقال جوان: اسكت فما أشأم خبرك، ثم نهض إلى سيرون الراهب ومرتين الأبرش وقال لسيرون : أتأتينا برأس مملوك وتدعى أنه رأس الملك الظاهر ، إن الظاهر في جيشه الآن وهم فرحون بقدومه ، فإذا فعل ؟ فقال سيرون ، لقد قتلت الظاهر وهو جالس على كرسي ملكه في ديوانه وجشكم برأسه ، وقد يكون المسيح قد أحياه ورد إليه رأسه ، فقال جوان: لا يزال الرأس الذي أتيتنا به معلقاً على سور المدينة ، ولم يأخذه المسيح ولا غيره ، فقال سيرون : إذا كنت قد قتلت غيره خطأ فإني سأتيكم برأسه غداً .

بات سيرون على أحر من الجمر، وبيت في نفسه أنه قاتله لا محالة؛ وفي الصباح لبس القلنسوة وحمل السيف ومضى لا يراه أحد ، ودخل على الملك وهو جالس في خيمته بين أمرائه ووزرائه ، فلما رآه الملك قال : أمسكوه وفزع إلى سيفه وهم به ليقتله فخاف سيرون وفر هارباً ، ودخل على جوان ترتعد فرائصه ، فسأله : ماذا بك يا سيرون ؟ فقال: ما أظن إلا أن الظاهر ملك العرب حصل على خاتم الكشف فلقد رآني وهم أن يقتلني ، ولولا أنني لذت بالفرار لكنت من المهالكين ، فقال جوان : خدعك العرب وسخروا منك وما أظنك قادراً على أن تكيد لهم ، فقال سيرون : لن أسكت عنهم حتى أنال منهم مأربى ، ثم لجأ إلى الطلاسم والسحر حتى كان في صورة شريحة وهيئته ، ومضى إلى الظاهر بعد

العشاء، فاستقبله الملك على أنه جمال الدين شيحة ولما جلس سأله عن غيبته فجعل يرضى رغبته بزخرف من قوله ، ثم قص عليه الملك قصة سيرون وما فعله وكيف حصل هو على خاتم الكشف وأن سيرون هرب منه بعد أن رآه وهم بقتله ، فقال سيرون : والآن معك الخاتم؟ فقال : نعم ، ها هوذا ، ثم نزع من يده وتناوله إياه ، فأخذه ووقف قائلاً : إن رأيت وجهي من غير رأس سيرون الراهب فما أنا جمال الدين شيحة . ثم تركه وخرج .

ودخل على أثر خروج سيرون جمال الدين شيحة فقال الملك : لماذا رجعت وليس في يدك ما وعدتني به ، فقال : ما وعدتك بشيء فقال : ألم تكن عندي هذه الساعة ، وأخذت خاتم الكشف مني وقلت لي : لن ترى وجهي دون أن يكون رأس سيرون الراهب في يدي؟ فقال شيحة : أخبرني بقصتك ، فقال : أنت كنت عندي الآن ، فقال : فهمني حقيقة الأمر ، فقال الملك : لا أدري الآن هل أنا في يقطعة أو في منام ؟ فأدرك شيحة الواقع ونهض قائماً وخرج قاصداً المكان الذي فيه جوان ، فدخله قبل أن يعود إليه سيرون ، ووجد البرتقش داخل المرحاض فبنجه فيه ونزع عنه ثيابه ولبسها وجعل نفسه على صورته ، ثم دخل على جوان ، فقال يا برتقش أشعر الآن برعب وخوف ، فقال شيحة : إن سيرون الراهب أتى بجاتم الكشف من الملك الظاهر ، فقال جوان : بلغنا مأربنا من العرب ، وإذا سيرون داخل عليه فقال : خذ يا جوان

خاتم الكشف الذى كان مع الملك الظاهر ، فخطفه شيحة وقال : بهذا الخاتم كان الظاهر يراك ، فقال : نعم ، وقد احتلت عليه وأخذته منه ، فقال شيحة : اترك هذا الخاتم عند جوان ، واذهب الآن إلى الظاهر واقتله ، فإذا رجعت برأسه فخذ الخاتم من جوان ، فقال سيرون : لن أترك الخاتم عند أحد ولن أخطو خطوة من دونه ، فقال شيحة كما تريد ثم ناوله الخاتم - وكان شيحة فى هذه اللحظة قد بدل به خاتماً آخر على صورته - وقام سيرون ومعه الخاتم المزيف ولبس القلنسوة وحمل السيف ومضى إلى الظاهر ليقتله ، وسبقه شيحة ووقف بباب خيمة الملك ، فلما جاء سيرون وخطا خطوته إلى الخيمة ضربه شيحة بالسيف من خلفه وأطاح رأسه ، ثم أخذ منه القلنسوة والسيف ، وقال للملك : هذه الفلنسوة ، وهذا السيف ، وهذا الخاتم ، وهذا رأس سيرون الراهب ، ففرح الملك وأمر أن يعلق رأس سيرون فى مكان مرتفع ليراه الروم ويظلم طمعهم فى العرب والظهور عليهم .

قام جوان إلى المرحاض ليقتضى حاجته ، فلما فتح الباب وجد البرتقش منكباً على وجهه فيه وهو فى إغماء عميقة ، فأعطاه شيئاً أيقظه ثم قال : لقد نزلت خلف سيرون الراهب ، فإذا جرى حتى أراك على هذه الحالة ؟ فقال البرتقش : ما رأيت سيرون الراهب ، ولكنى دخلت المرحاض ، وما شعرت بشيء حتى أيقظتنى ، ولا بد أن يكون هذا من كيد شيحة ، فقال جوان : لا بد أن يكون هو الذى كان عندى ونزل خلف

سيرون ، وهو ماض إلى الظاهر ليقبله ، فاذهب إلى جيش العرب واعرف
لى خبير سيرون ، فإني فى شدة الخوف عليه .

فذهب البرتقش إلى جيش العرب ووجد سيرون غارقاً فى دمه ورأسه
على رمح فى مكان مرتفع أمام خيمة الملك الظاهر ، فعاد إلى جوان
مسرعاً وقال : إن الملك الظاهر جالس على كرسيه فى خيمته ، وأما سيرون
الراهب فقد قتل ووضع رأسه على رمح أمام خيمة الملك . وإن أعطنى
لذناً بالهرب .

وسمعا إذ ذاك ضجة هائلة تدوى فى الفضاء ، وكانت هذه الضجة
لأن شيحة أمر جيش العرب بالهجوم على الروم فاشتعلت نيران الحرب
وجعلت تأكل الروم حتى طلع الفجر ، وأحس الروم عجزهم وظلم ،
وكان شيحة قد دخل المدينة وأولاده محمد ونور ونوير ، فبنجوا مرتين
الأبرش وجوان والبرتقش ، ثم دخل الظاهر المدينة وجنوده واستولوا عليها
فى ضحوة النهار وجلس على عرش مرتين ، فجاءه شيحة ووضع بين
يديه مرتين الأبرش وجوان والبرتقش مكتفين وفى غشية ثقيلة من البنج ثم
أيقظهم ، فأمر الملك بقطع رأس مرتين فقتله إبراهيم أما جوان فإن شيحة
أثر أن يضربه بالسوط وتركه ليموت الموتة التى قدرت له .

وكان لمرتين الأبرش وزير اسمه مزين وكان قد أسلم وأخفى إسلامه
فدخل على الملك وعرفهم أنه دخل فى الإسلام منذ سنوات ولكنه كان
يخفى إسلامه خوفاً من الروم ، فقال الملك إذا أردت أن ترحل إلى مصر

ومعك من أسلم من الروم فلإني أتخذك أميراً تقضى بقية حياتك معنا .

وأخذ العرب السبايا وفيهن صفية بنت مرتين وارتحلوا إلى مصر .
أما عرقوص فإنه ذهب إلى مدينة الرخام .

ولما استقر بهم المقام في مصر زوج الملك ابنه محمد السعيد صفية بنت مرتين الأبرش بعد أن دخلت في دين الإسلام . ثم أحضر شيخة الخاتم والسيف والقلنسوة للملك فقال : يا شيخة : لا بد أن نلطف هذه الأشياء حتى لا تقع في يد عدو للعرب ، فقال : افعل ما شئت فأتلفها الملك .

ثم أخذوا يتبادلون الحديث في كثير من الشئون إلى أن قال شيخة : جاء في الأثر أن أحد الصحابة قال : بينما نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحدثنا ونحدثه وإذا بطارق يطرق الباب ، فقال الرسول : أتدرون من الطارق ؟ فقلنا الله أعلم ورسوله ، فقال : إنه إبليس اللعين ، فقال عمر بن الخطاب : ائذن لي يا رسول الله أن أذهب إليه وأقتله ، فقال : أما علمت يا عمر أنه من المنظرين إلى يوم الدين ؟ افتحوا له الباب ، فإنه مأمور بالحجىء إلينا ، فقام أحد الصحابة وفتح له الباب فإذا هو رجل أعور غليظ الشفتين ضخم الرأس قصير القامة فقال : السلام عليكم ، فقال الرسول وعلى المؤمنين السلام ، لأى شىء جئتنا يا عدو الله ورسوله ويا عدو نفسه ؟ فقال إبليس : يا محمد أنت معصوم منى ،

فتبسم الرسول وقال: وما تقول في أصحابي هؤلاء؟ فقال: أما أبو بكر فما كان يطيعني في الجاهلية حتى يطيعني في الإسلام ، وأما عمر بن الخطاب فإني شارد منه ، وأما عثمان فإني أستحي منه، وأما علي فليتني أسلم من سيفه ، وأما سائر أصحابك فقد تركتهم لأنني علمت سرائرهم. وما جئتكم إلا كرهًا، فقد أتاني ملك وقال : إن الله يأمرك أن تذهب إلى محمد وتخلص له النصيح فيما يسألك عنه ، فقال الرسول : من أبغض الناس إليك ؟ فقال : يا محمد أنت أبغض الخلق إلى ، لأنك حين ظهرت بغضت الخلق في ، فقال الرسول : ومن تبغضه بعدى؟ فقال : أصحابك ، فقال : ثم من ؟ فقال إبليس : الشاب الثائب الذي لا يفتأ يجدد توبته كل يوم ، فقال : ثم من ؟ فقال : السلطان العادل ، لأن عدل يوم واحد يعدل عبادة سبعين سنة ، فقال : ثم من ؟ فقال : فقير صابر ، فقال : ثم من ؟ فقال : غني شاکر : فقال : ثم من ؟ فقال : عالم ورع ، فقال : وكيف حالك إذا سمعتم يقرعون القرآن ؟ فقال : أذوب كما يذوب الرصاص في النار ، فقال : وكيف حالك إذا رأيت أحدهم يتصدق ويعطى الزكاة ؟ فقال : كأنه يشقني بالسيف نصفين ، لأن المتصدق يبارك له الله في ماله وفي عمره ويستجيب دعاءه ، ويدفع عنه البلاء ، ويحشره في ظل ظليل من صدقته يوم القيامة فتبسم رسول الله ، وقال : لله في خلقه شئون ، وهو الذي بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير .

كان من الفداويين بطل شجاع اسمه نجم الدين الغيور وكان قد
 ساح في الأرض مفتشاً عن معروف ، ولما أعياه البحث ولم يجده رجع إلى
 القلاع والحصون . ففرح أهله بقدومه بعد غيبته الطويلة ، وهنأه الناس
 بسلامته وعودته ، وقال لهم : ضل سعي في العثور على معروف ،
 وجبت كثيراً من البلاد والقفار بقدر ما هيأت لي طاقتي ورجعت بعد
 هذه الغيبة الشاقة بخفي حنين ، فحكوا له قصة معروف وأخبروه أنه مات
 وأن له ابناً اسمه عرقوص فقال : لعل ابنه سلطان القلاع والحصون خلفاً
 لأبيه ، فقالوا : إنه سلطان مدينة الرخام بأمر الملك الظاهر .

أما سلطان القلاع والحصون فهو جمال الدين شيحة ، فغضب
 وقال : لا سلطان لها غيري ، وأين هو الآن ؟ فقالوا : إنه في مصر
 عند الملك الظاهر يعينه على أعدائه من الروم وهو يبلو في ذلك بلاء حسناً ،
 فقال : إني ذاهب إلى مصر لألتقي بشيحة ، وأخلعه من ملك القلاع
 وإن جر ذلك إلى قتله .

رحل نجم الدين الغيور إلى مصر ، وسأل عن شيحة فدلته الناس
 على بيته ، فارتقب المزيع الأخير من الليل ، ثم تسلق منزله ودخل عليه
 في حجرته فوجده نائماً على فراشه ، فجرد سيفه وضرب عنقه وفصل رأسه

عن جسده ، ثم خرج وبينما هو نازل من مكان صعوده سقط في قفص من الحديد ، فحاول الخلاص منه فلم يستطع ، وأفزعه أن وجد القفص يضيق عليه رويداً رويداً حتى كاد يعصره عصر الثياب . وإذا بجمال الدين شيحة أمامه يقول : أنتست الفخ يا أمير ، ومن أوقعك فيه ؟ فقال : ومن أنت يا هذا ؟ فقال : الفقير إلى ربه جمال الدين شيحة ، فقال : ومن الذى قطعت عنقه الآن ؟ فقال : ما قتلت إلا هرة أرحمتنا منها ورحمت أنت بذنبها ، فقال : ارج أنت الثواب وخلصنى ، فتقدم وحرك يديه فى القفص هنا وهنا ومسح وجهه بمنديل فبنجه ، ثم وضعه فى مكان من داره وتركه وخرج .

كان الملك الظاهر جالساً على عرشه فدخل عليه جمال الدين شيحة وحيا وجلس ثم قال : دخل على الليلة رجل فداوى وأنا نائم فقطع رأسى ، فقال الملك : وهذا رأسك فوق جسمك : فقال : كان عندى رأس قديم فوضعت مكان الذى قطعه ، فقال : وأين الرأس الذى انقطع ؟ فمد يده فى محلاة معه وأخرج رأساً يشبه رأسه وقال ها هو ذا ، فقال الملك : ومن فعل هذا ؟ فقال : رجل فداوى اسمه نجم الدين الغيور ، وقد وقع فى المصيدة وتركته فيها ، فتعالوا معى وانظروه ، فإنه فارس جبار ، ولكنى لا أدرى أهو جاهل أم عاقل ، فقال : اذهب أنت وإبراهيم وسعد واتتوني به ، فذهبوا وحملوه ثم وضعوه أمام الملك وأيقظه شيحة ، فلما فتح عينيه قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ،

أين أنا؟ فقال إبراهيم: احذر يا نجم الدين أن يطول لسانك، فانت
 أمام ملكين الظاهر ملك العرب وشيخة، فقال: نجم الدين: وماذا
 تريده مني؟ فقال الملك: لم جئت مصر؟ فقال: لأقتل شيخة،
 فقال: وقد قتلتها ثم قبض عليك وجاءني بك فدونك وإياه، وقال شيخة:
 أتطيعني يا نجم الدين؟ فقال نجم الدين: ما أنا ممن يطيع بالقول،
 فقال شيخة: ألقوه في السجن وغداً أريه منزلته، فقال نجم الدين:
 نتبارى في شيء فمن غلب منا كان هو السلطان، فقال شيخة: وإن
 غداً لناظره قريب.

وفي الغد جاء شيخة وقال للملك هذا موعدنا أنا ونجم الدين فأحضره.
 فلما حضر قال شيخة: من استطاع منا أن يحضر القارورة التي فيها
 الكوكب الدرى من قصر الكاهن الأسود بجزائر الشفق كان السلطان وكان
 صاحبه تابعاً مطيعاً، فقال نجم الدين، قلت حقاً يا شيخة وسأسافر
 لإحضارها، فقال شيخة، وسأسافر بعد سفرك بثلاثة أيام.

وخلال الملك بشيخة وسأله عن هذا الكوكب الدرى، فقال: كان في
 الزمن القديم كاهن اسمه الأسود، وكان الجحش في طاعته، ورأى أن
 مصير المرء إلى الفناء، فقال: إني أفعل شيئاً يخلد ذكرى بعد مماتي،
 فأنشأ سبع جزائر في البحر بين كل جزيرة وأخرى سفر يوم، وفي كل
 جزيرة قلعة، وأنشأ في القلعة الوسطى قصرًا من ذهب، في وسطه بستان
 فسيح حوى جميع الأزهار والثمار التي هي من ذهب وفضة وجعل فيه

سريراً لجلوسه ، وعليه قارورة بها كوكب درى يضيء ليلاً ونهاراً، وفي كل جزيرة جنود لا يحصى عددهم، لا يسمحون لأحد غريب بدخولها. فقال الملك : ولم أوقعت نجم الدين في هذه الورطة ، ألا ترى أنه من العار أن نبعثه إلى موت محتوم ؟ فقال شبيحة : إني مسافر خلفه ومن أجلك أيها الملك سأعمل على سلامته . وجاء موعد سفر جمال الدين فسافر إلى جزائر الشفق .

أما نجم الدين فقد جد في المسير وأخذت تتقاذفه الأوعار والبرارى حتى كان في اليوم الرابع أمام دير فدخله عسى أن يجد فيه بعض الراحة ، فوجد فيه بطريقاً فحياه، فرد التحية وأجلسه وأكرمه ثم سأله عن حاجته، فحكى له ما كان بينه وبين شبيحة وما اتفقا عليه ، فقال البطريق : أرى ألا تذهب إلى تلك الجزائر وحدك ، ولا بد لك من رفيق يؤنسك ويعينك ، وإن لى فيها حاجة وما استطعت أن أسير إليها وحدى، فقال نجم الدين : فلتكن رفيقاً وليكن بينى وبينك موثق أن يعين كل منا رفيقه وألا يخونه فعاهده البطريق على هذا ، وأوى كل منهما إلى فراشه ليسافرا في الصباح .

كان هذا البطريق جمال الدين شبيحة فينبجه وهو نائم ثم كتمه ، وأيقظه ، ففتح عينيه فوجد البطريق واقفاً أمامه شاهراً سيفه يريد أن يقتله ، فقال نجم الدين ألم تعاهدنى على عدم الخيانة ؟ ولم فعلت نى ذلك ؟ فقال : لأنك مسلم وقد نجست الدير بدخولك فيه، ولا يظهر إلا

بذلك ، فصاح نجم الدين وقال : يا سلطان القلاع يا شيحة ، فقال
البطريق : هأنذا شيحة الذى تستغيث به فقم وامض إلى سييلك ، ثم
أطلقه واختنق .

استأنف نجم الدين سفره، وبعد سبعة أيام وجد في طريقه صومعة
فيها راهب يتعبد ويحانه راوية، فقال له : اسقى ، فقال : ادخل واشرب
من هذه الراوية ، فقال: ولكن الخوف من مائك يساورنى ، فقال :
لا أغصبك على الشرب ، ولا أمتنعك إن شربت ، فأنت وما ترى ، فقال :
ألست شيحة ؟ فقال : بلى ، وما فعلت ذلك إلا خوفاً عليك وحماية لك ،
لأن الملك الظاهر وصانى بك ، فقال نجم الدين : عهد الله بينى وبينك أن
أطيعك وأكون تابعاً لك فساعدنى ولا تفضحنى فى قومى ، فقال : اجلس
واطمن وسأعينك وأحضر لك الكوكب الدرى ، وأحميك من كل شر
حتى تعود سالماً ، وسأرى إن كنت تنى بعهدك أو لا تنى فقال : إن عهدك
بمترلة الإيمان فى نفسى ولن أنكته ما حيت . فقال شيحة : انتظرنى فى
هذه الصومعة وسأتيك بالكوكب الدرى وأنت هاجع فكل من هذا الطعام
واشرب من تلك الراوية ونم إذا غلبك النوم ولا تخف ، ثم تركه ومضى
هو إلى الجزائر فأحضر الكوكب الدرى وناوله إياه ففرح به وعزز
الاعتراف بطاعته ، ورجا منه ألا يفضى لأحد بشىء من معونته محافظة
على كرامته فوعده بما رغب فيه .

ورجعا إلى مصر وكان قد فارقه عند دخولها حتى يكون إحضار

الكوكب الدرى له وحده .

حضر نجم الدين مجلس الملك ووضع الكوكب الدرى أمامه ،
وسأله الملك عن سفره وما لقيه فيه فقال : إن الله أعاننى وساعدنى حتى
أحضرت الكوكب الدرى وجئت به .

وبينما هم يتحدثون دخل عليهم شيحة . فنهض إليه نجم الدين
واحتضنه وقبل رأسه وقال : أشهد الله والملك ورجاله أنى تابع لشيحة مطيع
له ولن أنازعه السلطة ما دمت حياً . وهذا سببى أود أن يكتب عليه اسمه ،
فأخذة شيحة وكتب اسمه عليه كغيره من سيوف أتباعه .

كان لدبل البيسانى فرس تحدث الناس بقوتها ومهارتها وجرأتها فطمع
فيها جبير صاحب قلعة زاغوره ، وأبدى رغبته فيها لرجاله ، فتنقدم إليه
غلام اسمه نصير مهر فى الاحتيال واشتهر بالجرأة وقال : أنا لها ، وسأتيك
بها وإن كانت تحت أطباق الثرى على أن يكون لى نصيب فى قلعتك ،
فقال جبير : لك ما شئت يا نصير .

ذهب نصير إلى بيته وأخبر أمه بما كلف به ، فقالت : إن لدبل هذا
ابنة اسمها سلمى إن أتيت بها مع الفرس كان لك ذكر خالد يملأ الدنيا ،
فقال نصير : ولن أعود إليك يا أماه إلا بهما .

ذهب نصير مستخفياً متنكراً إلى قلعة دبل البيسانى ، ودخل حجرة
سلمى ليلاً فوجدها غارقة فى نومها فبنجها حتى لا تشعر وحملها وانسل بها
وأخضاها فى مغارة قريبة من القلعة ثم رجع ليأتى بالفرس .

وتسلل إلى مربوط الخيل ، وبنج الحرس وهم نائمون ، وسرقها وانفلت بها إلى المغارة ، ثم وضع سلمى عليها وانطلق بها إلى بيته . وهناك أيقظها وتركها عند أمه عائشة البشناية ، وما كادت سلمى تبدى حزنها حتى أسرع إليها عائشة وقالت : لا تخافى يا سلمى ولا تحزنى ، فأنا زوجة أخيك سعد ، وستنعمين بالمقام عندى حتى نلتقى بأخيك .

• • •

استغاث دبل اليبسانى بالملك الظاهر وطلب منه المعونة ورد ابنته وفرسه ، فأرسل قوة من الجند فيهم سعد وإبراهيم ، ووقعت مناوشات حربية بين جيير وجنود الملك أسر فيها نصير سعداً ، فوضعه جيير فى السجن وأخبر نصير أمه بأسره ووضعه فى السجن ، فلما كان الليل قالت عائشة لسلمى : اذهبي إلى السجن ومكثى أخاك سعداً من الهرب وبلغيه أن نصيراً هذا ابنه وأنه ذاهب الليلة ليسرق الملك الظاهر ، فذهبت سلمى إلى أخيها وأطلقتته وقالت : إن ابنك نصيراً هو الذى أسرك ، وهو ذاهب الليلة ليسرق الملك الظاهر ، فأسرع إليه وأخبره حتى تأخذوا حذرهم . فانطلق سعد إلى الملك وصحبه وأخبرهم بما عرف وقص عليهم قصة هربه من السجن .

ولما ذهب نصير ليسرق الملك وجد سعداً جالساً معه فبهت ورجع من فوره إلى أمه وأخبرها بما رأى ، فقالت : يا نصير ، إن سعداً هذا أبوك وسلمى هذه عمتك وأخت أهلك ، وأنا أمك زوجة سعد أهلك

فإذا هداك الله للإسلام ودخلت فيه كنت من السعداء في الدنيا والآخرة .
ولما أحس نصير ميلا إلى الإسلام وحباً فيه مضى مسرعاً إلى الملك
وصحبه وأخذ معه أمه وعمته ، إلى ديوان الملك وقال : لقد أسلمت
وآمنت ورجتكم بأمر عائشة البشنانية وعمتي سلمى ليجمع الله شملنا بأبي
سعد ، ففرح الملك وأصحابه بهم وهنأوا سعداً لظهور ابنه ، ثم قال الملك
لنصير : لك عندي أمنية فاطلبها يا نصير ، فقال : لا أريد إلا اسماً
جميلاً في الإسلام ، فقال : سميتك ناصر الدين الطيار . وجعلتك عندي
في منزلة أهلك .

تذكر إبراهيم زوجته ناقلة الحصون وحن إليها واستأذن الملك أن يمضي
لإحضارها ، ففعل له ابناً منها يهديه للإسلام ويكون عوناً له في جهاده
وكفاحه ، فقال الملك : توكل على الله ، وأرجو لك التوفيق ، وأن يظهر
لك ابن يكون لك رداءً وعوناً كما ظهر ابن سعد ناصر الدين الطيار .
ذهب إبراهيم إلى حوران وأفضى إلى أبيه بما عزم عليه فقال له : أرجو
من الله يا بني أن يرد إليك زوجتك كما رد إلى سعد زوجته وابنه وأخته .

ذهب جوان إلى عبد الصليب صاحب قلعة الصخر بجوار حلب ،
وحضه على أن يغزو مدينة حلب ، فقال : لا طاقة لي بقتال أهلها وجيشها ،
فقال : وسأحضر معك مسطرين ملك المدينة الحمراء وجنوده ، وما زال
يفويه حتى رضى . وكتب جوان إلى مسطرين بذلك فحضر إليه في

جنوده ثم رحلوا إلى حلب وعسكروا أمامها يبغون فتحها، فاستغاث صاحبها بالملك الظاهر فركب في جيشه إليها ليدفع عنها هؤلاء الغزاة الظالمين . اشتبك الجيشان ودارت معركة عنيفة قتل فيها مسطرين وعبد الصليب وأصيب يعقوب الهدار بجرح جسيم فسقط بين القتلى وفر الأعداء مذعورين هاربين ، وجاس سعد وإبراهيم خلال القتلى فرآهما يعقوب فنادى في صوت خافت : يا إبراهيم ، فأسرعا إليه وهم سعد أن يجهز عليه فتمعه إبراهيم وقال : لعله أراد بندائنا أن يدخل في دين الإسلام ، فهو يدعونا لإسعافه ، فنقلناه إلى خيمة في جيشهم وغلبه النوم فنام ثم استيقظ وهو ينطق بالشهادتين . فسأله إبراهيم عن إسلامه ، فقال : جاءني في المنام رجل في ثوب أبيض يشع النور من وجهه وعلمني الإسلام فأسلمت على يديه ، وسألته عن اسمه فقال : أنا الخضر ولأنك مكتوب من السعداء جثتك وأخذت بيدك من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام .

ثم نطق بالشهادتين فجعلت أرددهما حتى استيقظت من نومي ، فأخبروا الملك به وفرح لإسلامه فرحاً عظيماً ، ثم أحضره وقال له : ألك مطلب عندي ؟ فقال : أود أن أكون في خدمة إبراهيم ومن رجاله ، فقال : لك ما وددت .

حزن جوان وغازله إسلام يعقوب وهزيمة الروم فذهب إلى جمهور الرومي وحضه على قتال جيش الملك الظاهر وأفهمه أن المسيح يأمره بذلك ، فركب في جيشه ، وكان عند الملك الظاهر وجيشه قبل أن يرحلوا ، ودارت

معركة قتل فيها جمهور وولى جيشه مهزوماً، وكان الذى قتله إبراهيم .
لم يسكت جوان عن إشعال نار الحرب فذهب إلى ابنه عيسى الجماهيرى
وحثه على أن يقاتل الملك الظاهر ويثأر لأبيه بقتل الملك الظاهر، فعرض على
أمه ناقلة الحصون ما يدفعه إليه جوان من الأخذ بثأر أبيه فقالت : لا تطع
هذا الذى ليس له إلا الفتنة وإضرار نيران القتال ، ويكفينى منك أن
تسرق إبراهيم الحورانى الذى قتل والدك ، وكان عيسى محتالاً ماهراً ،
فذهب فى التو والساعة وتكر فى صورة عربى وسرق لإبراهيم ليلاً ووضعه
أمام والدته ، وقال : هذا قاتل أبى ، ونريد أن نمزق جسمه لنطقى نار
الحزن المتأججة فى صلورنا ، فقالت : يا عيسى ، أبوك إبراهيم هذا ،
وأنا زوجته وأملك ، ولا ينفعنا إلا أن نسلم ونملاً صدرك بنور الإيمان ،
واعلم بأنى مسلمة وأبوك إبراهيم مسلم فقاطعها قاتلاً : وأنا معكم ونطق
بالشهادتين ، فحمدت الله تعالى وقالت : اخرج بنا إلى جيش الملك
الظاهر لترحل معهم إلى مصر ، وفى جوف الليل كان إبراهيم وزوجته
وابنه عند الملك الظاهر وقصوا عليه ما حصل فشكر الله تعالى وفرح بهم ،
ثم ارتحلوا إلى مصر ، أما ناقلة الحصون فقد أسكنها إبراهيم فى قلعة حوران
ولبت هو وابنه مع الملك الظاهر فى منزلة واحدة .

كان للكندفرون ملك أرمينية بنت اسمها رنقيص رغبت في زيارة لقمامة القدسية ، فكتب أبوها إلى الملك الظاهر يرجو منه أن تكون حراستها في كفالاته حتى تزور وترجع ، فلبى رجاءه وكتب له أن يكون آمناً عليها في مجيئها وإقامتها وعودتها ، ثم كتب إلى عرقوص في مدينة الرخام أن يحرسها ويحافظ عليها حتى ترجع إلى أبيها سالمة شاكرة .

أخذ عرقوص عمه إسماعيل ونصيراً النمر وعشرة من أبناء الأمراء الأبطال وانتظر رنقيص في يافة ، فلما حضرت ومعها وزير أبيها وخمسمائة بطريق سار بها إلى القمامة وأنزلها في قصر خاص بها ، ونزل هو ورجاله في قصر بجانب قصرها ، وكان إبراهيم قد أرسله الملك الظاهر ليساعده فتزل معهم ، ورأت رنقيص في أثناء سيرها ونزولها من عرقوص رجولة وشهامة وكرماً ونبلا فلاً قلبها ، وكان سرورها في رؤيته وشوقها إليه في غيبته ، وتمنت أن تكون له زوجة وإن صبأت ودخلت في دينه .

وبعد ثلاثة أيام من نزولها أرسلت إلى عرقوص ، فكان عندها ، فقالت له : لقد ضقت ذرعاً بمقامي في هذا القصر ، وأحب أن أذهب إلى بيت المقدس ، لأنفس عني كرب الغربية ، فأخذها إليه وتركها فيه ، ودخل هو وسعد في مسجد كان بجانبه . واستقبلها بالقمامة بطريقها الكبير استقبالا

جميلاً ، وأنست به وقالت : إني سأثلك عن تعبير لرؤيا رأيتها في منامى ، فقال : ما رأيت إلا الخير ، فقالت : رأيت كأني جالسة بين غربان سود ، فأحسست ضيقاً وكراهية لهم فقممت من بينهم وإذا أنا بين طيور بيض ، فدخلت بينهم ، فانقض على طير منهم كأنه العقاب ، ونقرني في حجرى وقال : كتبت لك السعادة ، فوجدت الزفير يخرج من فى دخاناً أسود ، وأحسست الشهيق نسيماً عطراً يملأ صدرى بهجة وانشراحاً ، وبينما أنا غارقة في الفرح بهذا النسيم خطفني غراب وألقاني بين الغربان وخرج من بطنى جوهرة بقيت في حجرى مدة ، ثم مشت وتبعها الغربان فدخلت منهن بين الطيور البيض . وسعيت في طلبها فوجدتني في مخزن للجواهر بين الطيور البيض حتى جاء الطير الذى كان قد انقض على فاختطفنى وجعلنى في حوزته حيث يقيم ، وهذه رؤياى ، فهبت البطريق وقال : ما سمعت في حياتى بمثل هذه الرؤيا ، ويمكنك أن تبطلها بالاستحمام الآن بماء العمودية ، فقالت : في غد يكون ذلك ، ثم خرجت وسألت عن عرقوص فقيل : إنه في هذا المسجد ، فذهبت إليه ووقفت ببابه فرأت رجلاً بالمسجد فأشارت إليه فلما جاءها قالت له : ادع لى الأمير عرقوصاً ، فضى إليه وقال : بنت رومية بباب المسجد تدعوك إليها ، فجاءها على عجل ، فقالت له : إن لى رغبة فى أن أدخل هذا المسجد ، فقال : حتى يأذن لك الشيخ النواوى ، وهأنذا ذاهب إليه أستأذنه ، فدخلت على أعقابه ، وكانت بجانب الشيخ وهو يستأذنه ،

وهم عرقوص أن يردّها حتى يأذن لها فقال الشيخ : اصبر يا عرقوص ولا تردّها ، فقالت : أريد أن أقص عليك رؤياى لتفسيرها وتأويلها ، فقال : وما هي ؟ فقصت عليه رؤياها ، فقال : سندخلين في دين الإسلام ، ويتزوج منك بطل من بيت الملك ، وتلدن بنتاً يرببها أهل الضلال ، ولكن عاقبتها سليمة ، فقالت : وقد رغبت أن أسلم من الآن ، فأسلمت على يد الشيخ النواوى في المسجد ، وأبرم عقد زواجها من عرقوص ثم خرجت من المسجد وعزمت على الرحيل ، وأخذ عرقوص حجة مكتوبة من وزيرها أنه أخذها سليمة ، ومضى جميعهم معها ، فلما كانوا أمام مدينة الرخام أصرّ عرقوص على أن يضيفهم في قصره ، ليأكلوا من طعامه ، فذهبت معه هي ومن معها من الوزير والبطارقة ، وبعد مضي سبعة أيام قال وزير أبيها لعرقوص : كثر خيرك ، وزدت بسطة في المال : واثذن لنا بالرحيل ، فقال عرقوص : إذا أردتم العودة أنتم فع السلامة ، أما رنقيص فإنها أسلمت وترجعت منها وعاشرتها معاشرة الأزواج ، فقال : ويل لك من أبيها ، وكيف تهدر دمك وتبيع حياتك برغبة كنت في غنى عنها ، فقال عرقوص : خير لك أن تعود سالماً أنت ومن معك ، فحاجه في تأنيب وتقريع ، فجرد عرقوص سيفه وأطاح به رأسه ، وأمر رجاله أن يطردوا البطارقة شر طردة ، فطردوهم ورجعوا إلى أبيها ، وحكوا له ما حصل ، فأريد وجهه من الغيظ . فقال له أحد وزرائه : اكتب إلى ملك العرب بما جرى ، واطلب منه أن يرسل إليك

ابتنتك وعرقوصاً لتجزيه على جريمته وإلا خسفت به وبدياره الأرض ، فكتب إليه بذلك . فقال الملك لإبراهيم وكان قد رحل إلى مصر حين رحلوا من بيت المقدس : كيف كان ذلك وأخفيته عني؟ فقال : ما حصل هذا وأنا عندهم وربما وقع بعد أن جئت وتركتهم ، فقد أسلمناها إلى الوزير عند رحيلها من بيت المقدس سليمة ، وهذه حجة من الوزير بذلك ، وأراه الحجة التي كتبها الوزير عند قيامهم من بيت المقدس ، فأمر الملك رسول الكنندفرون أن يقيم عنده حتى ينظر في هذه الدعوى . وما لبث أن جاءه كتاب من صاحب الإسكندرية يقول له : ورد المدينة ابنا الملك الكنندفرون ومعهما جوان اللعين في جيش كبير فدخل المدينة واستولى عليها وفرنا من وجهه إلى مدينة رشيد ، فأمر الملك أن يجهز الجيش للرحيل إلى الإسكندرية ، فجهز وساروا حتى حطوا أمام المدينة فوجدوها مغلقة الأبواب ومدافع الأعداء على أسوارها، فوقفوا في حيرة مظلمة لا يعرفون لهم منها مخرجاً، وجاءهم شيعة فدلم على سرداب نافذ إلى المدينة ، فكشفوا عن بابه الغطاء الصخري ودخلوا منه إلى المدينة وبعثوا الأعداء فيها ، وأعملوا فيهم سيوفهم وطردوهم وقتلوا ابني الكنندفرون، وطهروها من الأعداء ، وعادوا إلى القاهرة .

وذات ليلة تنكر الملك الظاهر هو وإبراهيم وخرجا يجوسان خلال المدينة حتى كانا في النحاسين ، فرأيا قصرأ عجيباً ، فسأل الملك عنه إبراهيم فقال : ما رأيته قبل هذه الليلة ، فظافا به فلم يجدا له باباً . فتركوه إلى

الغد ، ولما طلع النهار ذهبا إليه فلم يجداه ، فسألا عنه فقيل لهما : هل جنتنما ؟ ما رأينا في هذا المكان قصراً ، فرجعا وهما في حيرة تشبه الدهول .

ولما جن الليل مضيا إلى القصر فوجداه ، وطافا به فوجدا غلاماً جالساً ببابه ، فسلم الملك عليه فقال : وعلى ملك الإسلام السلام ، ولكنه لم يعبا به ولم يتحرك من مكانه ، ثم قال : لا تؤاخذني فإنني عاجز لا أستطيع النهوض . وكشف ثوبه عن رجله ، فنظر الملك إليه نظرة فاحصة فوجد نصفه الأسفل من حجر . فسأله : من أنت ؟ وكيف كنت على هذه الحال ؟ فقال : أنا ابن خادمك شمس الدين السحرتي ، وكنت أتاجر في مال أبي ، فجاءتني عجوز اسمها الفللفة ، وهي كاهنة ساحرة ، واشترت مني بضاعة ، وربحت منها كثيراً ، وذات يوم أضافتني وأخذتني إلى منزلها ، وراودتني عن نفسي فعصمتني الله منها فسحرتني كما ترى ؟ ! فقال : وأين هذه الكاهنة ؟ فقال : إنها في هذا القصر ، وهي تسمع الآن حديثنا . وطلعت العجوز عليهم بغتة وقالت : ماذا تبغى من العجوز الكاهنة ؟ ثم صاحت قائلة : حديد ... وإذا بالملك وإبراهيم قد حبسا في قيود وأغلال من حديد ، ثم جردت سيفها وأرادت أن تقتلها وكان الملك قد تضرع إلى الله بقلبه وطلب منه أن يكشف عنهما سوء . وإذا بأحد رجاله قد أقبل وضرب العجوز الكاهنة بسيفه من خلفها فوقعت جثة هامدة ، فغاب القصر ونهض الغلام وعلا صياح الجن : أراحك الله أيها الملك كما أرحتنا من شر هذه العجوز الساحرة .

وبينا عرقوص جالس هو وزوجته رنقيص في قصره إذ به يراها قد امتدت إليها يد مارد وخطفتها ففرغت وقالت : لا تركني يا سيدى ثم غابت عن ناظره . وأحضرها المارد أمام رومية الساحرة ، فقالت لها : هل أسلمت يا رنقيص ؟ فقالت : نعم ، وتزوجت من عرقوص وحملت منه ، فقالت : أنت معى حتى تلدى ، فعاشت معها حتى ولدت بنتاً سمها مريم الحمقاء . أما عرقوص فإنه حزن على زوجته وانتظر ما يجرى به القدر في شأنها .

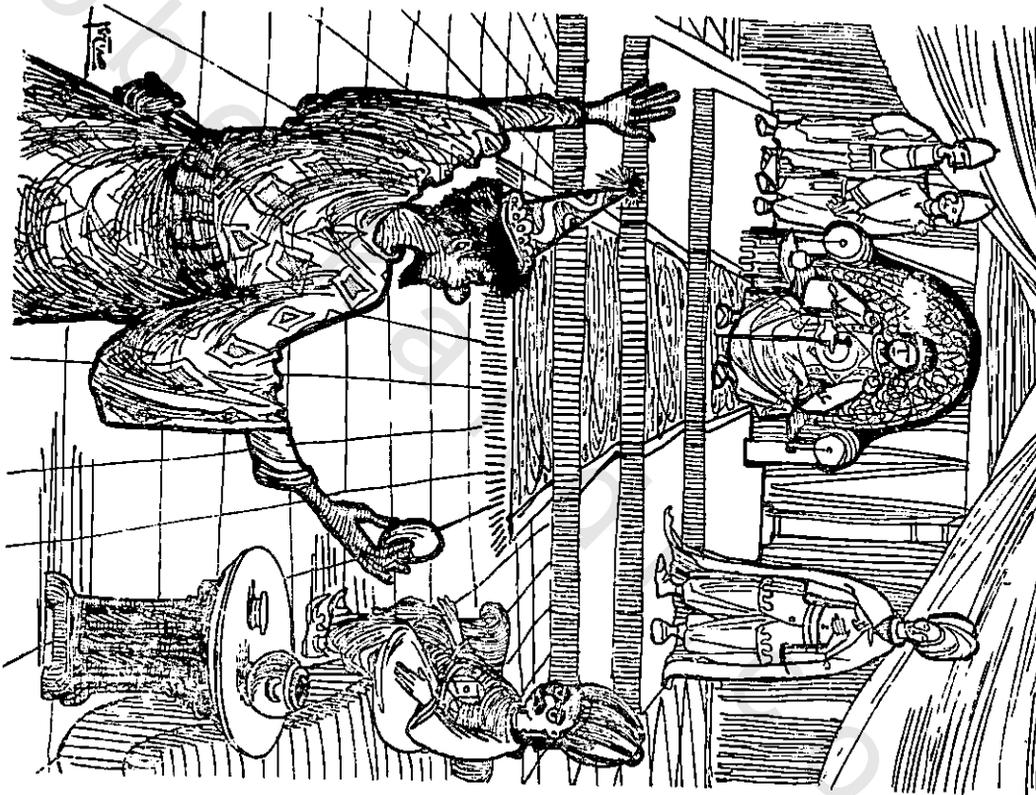
وكان سبب خطف الساحرة لزوجة عرقوص قتله أخاً لها في إحدى الوقائع بين الروم والمسلمين .

كان لجوان اللعين جواسيس ينقلون إليه أخبار شيحة ، كما كان
 لشيحة جواسيس ينقلون إليه أخبار جوان . فر ذات يوم جوان بمدينة
 إسبانيير . فقال للبرتقش : مضت مدة طويلة وأنا بعيد عن هذه المدينة ،
 فقال البرتقش : من أجل ذلك سلمت من الفتن والدمار ، ولم يقتل منها
 ملك ، فإنك لا تدخل مدينة إلا حل بها الخراب وقتل ملكها ، فقال
 جوان : وماذا يصيرني إن مات الروم والعرب جميعهم؟ فقال البرتقش
 لك ما شئت .

ودخل جوان المدينة وذهب إلى ملكها ضابح فسلم عليه وحياه
 الملك وقربه إليه ثم قال : لعلك قدمت إلينا بنحير ، فقال : ما جئت
 إلا لأبلغك أنه قد فرض عليك قتال العرب وإلا غضب المسيح
 عليك ، فقال ضابح : حتى أستفتي الرمل ، وكان الملك يعرف ذلك ،
 ثم نظر في الرمل نظرتة فوجد أنه لا يبلغ مناه من العرب ما دام شيحة
 فيهم ، ثم قال لجوان : لن أحارب العرب ما دام شيحة حياً ، وكان قد
 حضر هذا الحديث جاسوس شيحة ، فقام إليه وأخبره ، فقال شيحة :
 لا يكون إلا الخير إن شاء الله ، ثم ذهب إلى الملك وعرض عليه أمراً جادله
 فيه وأغلظ في جدله حتى أغضب الملك وأمر بشنقه على باب ديوانه ،

وأصر الملك أن ينفذ أمره ، فنفذه جنوده ، وشنقوا شيحة ودفنوه ، وذاع نبأ قتل شيحة ودفنه وبلغ جوان فذهب إلى ضابح ، وطلب إليه أن يني بوعده ويحارب العرب ، فركب في جيش جرار وذهب إلى السويدية وعسكر عندها ، وبلغ بنى إسماعيل ذلك فجمعوا جموعهم وذهبوا إلى السويدية وعسكروا تجاه ضابح وجيشه ، وجاءهم الملك الظاهر بجيش جرار ، وقيل أن يبدأ القتال كتب الملك إلى ضابح أن أرسل جوان اللعين وارجع بجيشك سالماً وإلا كنت أنت وجيشك من الهالكين ، فأجابه ضابح بتحريض من جوان: ما جئت إلا لفنائكم والاستيلاء على أرضكم ودياركم ، فكيف أعود بأمر منكم وأعطيكم جوان عالم الملة طواعية؟ سترى في الغد دماءكم تجرى على الأرض جريان السيل وسترى من منا سيرتد على عقبه خائباً مدحوراً. قرأ الملك الكتاب فقال : ما أجهلك يا ضابح وغداً تلقى جزاء جهلك .

وقامت المعركة في الصباح ودامت على أشدها إلى الليل ، فسكت القتال ، ووجد ضابح أن الأرض صبغت بدماء رجاله ، فقال لجوان: قد أغويتني وسعيت في فناء رجالى، وهؤلاء العرب ما قتل منهم جندي واحد ، وما أوقعتني في هذه الورطة إلا رأيتك المشثوم ، فقال : لا خوف على جيشك ، وسأحيي لك من قتل منهم ، فقال: قم وأرني ذلك ، فقال : سيكون ذلك في نهاية القتال ، واعلم بأن النصر لا يكون إلا على يديك وبسيفك ولا بد أن تبارز أبطال العرب وتقتلهم واحداً بعد واحد



حتى تلتقي الرعب في قلوبهم ويرتدوا على أعقابهم خاسرين ، فقال : إني لن أخشى أحداً وسترى غداً ما يكون ، وفي تلك الليلة دخل على الملك شيخة فعجب حين رآه ، وقال إبراهيم : ألم أقل لكم : إن القبط لها سبعة أرواح أما شيخة فله ستمائة روح ؟ ! وقال الملك : ولم فعلت ذلك يا شيخة ؟ فقال : سمعت أن هذا الملك أبي أن يطيع جوان ويقا تل العرب إلا بعد موتى . ففعلت ما فعلت حتى أحمو غروره وجهله بتدبير جيشه وخيبة جوان في رأيه . وإني ذاهب إليه الآن والأمر بيد الله .

وذهب شيخة إلى ضابح في صورة فتى أمرد جميل له من العمر خمس عشرة سنة وعلى رأسه طرطور محلى بالخرز المختلف الألوان فدخل عليه وقال إني مضحك الملوك الراجى عطاءهم . وكان جوان يجانبه ، فاقشعر بدنه وقال للبرتقش : إن قلبي يحدثني أن هذا الفتى شيخة . فقال البرتقش : لقد قلت : إن شيخة مات ودفن ، وقد رأيت ذلك بعينيك فكيف تقول : إنه شيخة ؟ ! ورأى ضابح جوان يحدث البرتقش عقب قدوم الفتى فسأله : ما ذا تقول يا جوان ؟ فقال : وقع في نفسى أن هذا الفتى شيخة : فقال : وأين قولك لى : إنه مات ودفن ورأيت ذلك بعينى رأسك ، ثم أغريتني بقتال العرب ؟ اسمع يا جوان ؛ سأقتلك بسيفى هذا إن كان شيخة حياً لم يميت ، وأخذ شيخة يعرض عليهم ألعابه وهم يضحكون ، ورغب الملك ورجاله ما عدا جوان فى أن يبقى هذا الفتى المضحك بينهم ، فلبث فيهم يضحكهم هذه الليلة ، وقال له ضابح : نم

تحت سريري ولا تخرج من عندي .

وفي الليل نهض شيحة وأراد أن يضرب الملك في صدره فأحس واستيقظ قبل أن يضربه وأمسكه وقال : بحق من تعبه من أنت من العرب ؟ فقال : أنا شيحة ، فقال : ولكن جوان أخبرني أن شيحة قد مات ، فقال : كذب عليك لأنه يريد هلاكك وهلاك قومك ، فأمر ضابح بجوان أن يحضر في الحال وقال له : ألم تخبرني أن شيحة قد مات ثم أغويتني وأغريتني بقتال العرب ؟ ها هو ذا شيحة أمامك ، وهو حي لم يموت ، فقال جوان : اقتله ، وبذلك تظمن على نفسك وجيشك . فقال : وما الذي أفعله بك أنت ؟ ثم أمر بحبس شيحة .

أما جوان فإنه ضربه مائة سوط وألقاه والبرتقش في السجن ، وفي الصباح نزل ضابح الميدان وقال : لقد حبست شيحة وجوان ، وسفك الدماء حرام في كل الأديان ، فليبرز لي ملككم والأمر بعد ذلك بيننا لمن غلب ، فقال الظاهر : من دعى فليجب ، ثم ركب جواده وكان في الميدان ، وجعلا يتجالدان حتى مضى النهار وكل منهما طامع في صاحبه وفي اليوم الثاني نزل إليه الملك وكان أن أصيب جواده في فخذه فجرى مسرعاً بالملك من شدة الألم وكان جريه نحو جيش ضابح ، ووجد الملك أنه بين أعدائه فأحاطوا به وأمسكوه حتى رجع ضابح وأمر أن يسجن مع شيحة ، ولم تمض تلك الليلة حتى كان أبناء شيحة قد أطلقوا بحيلهم ، الملك وشيحة ، وحملوهما إلى خيمة الملك ففرح الجيش بقدميهما ،

وفي اليوم الثالث كانت منية ضابح على يد إبراهيم فأذاقه موتاً أليماً على مشهد من جيشه ، وحاول جيشه بتحريض جوان الذي خرج من سجنه عقب موت ضابح أن يثار من العرب ، ولكنهم أصيبوا بالدمار الماحق فقروا مذعورين ، وانتصر العرب عليهم انتصاراً عظيماً ، ثم رجعوا إلى مصر آمنين غانمين .

لم يجد جوان ملجأ يلوذ به غير الحرب ، ورأى في ركوبه البحر الأيمن على نفسه وعلى البرتقش تابعه ، فوجد على الساحل مركباً فركب فيه هو والبرتقش ، ونشطا في التجديف وهو يجرى بهما على وجه الماء حتى بعدا عن الساحل واختفيا عن الأنظار ، وما لبث جوان يفكر : أين يتجه بالمركب حتى رأى سفناً حربية تجرى فوق الماء نحوهما . فقال له البرتقش : فورت من الموت إلى الموت ، وكأنك تسعى إلى المصائب سعياً ، فاحللت في مكان إلا نعق فيه غراب البين ، وما انتهى البرتقش من قوله حتى أحاطت بهما السفن الحربية وحصرتهما ، ثم قبض عليهما . فلجأ جوان إلى المكر والحيلة . وأخذ يتلو آيات من الإنجيل في صوت الكاهن المتفاني في العبادة ، فسأل رئيس البحارة البرتقش عنه ، فقال : هذا عالم الملة وخليل المسيح ورسوله إلى الكهنة ، وباب الخير والبركة جوان صاحب الرأي والهمة ، ففرح وقال : إنه طلبة الصهبج ملك الجزائر السود ، وقد وجدناه بعد أن أعيانا التفتيش عنه في كل مكان . وذهبوا به إلى الصهبج فاحتقن به حفاوة عظيمة . وقال :

طلبتك في كل مكان وتعيب رجالي في البحث عنك لتحول بيننا وبين كارثة ماحقة . فانشرح صدر جوان وقال : وما تلك الكارثة ؟ فقال : لي ابن أخ اسمه ميروفش وهو فاتك قادر خطب ابنتي ميرونة لنفسه . ولكنها راغبة في الزواج من أخيه طولنج الذي خطبها من قبله ، وإن أنا طردت ميروفش أهلكنا بسيفه ، وقد وكلت إليك أمر ابنتي لتزوجها ممن تشاء منهما في سلام وعافية .

فطلب جوان ميروفش فلما حضر بين يديه قال الملك: هذا جوان عالم الملة وقد جعلته وكيلا في زواج ابنتي ، وأصبح أمره النافذ فيها ، فقال ميروفش : حينئذ أطلبها من جوان ، فقال جوان : على أن تعطينا صداقها ، فقال : وما صداقها ؟ فقال جوان : رأس ملك العرب ، فقال : ولك ما طلبت ، ثم تركه وانصرف إلى منزله ليعده عدته للرحيل .

وجاءه جوان ليلا فأجلسه وحياه ثم قال جوان: ما جئتك الآن إلا لأدلك على وسيلة تتمكنك من ملك العرب دون أن تجرد سيفك ، فقال : إن أهون شيء عندي أن أجرده في وجه من أشاء ، فقال : ولكن ما يدرك بالين لا ينبغي أن يلجأ فيه إلى الشدة ، فقال : وماذا رأيت ؟ فقال جوان : أن تذهب إلى ملك العرب شاكياً ظلم عمك وظلمي في أمر زواجك ، وتنسب إلى ملتنا كل خزي وفضيحة وتلقى بنفسك في أحضانه ليدفع عنك ظلمنا ويحقق لك مأربك ، وتدخل في دين العرب رياء ونفاقاً ليتخذك الملك من حاشيته وخاصته ، وسأزورك في بيتك هناك لأرشدك إلى

ما تفعله بعد أن يثقوا بك ويطمئنون إليك، فقال : سمعاً وطاعة وسأكون عندهم كما شئت .

ذهب ميروفش إلى مصر واستأذن في المثول بين يدي الملك الظاهر ، فأذن له . ولما وقف بين يديه قال : أنا ميروفش ابن أخي ملك الجزائر السود وقد ظلمني عمي الذي ألقى مقاليدته في يد جوان الحبيث الماكر ، ثم حكى قصة زواجه ، وعرفه الصداق الذي طلبه جوان ، ثم قال : وقد نظرت في أمر هذا الصداق ، وكيف تكون الخطيئة التي لا يقرها دين سماوي أساساً لبناء الزوجية ، فسألت جوان : وهل ذلك يرضى المسيح الذي نحن على شريعته ؟ فقال : لقد وصاني أن أبلغك رضاه ورضه إياك على تنفيذه ، فأظهرت لهم الخضوع لأمر المسيح وطاعته ولكنني أنكرته بيني وبين نفسي وعزمت على أن أفارق أرضهم ، وأخرج من دينهم إلى دين الإسلام الذي ينشر العدل ويحرم قتل النفس إلا بالحق ، فجتلك منياً إلى الله ، ثم نطق بالشهادتين . ففرح الملك وأداناه من مجلسه وجعله من خاصته وأعضاء مشورته ، ولكن إبراهيم رابه أمر ميروفش وظن أن إسلامه خدعة يبغى من ورأها أمراً خطيراً .

لبث ميروفش في خدمة الملك الظاهر في طاعة ووفاء ، ثم دخل عليه جوان فسلم عليه وحكى له ما حصل بينه وبين الملك الظاهر وكيف أنه صدقه هو ورجاله ما عدا إبراهيم الحوراني ، فإنه غير مطمئن ، وهو يعتقد في قرارة صدره أني متناق مخادع ، وما أسلمت إلا لأمر في نفسي أبغى به

الكيد للعرب وملكهم ، ولا يفتأ يحض الملك على الاحتراس منى ، ولكن الملك لا يقره على رأيه ، فقال جوان : وقد جئتك الآن لأتم لك الخطة وأرشدك إلى ما تفعله ، فقال : وإني مطيعك فيما تأمرني به فقال جوان : في ليلة الجمعة القادمة انحر ذبيحة وادع إليها الفقراء ليأكلوا منها وادع معهم الأمراء والمالك ، ثم كرر هذه الوثمة مرتين . فإذا جاعوك في المرة الثالثة فاصرف الفقراء ثم بنج الأمراء والمالك . ثم اقطع رأس الملك وخذه وارحل . وسأملك في متزلك هذا مستخفياً فنقد مير وفش ما وصاه به جوان ، وبعد أن كتفهم أشار جوان عليه أن يقتل الملك ويأخذ رأسه فقال : لن أقتله إلا في مدينة عمى ليكون لى الفخر الأكبر . ثم أيقظهم من إغمائهم ، والتفت الملك فوجد مير وفش وجوان ، فقال : ما هذا ؟ فقال مير وفش : هذا أجلك الذى انتهى ، وقال جوان : من يخلصك من يدي الآن يا ملك العرب ؟ فقال : الذى خلقنى فهو يحفظنى منك ومن كل كيد وخيانة ، صدقت يا إبراهيم ، فقد كان شكك خيراً وأصدق من يقيننا . وجاء شيحة إذ ذاك ديوان الملك فسأل عنه فقال لإبراهيم : إن الملك وجماعة من الأمراء قد اختفوا أو سرقوا ، وحكى له مجيء مير وفش وارتيابه فيه ، فقال شيحة : صدقت يا إبراهيم ، ثم خرج من الديوان . حبس مير وفش الملك والأمراء فى بيته ، وأخفاهم فى مطمورة كانت فيه ، وكان لا يزال يخنى أمره حتى يجيئه أخوه فى جيشه حسب تدبير جوان اللعين ، وكان يختلف إلى ديوان الملك كعادته ويبدى أسفه على فقد الملك والأمراء .

فتنكر شيحة في صورته وذهب إلى بيته وهو في الديوان ، فأطلق سراحهم ، وقبض على جوان والبرتقش ثم مضى بهم إلى الديوان ودخلوا جميعهم على من فيه ، وكان من بينهم إبراهيم ومير وفش فلما رأوهم نهضوا إليهم فرحين أما مير وفش فإنه كاد يصعق من خزيه وخوفه على نفسه ، فأمر الملك أن يصلب مير وفش ويرى بالنبال حتى يموت فصدعوا بأمره ومات بسبب غدره واتباعه جوان الأثيم . أما أخوه طوبلنج فإنه قدم في جيش إلى مصر لیساعد مير وفش أخاه ، فعثر به عرقوص في طريقه ، وكان قد رحل برجاله آتياً إلى مصر حين بلغه فقد الملك والأمراء . ودارت بينهما معركة قتل فيها طوبلنج وهرب رجاله مذعورين . واستمر عرقوص سائراً حتى دخل مصر فوجد مير وفش قد قتل ، وجوان والبرتقش في الديوان ينتظران حكم الملك الظاهر في .

أراد جوان أن يفلت من أيدي الملك ورجالهم فلجأ إلى مكروه وأسر إلى عرقوص قولاً جعل عرقوص يشفع فيه لدى الملك ويرجو منه أن يخلى سبيله هذه المرة على أن يكون ضامناً له ، فأجاب الملك رجاء عرقوص وأمر بإطلاق جوان واتباعه ، فأطلقا وخرجا من المدينة مسرعين .

أسر جوان لعرقوص ما خدعه به فقال : اشفع لي عند الملك وأنا أدلك على بنت ملك من ملوك الروم تسلم على يديك وتزوج منها وترزق بندرية صالحة تنفع الإسلام والعرب ، ويكون لك شأن عظيم عند ربك يوم الدين ، فقال : ومن هذه البنت ؟ فقال : بنت

الصهيج ملك الجزائر السود بمدينة الصخر، وكان التنافس في الزواج منها بين مبروقش وأخيه طوبلنج سبباً في قتلها، وسأذهب إلى أبيها بعد أن يخلى سبيلى وأساعدك في الزواج منها كما ساعدتني، ولن أنسى صنيعك هذا ما حييت ، فصدقه عرقوص وشفع له ، وأخلى سبيله .

أمر عرقوص عمه إسماعيل أن يعود برجاله إلى مدينة الرخام ، أما عرقوص فإنه انقلت إلى مدينة الصخر بالجزائر السود، فدخلها متنكراً في زى أهلها، ونظم نفسه في جيش الملك كأنه جندي من جنوده، وكان الملك الصهيج يخرج في ثلة من جنوده للصيد ، وكان عرقوص من بينهم .

وذات يوم خرج الصهيج للصيد وعرقوص في جنده الذين معه ، فطلع عليهم سبع كأنه القليل ضخامة ، وجعل يفتك بفرسانه واحداً بعد واحد حتى فرغ الملك ، وخاف على نفسه ولم يجروا أحد من بقية جنده أن يخرج إليه ، فقال الملك : لقد وهبت ابنتي ميرونه لأى فارس يقتل هذا الأسد أو يطرده حتى ننجو من شره فتقدم عرقوص وقال : إن قتلته يا مولاي زوجتى ابنتك ميرونه ؟ فقال : نعم وحق المسيح ، فجرد عرقوص سيفه ومضى إلى الأسد راجلا ، وراه الأسد مقبلا عليه فزأر زأرة انخلعت لها قلوب الملك ورجاله ، وأجابه عرقوص بصيحة مثلها وهم الأسد بالوثوب عليه ، فلقى عرقوص بضربة من سيفه شقته نصفين . ثم رجع إلى الملك مترققاً في مشيته من تبه وفرحته ، فاحتضنه الملك وقبله في رأسه وسأله : من أين ؟ وما اسمك ؟ فقال : أنا من دير نجران وتربيت في القمامة واسمى عزم المسيح ، فقال : لولا أنك عزم المسيح ما قتلت الأسد ونجيتنا من شره ، ثم أخذه إلى قصره وزوجه ابنته ، ودخل بها وكان من أعز أهله عنده .

دخل عرقوص على زوجته وهي فرحة به لأنه فاق الأبطال ونجى أباهما ورجاله من مخالب الموت ، ولكن أفزعها أنها وجدت منه إباء وانصرافاً

عنها ، فسألته عن ذلك فقال : إنني من قوم لا يقترّبون من النجاسة ، فجعلت تنتظر في ثيابها وفي يديها ورجليها ثم قالت : ولكنني نظيفة ولا أرى في ثيابي ما يغضبك ، فقال : نجاسة القلوب أبعث على الاشمئزاز والكرهية من نجاسة الثياب ، فقالت : وكيف ينجس القلب ؟ وكيف يُعرف أنه نجس ؟ فقال : ينجس بالكفر ويظهر بالإيمان ، وأخذ يتلو عليها آيات من القرآن مبيناً لها مزايا الإسلام وأنه مبعث السعادة والنعيم . وكان قد أراد الله أن يشرح صدرها للإسلام فأسلمت ، وأبرم عقد الزواج على شريعته وعاش معها وهما يخفيان إسلامهما عن الملك وقومه ، وكان يقضى يومه مع أبيها في ديوانه ، وليله معها في قصرها .

وذات يوم دخل جوان على الملك قادماً من سفره ، فقال له الملك : لقد خدعت ابني أخي حتى قتاتهما بسيف العرب ، فقال : جوان : ما فعلت ذلك إلا من أجلك ، فقد أخبرني المسيح أنهما إن بقيا ولم يقتلا ، قتلتهما وأخذنا ملكه من بعده ، وكان عرقوص جالساً فقال : صدق أبونا جوان .

ولما انفض المجلس أخذ عرقوص جوان إلى بيته وقال له : أريد أن تهادنني حتى آخذ زوجتي وأرحل إلى مدينتي ، فقال جوان : لك ذلك ، وإني مسافر من الآن ولا أعود إلى هذه المدينة إلا بعد أن تغادرها أنت وزوجتك ، ثم سلم عليه وركب أتانته ، وأفهمه أنه مرتحل من ساعته ، وأخذ تابعه ومضى .

لم يرحل جوان ولكنه ذهب إلى الصهيج ليلاً وقال له : أنا ما قتلت ابني أخيك ولكن الذى قتلهما ذلك الفارس الذى زوجته ابنتك ميرونة ، وما هو بعزم المسيح ولا من دير نجران كما قال ، إنه من أمراء العرب واسمه عرقوص صاحب مدينة الرخام ، فغضب الصهيج وقال : وما رأى يا جوان ؟ فقال : إذا جاء الديوان فى الغد فضع فى الشراب بنجاً وأسقه ، فإذا أغمى عليه كتفتناه وقتلناه ، وفعل الملك ما أشار به جوان ، فلما كتفه رجاله أيقظه جوان وأمر الملك بقتله ، فقال البرتقش : لا تغرنك أيها الملك قدرتك على عرقوص الآن لأنكم خدعتموه ومكرتم به وكتفتموه ، فإن من ورائه أسوداً من العرب لا يقعدون عن الأخذ بثأره ، وستكون أنت وملكك وديارك ثمناً له ، فخاف الملك وأمر بإلقائه فى السجن ، وخرج جوان مغيضاً من تابعه البرتقش إذ كان السبب فى دفع الموت عنه ، فضى به إلى الكاهنة السوداء وأخبرها بما فعله وما قاله تابعه ، فقالت : خذ هذا الكتاب إلى الملك الصهيج واتنى بعرقوص من سجنه ، وقد أمرت الملك فى كتابي أن يعطيكه ، وجاءها به جوان فلما رآته أعجبها شكله وأشفت أن تطعم الموت بطلا شهماً مثله ، فقالت له : سأعذبك ولا أقتلك ، فإن تعذيب مثلك أحب إلى من قتله ، وخشى جوان أن يكون من ورائه رجال يحمونهم ، فخرج يمشى فى الخلاء مرسلًا بصره فى نواحيه فوجد إسماعيل ونصيراً النمر قادمين ، للبحث عنه لأنه لم يرجع إلى مدينته فارتد على عقبه مسرعاً إلى الكاهنة وأخبرها ، فأمرت رهطاً من الجن أن يخطفوهما فى الحال

ويحضر وهما بين يديها ففعلوا .

وسألتها الكاهنة : لم قدمتا إلى أرض الروم وليست لكما فيها حاجة ؟ فقال إسماعيل : نبحت عن ملكنا عرقوص ، فإن وجدناه في خير فرحنا ، وإن وجدناه في شر كنا له فدية ، فقالت لا فرحتما ولا كنتما له فدية ، ولكنكما أشرفتما على الملاك ، وليس بينكما وبينه إلا كلمة تخرج من فمي ، فقالا : ما كانت كلمة كاهنة مثلك قضاء لا يدفع ، وإن يد الله فوق أيديكم ، وقد وعدنا النصر والتأييد . وقطع حديثهم هذا دخول جماعة من البطارقة ، وفيهم غلام أمرد فتقدم إلى الكاهنة ، وقال : من هؤلاء الذين معك يا أمي ؟ فقالت : هذا جوان عالم الملة وتابعه ، وهذان عربيان قدما أرضنا فقبضت عليهما وعزمت على قتلها ، فقال : وما ذنبها عندك؟ فقالت : يحدثك عنها جوان عالم الملة فهو أعلم بها مني ، فقال جوان : هذان من أمراء العرب الذين قتلوا ابني أخي ملك الجزائر السود ، وقد قبضنا عليهما وأردنا قتلها ، ولكن البرتقش خوفنا من العرب ، فقال الغلام وكان اسمه مركن : وهل تعرف أنت بلاد العرب؟ فقال جوان : نعم ، فقال احبسوا هذين ، وتعال معي لتدلني عليها فقد عزمت على ألا أترك واحداً منهم ينشق نسيم الحياة ، فقالت الكاهنة : إذا فتحت مدينة الرخام فابعث إلي في الحال ، فإني راغبة في أن أعيش فيها . فقال : ستكونين فيها بعد أيام .

أخذ مركن جوان والبرتقش وركب في جيش إلى مدينة الرخام ففتحها بعد جهد جهيد ، وكتب إلى الكاهنة كتاباً يدعوها إلى الرحيل إلى المدينة

لتقييم فيها حسب رغبتها ، وأرسل به كبير البطارقة .

أخذ كبير البطارقة الكتاب ودخل على الكاهنة وناوله إياها ، ففضته وأخذت تقرأ وهي تبتسم ، وما انتهت من قراءته حتى أخذها نوم عميق ، وتقدم كبير البطارقة وذبحها بخنجره ، ثم تركها ودخل يجوس في قصرها فرأى جارية تصلى في غرفتها ، فاختمها وانتظر يرقبها ولما فرغت من صلاتها رفعت يديها إلى السماء ، وقالت : اللهم كما هديتني للإسلام وحكمت عليّ بالأسر عند الكفار ورزقتني هذا الغلام ، اهده للإيمان ، واجمع بيني وبينه فإنك أرحم الراحمين .

فتقدم كبير البطارقة إليها وسلم عليها فردت السلام فزعة مضطربة ، وقالت : من أنت ؟ فقال : لا بأس عليك أنا جمال الدين شيحة ، ومن أنت ؟ فقالت : أدركني . . . أنا جارية الأمير مسعود ، وابني هذا الغلام المسمى « مركن » وهو مسلم وأبوه قرا أصلان المغربي ، ولكنني في خوف عليك من الكاهنة الساحرة ، فقال : لا خوف ، فقد ذبحتها ، فقامت فرحة وقادته إلى السجن الذي فيه عرقوص وصاحباه ، ثم رحلوا جميعهم إلى جيش العرب المهزوم عند مدينة الرخام ، فاستقبلوهم فرحين ، وبرق لهم نجم الأمل في النصر المبين .

ولما جن الليل ذهب شيحة إلى الأعداء ، وكانوا لا يزالون معسكرين أمام مدينة الرخام ، فبنج الغلام « مركن » والبرتقش وجوان ، ثم سرقهم ونقلهم إلى جيش العرب ، وترك ورقة على فراش مركن مكتوباً فيها

أسرنا «مرکز» وجوان والبرتقش ، واعلموا أن مركز مسلم يؤيد العرب ، وقد جاء بكم لفنائكم ، فن بقي منكم بعد الصباح أذقناه شراب الموت . فلما استيقظوا ولم يجدوا قائدهم ولا جوان والبرتقش ، وعرفوا ما في الورقة دب في صدورهم ديبب الخوف ، وظنوا أن مركز قدم بهم إلى هذه المدينة ليهلكهم فشدوا رحالهم وأسرعوا إلى ديارهم خائبين .

وبحث شيخة عن قرا أصلان في جيش المسلمين ، ولما وجده جمعه بزوجته وابنه مركز ، وعرفته أمه أنه أبوه ، ففرح به ودخل في دينته ، وأصر أن يكون من أبطال العرب النابيين .

وذات ليلة رأى الملك الظاهر في منامه ما أفزعه ، وكان ذلك قبيل الفجر ، فاستيقظ مضطرباً ، وقام فتوضأ وتهجد وجعل ، يذكر الله حتى صلى الصبح ، ثم أخذ يتلو ما تيسر من القرآن .

وفي ضحوة النهار ذهب إلى الديوان وجلس في جمع من وزرائه وأمرائه ، وعلمائه ، فقال لهم : رأيت في المنام الليلة كأني جالس على كرسي في بستان ، فانقض طير أسود وخطف التاج من فوق رأسي وحط به بعيداً عني ، ومشى به سبع خطوات ، ثم حطت طائرة ونازعته التاج ، ولكنه غلبها ، وإذا سبع أقبيل فضرب الطير في رأسه ، وألقاه بعيداً ، فأخذت التاج ولبسته ، ثم انتبهت من نومي ، فقال أحد العلماء : سيأخذ منك الملك رومي ، ويمكن فيه سبع ساعات أو سبعة أيام أو سبعة أسابيع أو سبعة أعوام ، وتأتي امرأة من قوم المعتدي أسلمت وتحاول

دفع العلوان عنك وتلقى تعباً ونصباً ، ثم يأتي أحد أولياء الله فيرد إليك ملكك وتاجه ، بعد أن تمضى مدة هذه المحنة .

وذات يوم تابعت على الملك الظاهر وهو جالس في ديوانه من المدن كتب يقول كل منها : إن فلاناً لم يعد إلى المدينة منذ دعوته إليك وأخذته وقد غاب عن المدينة مدة طويلة . ولا ينبغي أن يترك المدينة أميرها وصاحبها هذه المدة ، فإن كان عندك وليس له عمل يقوم به أو منفعة يؤديها فأرسله إلى مدينته ، فعجب الملك وخاصته ، وقالوا : أين ذهب أمراء المدن وما دعوت واحداً منهم ؟ وبينما هم في حيرتهم هذه جاءه كتاب من صاحب غزة يقول : إن عندنا في الميناء مركب كبير يظهر عليه قصر جميل بالليل ويختفي بالنهار ، ونحن في حيرة من أمره ، فإذا رأيت أن تراه فنحن في انتظارك .

أخذ الملك أمراءه وسافر إلى غزة ليرى هذا القصر ولما كان في المدينة اهتم بأمر هذا القصر ، فكان يراه ليلاً ، وإذا ذهب إليه في النهار يجده قد اختفى ، ولبث على هذه الحال ثلاث ليال متتابعة . وفي الليلة الرابعة ذهبوا إليه فوجدوه ووجدوا بابه مفتوحاً ، فدخله الملك وإبراهيم وسعد وجماعة من الفداوية وبقية الأمراء ، وأخلو يتنقلون في أرجائه فأدهشهم ما فيه من أثاث فاخر وتمائيل وصور ذهبية رائعة ، ورأوا جوان جالساً فيه وأمامه كاهن طويل ترمى عيناه بالشرر ، فقال جوان : وقعتم في المصيدة ، وقال الكاهن : أمسكوهم : فوجد الملك وأمراءه أنفسهم

في الأغلال والقيود، والمركب يمحخر بهم عباب الماء ، أما القصر وما فيه من الأثاث والتماثيل فلم يكن له أثر . ففزعوا من هذه المكيدة التي دبرها جوان لهم ، وقال الملك : أرجو ألا يكون شيحة فينا ، فقال البرتقش إنه فيكم وما ترك جوان منكم أحداً ، فقال الملك : وأين تذهبون بنا ؟ فقال البرتقش : سأحكي لك ، على أن تعدني إن وقعت في أيديكم ألا تضربني فقال : أخبرنا ولك ما قلت : إن روميل ملك مدينة العروق والنهر الحرار طلب من أخيه صورميل أن يزوجه ابنته ، فقال له : لا يمكنني أن أفعل شيئاً إلا إذا أفتى عالم الملة جوان بجواز هذا الزواج ، فأحضر روميل جوان وعرض عليه الأمر ، فقال له : إن دفعت المهر الذي أطلبه زوجناكها ، فقال : وما ذلك المهر ؟ فقال جوان : أن تأتيني برعوس الملك الظاهر وامراته ، وكان روميل هذا كاهناً ساحراً له سلطان على مرده الجن ، فأخذ هذا المركب وسافر به إلى غزة ، وصنع بسحره هذا القصر الذي جاء بكم حتى وجدتم أنفسكم في أغلالكم وقيودكم ، فقال الملك : ما جاءتنا هذه النكبة إلا على يد شيحة لأنه كلما أردنا قتل جوان لنستريح من شره ، شفع فيه وقال لم يحن وقت قتله ، وإن وقع جوان في يدي هذه المرة فلا بد من قتله ، ولن أسمع فيه شفاعة . فقال الأمراء : وإن لم تقتله أنت قتلناه نحن .

وصلوا إلى مدينة العروق ، ونقل الأسرى إلى ديوان روميل الكاهن ، وجلس ومن حوله جوان والبرتقش وخاصته ، فقال روميل : يا جوان : هأنذا قد أحضرت ملك العرب وأمراءه ، فقال : لا ينفعنا حضورهم إلا إن قتلهم ، فأمر روميل

أن يقتلوا، فنظر الملك الظاهر إلى السماء وقال: أغثنا يا إلهي فإنك على كل شيء قدير، فما أتم دعاءه حتى كان عبد الله المغاوري في الديوان، فقال لروميل: يا عدو الله، أمن أجل بنت تزوجها تقتل ملوك العرب وأبطالهم؟! ثم ضربه بجريدة خضراء ضربة أردته قتيلا، وأشار إلى الملك الظاهر وأمراته بيده فانطلقوا من قيودهم وأغلاهم، وهم جوان والبرتقش أن يفرا ويهربا فلم يستطيعا أن يقوما، وكأنهما ثبتا في كرسيهما، وأمر المغاوري الملك والأمراء أن يقتلوا من في الديوان من الأعداء فقتلهم، وأسروا جوان والبرتقش وساروا متجهين إلى مصر، وكان دليلهم ورائدهم جمال الدين شبيحة. ولما استقروا في مصر جمع الملك العلماء والأمراء وهم يجوان ليقته على مرأى منهم، فاعترضه شبيحة ومنعه، وثار الجدل في قتل جوان وحماية شبيحة له، حتى رأوا يداً هائلة امتدت إلى جوان وأخذته من بينهم وارتفعت به إلى طبقات الجو العالية حتى اختفى عن أنظارهم.

كان في بلاد الشام مدينة اسمها قارصة، وفيها كاهن ساحر اسمه قبطاويل وله بنت، فأراد أن يتزوجها فأنكر العلماء عليه أن يتزوج ابنته، فقال: لا بد من ذلك، فقالوا له لا يجوز ذلك إلا في كتاب عند جوان عالم الملة اسمه «العنوز» وفيه البنت لأبيها تجوز ولأخيها تجوز، فأمر قبطاويل مardاً من مردة الجن أن يأتيه بجوان حيث يكون، فجاءه وخطفه من بين الملك والأمراء، فلما حضر بين أيدي الكاهن قبطاويل وعلماؤه، سأله عن الكتاب الذي عنده، فقال: نعم هو عندي وهو يجيز للأب أن يتزوج من ابنته إن دفع صداقها، فقال وما صداقها فقال: أن تقتل ملك العرب وأمراءه وتستولى على بلاده وتمحو من

الوجود دولتهم، فقال: ما طلبت مني إلا يسيراً من الأمر، ثم أمر مارداً من مردة الجن أن يخطف الملك الظاهر ويلقيه خلف جبل قاف، فاخطفه المارد وطار به وهو يسبح الله ويذكره، فأصاب المارد شهاب أحرقه ونزل الملك يهوى على كتيب من الرمل مغمى عليه، ولما أفاق وجد نفسه في مكان قفراً أنيس به، فشى قليلاً حتى أقبل المساء فوجد ثعبانين يجريان أحدهما يبغى على الآخر ويريد أن يقتله، فضرب الباغي بسيفه وقتله، وانتفض الثعبان الآخر، فإذا به فتاة تحمد الله وتقول: نجاك الله كما نجيتني، أنا بانة بنت الملك الأبيض، وهذا الذي قتلته لبخ ابن الملك الأسود وهو كافر، وأرادني له، ولكني أبيت لكفرة وجحوده، ولولاك ما نجوت من شره، فمن أنت أيها الإنسي الكريم؟ فعرفها الملك بنفسه وما وقع له ولأمرائه. فقالت: سر معي إلى أبي، فأعاه يجزيك بما قدمت لابنته من الخير، ويعينك على أعدائك ويردك إلى بلادك ويعيد إليك ملكك، فسار معها، ولما رآه أبوها قال: أهلاً بملك العرب، ثم أجلسه وقال: إنك لن تعود إلى بلادك: إلا بعد سبع سنين، وهذا ما قدره الله عليك، فأقم معنا حتى ينتهي ما بقي منها، فأقام في سعة من العيش ورخائه.

ولما انتهت المدة أحضر الملك الأبيض مارداً من الجن وأمره أن يطير بالملك الظاهر إلى بلاد توريز العجم، فحمله وطار به حتى أنزله فيها وتركه.

وسار الملك حتى دخل على هلاوون في قصره، فعرفه الملك بنفسه فأجلسه هلاوون وأكرمه، ثم استشار وزيره فيما يفعله بعدوه الملك الظاهر، أما رشيد الدولة فإنه أشار عليه أن يكرم مثواه ليقدم له بذلك معروفاً يحفظ عنده ويذكره

له ، وأما الوزير الآخر فإنه أشار عليه أن يقتله ليشنى غليل صدره ، ويكون له هبة عند ملك الروم يقتله ، فأطاع هلاوون رأى الوزير الأول وأطلقه ، فسار إلى الخلاء ماشياً إلى حيث لا يدري ، وبينما هو سائر عثر في طريقه على خيام منصوبة وفيها رجال من العرب فأوى إليهم واستقبلوه بالفرح والسرور وأخذوه إلى رئيسهم ، فحياه وأجلسه إلى جانبه وأحضر الطعام فأكل معهم . وعلى غفلة منه وضع البنج في قدح الشراب وناوله إياه فشرب وما لبث أن غلبه النوم وأطبق عليه الإغماء ثم كتفه وأعطاه شيئاً أبقظه . فنظر إليه وإلى من حوله فوجدهم قد لبسوا ثياب الروم بعد أن كانوا يلبسون ثياب العرب ، فقال : ما هذا الذي أراه منكم ، لقد كنتم من العرب والآن أجدكم من الروم وقد كتفتموني ، فما شأنكم معي ؟ فقال : أنا قبطان الملك هلاوون وقد خرجت في هؤلاء البطارقة للقبض عليك . وذلك ما فعلناه .

ثم ركبوا في فلكهم وجرى بهم في البحر إلى مدينة هلاوون ، ولكن الرياح غضبت فثارت ودفعت الفلك تجرى في سبيلها حتى دخلت بها ميناء الملكة تيجان ، على غير استئذان من حراسها ، فسألوا ربانها ، فقال : هذا فلك الملك هلاوون وأنا ربانه ، فأخبروا الملكة أن بالميناء سفينة فيها ربان الملك هلاوون ورجاله ، فقالت : اقتلوهم ، فهجموا عليهم وقتلوا بعضهم وأسروا بقيتهم . ورأوا الملك الظاهر على غير شكلهم وهو بينهم مكتف مقيد ، فسألوا الأسرى من رجال هلاوون : ومن هذا الذي كتفتموه ؟ فقالوا الظاهر ملك العرب ، فأطلقوه وأخذوه إلى الملكة وقالوا لها : هذا ملك

العرب وجدناه أسيراً في يد الروم وقد كنفوه وقيدوه ، فأطلقناه من كنفه وقبوه
 وجئنا به إليك ، فقالت : أنت الظاهر بيبرس؟ فقال : نعم ، فقالت : شرفت
 بك ديارى ، فأقم معى عزيزاً كريماً ، وذلك قضاء الله وعماً قليل يكشف الله
 عنك الكرب وينعم عليك بالعودة إلى بلادك ، ثم أطلقت الأسرى وقالت :
 بلغوا هلاوون ملككم أن ملك العرب عندى فإذا رغب فى الموت فليطلبه منى .
 كانت تاج ناس بنت قبطاويل كلما استفتت الرمل عرفت منه أن قتل
 أبيها سيكون على يديها ، وأنها ستدخل فى دين الله ، وأنها ستزوج من جمال
 الدين شيحة ، فأمرت المارد أن يأتيها به حيث يكون ، فطار فى الجو باحثاً عنه
 حتى وجده فى مصر فاخطفه وطار به ، ووضع بين يديها ، فقالت له ما عرفته
 من الرمل كلما استفتيته ، ثم سأله : ماذا ترى؟ فقال : إنى لك كما تريد ،
 فقالت له : علمنى أولاً كيف أدخل فى دين الإسلام ، فعلمها وأسلمت
 وأنابت إلى ربها وصارت من المؤمنات ، ثم أحضر اثنين من خدمها وأسلمها ،
 وأبرم عقد زواجه بها أمامهما ثم سألهما : هل تعرفين أين الملك الظاهر الآن ،
 فقامت إلى رملها ونظرت فيه مستفتية ، ثم قالت : إنه فى مدينة الملكة تيجان ،
 فقال : أحب أن أكون عنده ، فأحضرت المارد وأمرته أن يحملهما إلى
 قصر تيجان فى مدينتها ، فحملهما وطار بهما حتى وضعهما فى قصر تيجان .
 ورأت تاج ناس أن الحرب قائمة بين تيجان وهلاوون فأمرت المارد أن
 يلقى على هلاوون وجنوده حجارة تدمرهم ، فقال : سمعاً وطاعة .

وجد هلاوون أن الحجارة تصب عليهم من السماء صباً فتدمر كل من

أصابته ونزلت عليه، ووجدوا أنهم لا طاقة لهم بدفعها ولا الصبر على خطرها فقروا هارين. ودخل جمال الدين على الملك الظاهر ففرح به، ثم حكى له ما فعلته تاج ناس، فزاد سروره بها وقال: إني راغب أن أزوج عرقوصاً تيجان كما تزوجت تاج ناس، فأمرت المارد أن يأتيهم بعرقوص فغاب قليلاً ثم جاءهم به، وتعارفوا وتم زواجه من تيجان، ثم جمعت رجالها وجنودها ورحل جميعهم إلى الشام، ومنها إلى مصر. وكان الملك كلما مر بمدينة تبعه جنودها وأمرؤها. حتى صار في جيش يهز الأرض بسيره هزاً، واستمروا سائرين حتى أشرفوا على مصر، ونقل خبرهم إلى قبطاويل وجوان.

غضب قبطاويل على ابنته تاج ناس وخرج إليها في جنوده، ثم طلب ابنته فخرجت إليه، فقال لها: تركت دين آباءك وأجدادك وجئت لقتالي ونسيت أني الذي علمتك السحر، فقالت: وسأحاربك بما علمتني وما النصر إلا من عند الله، وكان كلما هجم عليها بباب من أبواب السحر أبطلته حتى كاد أن يستيئس ويفلس، وإذا بإمرأة ساحرة قد أقبلت في حلة خضراء، وقالت: إنك يا علو الله تفسد في الأرض، ثم ضربته على وجهه فخرس لسانه وجمد في مكانه، وتقدمت إليه ابنته فضربته بالسيف ضربة، شقته نصفين، ومضى شيحة إلى جوان، فقال: مرحباً بسلالة إبليس اللعين، فقال: يا أبا محمد اعتقني هذه النوبة، فقال: بعد أن تأخذ نصيبك من الضرب والتعذيب. وهم شيحة ليضربه وإذا به قد خطف من أمامه. ونزلت عليه من الجو ورقة فأخذها وقرأ ما فيها فوجده: قتلتم أخي

قبطاويل وسأقتلكم فيه ولا أبقى منكم أحداً ، وغداً ستظنون . فقالت تاج ناس : لا يهولنك وعيده ، وغداً نكون عنده في قلوصة .

كان لقبطاويل أخ جبار عنيد اسمه قبطال وهو كاهن ساحر وله من الجن أعوان ، ولما علم أن أخاه قتلته ابنته ، أعلن أنه لن يتركها حتى يقتلها ، فقيل له : إنك لن تستطيع أن تفعل شيئاً إلا بمعونة جوان وكبده ، فأمر مardاً من أعوانه فحفظه من بين يدي شيحة ، وجاءه به ، فقال له قبطال : لقد قتلت أخى وحرمتنى منه ، فقال : وكيف يقتل ساحراً مثل أخيك رجل مثل لا يعرف من السحر شيئاً؟ ما قتل أشاك إلا ابنته تاج ناس ، وقد أسلمت وتزوجت من شيحة ، فإن أردت أن تنأى له فاقتلها واقتل معها ملك العرب وأمراءهم ، فإن كنت عاجزاً فالزم عقر دارك خائباً ذليلاً ، فاحتدم الغيظ في صدره وقال : وما أنا بساكت عن العرب حتى أفنيهم وأملك أرضهم وديارهم ، وسترى يا جوان غداً ما يكون ، وبات عازماً على غزوهم ومحو آثارهم .

بغت قبطال بجيش العرب وهو معسكر أمام مدينته قلوصة ، فخرج إليهم مندراً متوعداً وقال : سأقضى عليكم بسيفي هذا فارساً من بعد فارس ، فن أراد منكم أن يذوق طعم الموت فليبرز إلى ، فأسرع إليه أيديم البهلوان فأسره وطرح به إلى مدينته ، ثم أسر من بعده خمسة أبطال ، ودق طبل الهدنة ، ودخل شيحة على زوجته غضبان أسفاً وقال : أخشى أن يقتل عمك قبطال من أسرهم من فرسان العرب ، فقالت : لا خوف عليهم ،

وأمرت المارد خادمها أن يبدل بهم خمسة أبطال من الروم، ويلبسهم ثيابهم ويضعهم مكانهم، ويأتيها بفرسان العرب الذين أسرهم معها ففعل ما أمرت، ولما رجع قبطال وهو فرح بمن أسرهم قال له جوان: اقطع رعوس الأسرى. وطوح بها في وجوه العرب لتملاً صدورهم رعباً وخوفاً، ففعل ما أمره به جوان، فقال الملك الظاهر: أرايت يا شيحة كيف فعل قبطال بأبطال العرب؟ فقال شيحة: لا خوف على أبطالنا، وهذه رعوس أبطال من الروم، وحكى له ما فعلته زوجته تاج ناس، فقال: تقبل الله إيمانها وجعلها خير عون لعباده الصالحين، ثم دام الأمر على هذه الحال يومين، وفي اليوم الثالث أسر قبطال أيدمر البهلوان وأحضره ليقتله، فلما رآه جوان قال: انتظر يا قبطال، لقد أسرت هذا في اليوم الأول وقتلته. فكيف رجع إليك وحاربك حتى أسرته، فاستفتى قبطال رمله فوجد أن الذين قتلهم من أبطال الروم، وأما أبطال العرب فقد رجعوا إلى قومهم سالمين، وأن هذا من صنع ابنة أخيه الساحرة، فقال جوان: أليس لك حيلة فيها؟ فقال: عندي ألف حيلة، ثم سحر نفسه فكان مثل زوجها شيحة ومشى حتى دخل عليها؟ فاستقبلته كما تستقبل زوجها وأحضرت له الطعام فأكل وناولته قدح الشراب فشرب نصفه، ثم وضع فيه بنجاً، وقال لها اشربي معي هذا القدح فإنني وجدته لذيذاً وأحببت أن تشاركني فيه، فشربت وسقطت مغشياً عليها، وأمر مardاً من أعوانه أن يحملها إلى مدينته، ثم انطلق راجعاً، وحبسها عنده، ولما دخل شيحة على زوجته ولم يجدها فرغ إلى الملك وأخبره، وقال

ما سرقها لإاعمها بسحره ، فقال : الله أكبر وأقوى ، ينصر من يشاء ، وهو القوى العزيز ، ثم ابتهل إلى الله أن يكشف عن العرب كيد هذا الساحر ، فاستجاب له ، وجاءه عبد الله المغاوري فأبطل سحر هذا اللعين ، وأمر العرب أن يدخلوا المدينة ويعملوا فيها سيوفهم ، فانفلتوا كالجراد ، وجعلوا يقاتون الأعداء ، وهجموا على قبطل في مكانه فضر به إبراهيم بسيفه ضربة أراقت دمه وأعدمته الحياة ، وملكوا المدينة وأعتقوا تاج ناس من سجنها ، ثم رجعوا إلى مصر ظافرين .

وجاء كتاب من شيخ عرب الطور يقول : جاءتنا سفينة من بلاد الهند وفيها ستون وزيراً يحملون الهدايا ويريدون لقاء الملك الظاهر ، فأمر الملك بإحضارهم ، فلما حضروا سلموا وقدموا إليه الهدايا من قماش وسكر وأعواد من ذهب وفضة وغير ذلك من كل شيء طريف وثمين ، وقال كبيرهم : نحن وزراء ستين ملكاً من ملوك الهند ، وفيها مدينة اسمها السن والكوكب ، وملكها الحكيم لوكيان ، وله تلاميذ يتلقون منه الحكمة ، وفيهم تلميذ اسمه مجرم ، وقد عهد إليه بملكه ، لأنه كان عقيماً لم يعقب ، وقد مات لوكيان ، وتولى الملك من بعده تلميذه مجرم ، ولما مرض أخوه نكدان مرضاً حارث فيه الأطباء ، أحضر له طبيباً من بلاد الصين وفحصه وصنع له طعاماً يأكل منه فبرئ في الحال ، فقال له مجرم : خذ ما شئت من المال وعلمنا كيف نصنع هذا الطعام . فقال : إنه من لحم الموتى من بنى الإنسان ، ثم رحل الطبيب إلى بلاده ، وعاوده المرض فجعل أخوه (مجرم) يحضر القبور ويأتيه بلحوم الموتى ، وهو يأكلها بنهم حتى صار غولاً ، وسمى نكدان الغول . وطلب منا هذا الملك أن نعطيه الخراج أرقاء ليزبجهم لأخيه المنهوم ، ولما نفذ الأرقاء طلب أن نرسل إليه أولادنا فامتعتنا فحاربنا بسحره وضايقنا وملأ صدورنا وعباً . وقدم علينا درويش فآلته حالتنا وقال : إن أردتم كشف هذا الظلم عنكم ، فذهبوا إلى

الملك الظاهر في مصر واستعينوا به ، فإنه يعين المنكوب وينصف المظلوم والمغلوب ، وذلك ما جئناك فيه ، فقال لوزيره : خذهم عندك ، وأحسن مقامهم حتى أدعوهم .

أقاموا عند الوزير سنة ، وما دعاهم الملك إليه ولا سأل عنهم ، فقالوا : لوزيره : طال بنا الانتظار ولا ندرى ما وقع في بلادنا فهلا ذكرت الملك بنا ؟ فبلغ الملك ما قالوه فأحضرهم وأرضاهم بالكلم الطيب ، وقال لهم : سافروا إلى بلادكم وإني لاحق بكم ، بعد أن أفرغ لكم ، فسافروا وهم يعلمون أنه في شغل شاغل عنهم .

وذات يوم قدم إليه أعجمي وقال : إني من خوارزم ومعى تجارة أريد بيعها بعد أن تأذن لي ، فقال : بع ما شئت على الرجب والسعة ، وبعد أيام جاءه هذا الأعجمي في ديوانه واستأذنه في العودة إلى بلاده بعد أن باع تجارته ، فقال له الملك : مع السلامة ، ولعلك رجحت في بلادنا فقال الأعجمي : ما وجدت إلا كل خير ، ولكن معى فرساً أمه من خيل البحر ومن الخطأ أن أبيع لمن لا يعرفه ، فقال الملك : هاته فإنه ينفعنى . فلما أحضره ورآه عثمان ، قال : الله الله ! وهذه مكيدة من بلاد الهند ، وما هذا فرس ، ولكنه جنى في صورته ، فهض إبراهيم وأطاح برأس الأعجمي فاختنى الفرس ، ولا يعلم أحد أين ذهب ، فأخذ العجب مأخذه من نفوس الملك وجلساته .

ودعى الملك إلى حفلة وفاء النيل في السفينة التي أعدت له ، فركب

فيها ومعه جمع كبير من الوزراء والأمراء والأعيان ، ونحرت بهم عباب النيل وهم فرحون بما أنعم الله عليهم من الماء الذى به حياتهم وحياة أرضهم . وتوابب السمك على السفينة وهى تجرى فى شكل عجيب جميل ، وأطل عليه الملك فوجد سمكة كبيرة بجوار السفينة وفى فيها كتاب وكأنها تقول للملك خذ هذا الكتاب من فى ، قد الملك يده ليأخذه من فيها فوثب السمك من حولها وأمسك الملك وجذبه وهوى به فى أعماق الماء ، والتقمه النهر وغاب عن الأعين ، فذهل الجمع وفرعوا إلى الغطاسين ، ففتشوا باحثين عن الملك فى النهر فما عثروا له على أثر .

وذاع هذا الخبر وأطبق الحزن على المدينة وحارت عقول الوزراء والأمراء ، وقال إبراهيم : ما أظن هذا إلا كيد ساحر وهو باطل حيث أتى ، فإن علماء النجوم قالوا : إن جوان سيموت بسيف الملك . وهذا جوان لا يزال حياً يرزق ، فقال محمد السعيد : لا يعلم الغيب إلا الله ، وإذا كان هؤلاء العلماء لا يعلمون شيئاً عن كنوز الأرض فكيف نصدقهم إذا جاءونا بنجر السماء !! !

وبينما هم فى اضطرابهم هذا قدم إليهم شيحة ، وبعد أن سلم عليهم وجلس قال لمحمد السعيد : اجلس مكان أهلك حتى يعود ، فإنه ذهب إلى مدينة السن والكوكب فى الهند ركباً ، ولكنى سأدركه ماشياً ، والله يهون علينا كل عسير : فقال إبراهيم : ذلك حق ، ثم قال لهم شيحة : وقد جعلت إبراهيم نائباً عنى فى القلاع ، فإذا بلغكم موتى فاختراروا من

تشاعون ، ثم تركهم ومضى إلى زوجته تاج ناس في قلوصة ، وحكى لها ما حصل للملك الظاهر فقالت : خطفه كاهن كافر في مدينة السن والكوكب بالهند ، فقال : إن من واجبك أن تساعديني في عودته ؛ فقالت : على شرط ألا تجعل في عصمتك زوجة غيري ، فقال : ذلك لا يكون أبداً . فقالت : لو علمت ما تلاقيه هناك من الأهوال وعلمت مبلغ حاجتك إلى المعونة لرضيت ، فقال : إني وهبت حياتي للجهاد في سبيل الله ، ولا أفتأ أطلب منه المعونة والتأييد ، وقد توكلت على ربي وسلامي عليك . وتركها وخرج .

كان خطف الملك من السفينة بسبب مجرم الكاهن ملك السن والكوكب ، فقد كلف أحد أتباعه من الجن أن يأتيه بالملك بأية وسيلة ، وتمكن هذا التابع من خطفه يوم الاحتفال بوفاء النيل .

ولما كان الملك بين يدي مجرم ملك السن والكوكب قال له مقرعاً : أنت الظاهر الذي طمعت في هلاكى وتخريب بلادى؟! لقد خطفك أحد أتباعى من بين رجالك وحرسك ، وما استطعت أن تحمى نفسك ، فقال الملك : أبشر بهلاكك وخراب بلادك ، لقد منعنى عن الهجى إليك بعد الشقة على جنودى ، وما دمت قد أسرته فأبشر بالهلاك والدمار ، فاغناظ مجرم وأراد أن يذبحه ويضعه أمام أخيه ليأكله ، فقال الوزير : انظر حى يأتى رجاله لتذبحهم معه ، فقال : مجرم له : وهل يستطيع أحد من رجاله أن يجيئ إلى بلادى وهم لا يعرفون الطريق إليها ؟ فقال :

كلهم سيجيئون ، وفيهم شيحة الذى له طرق لا يعرفها أتباعك من الجن ، فحبسه فى سجن وحده وقال : هذا قبرك الذى ستموت فيه صبراً .

أما جمال الدين شيحة فإنه سار حتى كان فى واد غاص بالذئاب ، فاحتال على أحدها حتى ذبحه وسلخه ، ولبس جلده وبدا كأنه ذئب ، وطمع فيه ذئب كبير يريد اقتراسه ، فتذكر ابنه محمداً السابق ، وقال : ليتك معى يا محمد ، فإنك أقدر منى على هذه الوحوش الضارية ، فضحك الذئب الكبير وقال : هاأنذا ابنك محمد أيها الوالد ، فأنس به ورجعا إلى صورتها ومضيا فى طريقهما حتى كانا على شاطئ بحر ، فوجدوا سفينة هندية راسية ، لأن أصحابها يأخذون حاجتهم من المياه العذبة من تلك الأرض ، وعرفا منهم أنهم ذاهبون إلى الهند ، فسألهم أن يأخذوهم معهم ، على أن يعطيهم أربعين ديناراً ، فرفضوا وركبا معوم فى السفينة .

وبينما هم سائرون عصفت الرياح وهاج البحر وتواثبت الأمواج وأظلم الجو وطلع عليهم من البحر أربع « هوايش » أحاطت بالسفينة ، فقال بعضهم لبعض : يحسن أن نلقى هذين الرجلين الغريبيين إلى « الهوايش » لتتلهى بأكلهما ونفتدى بهما إلى أن ننجو بالسفينة ، فأحضر كبيرهم شيحة وقال له : ما اسمك ؟ فقال : اسمى الشيخ « بزبوز » ، فقال : وما اسم رفيقك ؟ فقال : اسمه الشيخ « عنطوز » ، فقال : إن قدرتما على دفع هذه « الهوايش » عنا ننجونا ونجوتما وإلا ألقينا كما إليها وافتدينا بكما

فقال شيحة: أنا أردتها عنكم وأطعمكم من لحمها إن أحضرتكم لى أربعة خراف ، فجاءوه بها ، فذبح الحروف الأول ومزج لحمه بالسلم القاتل وألقم « الهايشة » الأولى لحمه ، فانت لساعتها ، وكذلك فعل مع الثانية والثالثة ، أما الرابعة فأطعمها لحم الحروف الرابع بعد أن ذبحه ومزج لحمه بالبنيج ، فخذرت وأغمى عليها وطفقت على وجه الماء كأنها ميتة وقال لهم خذوها وكلوا لحمها ، فأخرجوها من الماء وقطعوها وشووها وأكلوها ، وسارت بهم السفينة ، ولما رست بهم على الشاطئ لأخذ المياه العذبة ، أشار محمد على أبيه أن يتزلا إلى الأرض ويتوكلا على الله مخافة أن يغدر بهما أصحاب السفينة ، فوافق هذا ما فى نفسه ونزلا من السفينة وأخذوا يمشيان فى الأرض على هدى من الرجاء والأمل ، حتى كانا عند مدينة السن والكوكب ، فقال محمد السابق: كل منا يمشى وحده ويسلك سبيله إلى أن يأذن الله باجتماعنا .

دخل شيحة المدينة وجلس فى مكان بها وبسط الرمل أمامه ، كأنه « رمال » يستوحى الرمل ويستفتيه ، فر به الملك مجرم فى موكبه ، فلما رآه أقبل إليه وقال : أريد منك يا « رمال » أن تعرف لى من رملك اسماً أوله شين وآخره هاء فجعل يخط بإصبعه فى الرمل ، ثم التفت إليه وقال : هذا شيحة يا سيدى ، فقال : هل تعرفه ؟ فقال : لا أعرف أحداً ، ولكن الرمل عرفنى هذا الاسم ، فأمر أن يطرح فى السجن مع الملك الظاهر ، فلما كان عنده وعرفه ، قال الملك : لاحول ولا قوة إلا بالله . وكان

محمد السابق مع الملك في موكب كآنه أحد رجاله، فعرف مكان الملك وأبيه ،
 وفي الليل استطاع أن يفتح باب السجن ويدخل إليهما، ثم قال لهما: اتبعاني
 لنفر من هذه المدينة ، فشوا قليلا وإذا هم في سجن آخر ذى أربعة
 جدران وليس له باب ، فأسلموا أمرهم إلى الله ، وقال الملك : هذا قضاء
 الله الذى لا راد له ، ثم سأل محمداً السابق أن يحدثه : كيف قدم هو
 وأبوه إلى هذه المدينة . فأخذ يحدثه ويقص عليه ، واستفتى الملك مجرم
 الرمل ليعرف : هل وراء الملك ومن معه أبطال يخشى على نفسه منهم ،
 فعرفه أن من خلفهم أبطالاً شداداً هم عرقوص وإسماعيل ونصير النمر ،
 فأمر أتباعه من الجن أن يخطفوهم فجاءوه بهم وألقاهم في السجن مع الملك
 وشيخة وابنه ، وكان المفتاح مع ابنته « بنورة » .

رأت « بنورة » في منامها ذات ليلة أن القيامة قامت وحشر الناس
 للحساب، وأنها أمر بها أن تلتقى في النار، فاستجارت برجل من الجمع ،
 فأخذها وأدخلها الجنة ، فسألته : ما اسمك يا سيدى ؟ فقال : معروف
 ابن حجر ، وأنت زوجة ابني عرقوص الذى حبسه أبوك في السجن الذى
 تحملين مفتاحه ، فإذا أردت أن تنقذى نفسك من النار وتدخلى الجنة
 فاقتلى أباك الكافر وادخلى في دين الإسلام ، وقد رأيت بعينى رأسك
 مصير المؤمن والكافر في هذا اليوم العصيب ، فاستيقظت بنورة من
 نومها وقلبا ينبض بحجة الإيمان والرغبة فيه ، ودخلت على الملك وصحبه ،
 وقصت رؤياها عليهم ، وأسلمت على أيديهم وزوجوها من عرقوص ، ثم

قالت : علموني كيف أحتال لقتل مجرم الكافر ، الذى وقف سداً منيعاً بين المرء وربه ، وحاجزاً بين المرء وسعادته ، فقال شيحة : خذى هذا السم القاتل لساعته وضعيه فى طعامه أو شرابه . فأخذته وخرجت ، ولما أحضرت الطعام لأبيها وضعت فيه السم فمضت إلى عمها نكدان ووضعت السم فى اللحم الذى يأكله ، فانقلب فى الحال مستلقياً على ظهره ولا روح فيه ، ثم دخلت على الملك وصحبه وبلغتهم نبأ قتلها لأبيها وعمها ، فشكروا لها معروفها وقال شيحة : وعلى أنا إتمام ما بدأت ، ثم أخرج مرآة الصور ، وجعل بها الملك الظاهر فى صورة أبيها وجعل نفسه فى صورة عمها ، وأخفوا على المدينة قتل مجرم وأخيه ، وجلس الملك الظاهر على عرش المدينة وأرسل مع أتباع بنورة كتباً إلى الملوك التابعين لأبيها يقول فيها : قد كنتم أرسلتم وزراءكم إلينا لتتقدّم من ظلم مجرم ، وقد جنتكم وقتلت الملك الظالم وتوليت الحكم فى مدينته فإذا قرأتم كتابى هذا فأرسلوا وزراءكم ومعهم جنود محاربون حتى أقضى على أشياعه وأعوانه وأمحو من الوجود آثاره لتعيشوا فى سلام وأمن هانئين ، ولما كانت جيوشهم فى المدينة ظهر الملك فى صورته ، وظهر شيحة فى صورته ، ونادى الملك فيهم أن اضربوا أعداءكم بسيوفكم ، وكان قد غاظهم ظلم مجرم فاستماتوا فى القتال ، حتى انتصروا ونشر الملك الإسلام فى المدينة وأجلس بنورة على عرش أبيها ، ثم أمرت تابعها أن يحمل الملك وصحبه إلى مصر ، فحملهم وأرجعهم إليها سالمين .

كان الملك الظاهر قد ركب الفلك ومعه عرقوص وثلة من رجاله وجنوده ، وكان يريد أن يتفقد الساحل ، وبينما يجرى بهم الفلك ثارت رياح البحر ودفعت الفلك إلى جزيرة فيه ، فقال عرقوص سأنزل في هذه الجزيرة وآتيكم ببحرها ، فقال الملك : لن تذهب إليها وحدك وسأكون معك .

وسار الملك وعرقوص في تلك الجزيرة قليلا ، وإذا بعرقوص قد خطف وطار في الجو حتى غاب عن عيني الملك الظاهر وهو لا يدري من خطفه ولا إلى أين ذهب ، فرجع إلى الفلك حزينا وهو مصر ألا يبرح مكانه حتى يقف على مصير عرقوص . ولما علم رجاله وجنوده بما وقع لعرقوص حزنوا عليه حزنا أليماً .

وجاء الليل ولنهم في ثياب من ظلامه ونومه ، ثم استيقظوا في الصباح فوجدوا أنفسهم في ميناء الإسكندرية ، أما الجزيرة التي كانوا عندها فهم لا يعرفون مكانها ، فأسلموا الأمر لله وانتظروا ما يأتي به القدر .

أما عرقوص فإن المارد الذي خطفه أنزله في قصر يسم بالنعيم ويشرق بالجمال ، فما لبث فيه قليلا حتى جاءتته فتاة في ربيع حياتها تشع جمالا

وسحراً ، في ثياب براقه تم عن أنها من بنات الملوك الإفرنج ، فحدثها
 بلغتها قائلاً: أين أنا الآن ؟ فقالت : أنت عندي فأنا زهرة بنت الملك
 الكاهن رصيد ، ولا خوف عليك إن كنت « عرقوصاً » ، فقال : وأنا
 عرقوص يا بنت الكرام ، ولكن أين أنا الآن ؛ ومن الذي جاء بي ؟ ولأى
 شيء هذا ؟ فقالت : أنت الآن في جزائر الزهور التي لأبي الملك الكاهن
 رصيد ، واستمع لما أقول : بلغ أوى هذا من الكبر عتياً وما رزق من
 الأولاد إلا بينت واحدة ، وهى زهرة التي تحدثك وتجيئك عما سألت ،
 فبنى لى هذا القصر وأسكننى فيه ، وذات يوم استفتى رمله : هل يدوم
 الملك لى من بعده أو ينازعنى فيه أحد من أعدائه ، فأوحى إليه رمله أن
 أحد ملوك النصارى سيعكر على صفو الملك من بعد أوى ، فصنع لى
 بسحره بذلة إن لبستها لا يؤثر فى سلاح العدو ، ثم استفتى رمله مرة ثانية
 فعرف منه أنى سأنتصر على يد مسلم من المسلمين اسمه عرقوص ، فقال
 لى : إذا رأيت العدو قد أقبل فافركى هذا بيدك وستجدين المارد قد جاءك
 بعرقوص ووضعه بين يديك ، فإذا جاء فامنحيه جواداً من خيل البحر
 وهو فى مكان كذا ، وقد كلفت مارداً من الجن يقوم بشئونه والحفاظة
 عليه ، حتى يأتى عرقوص ويأخذه ليقاتل عليه أعداءك ، وفى مكان كذا
 حلة سحرية لعرقوص يلبسها فى أثناء القتال لتحميه من سيوف الأعداء ،
 ومعها عقد من الجوهر به أربعون جوهرة قيمة كل واحدة فيها خراج بلاد
 الروم ، وقال أبى : إذا قهر عرقوص أعداءك ، ونظف البلاد منهم

فاقتليه ، فقلت له : وكيف أقتله بعد معرفته هذا ، وأعيش بلا زوج ولا أنيس ؟ ! فأحضر لى بنتاً جميلة ، وقال : هذه البنت تؤنسك وتعيش معك ، وما مضى على ألى بعد هذا أيام حتى مات .

وعلى مقربة من جزائر الزهور الجزيرة الصفراء وملكها صافور الكاهن ، فقال لوزيره : إن ملك جزائر الزهور قد مات ، وأريد أن أخذ ابنته زهرة وأملك جزائره ، فقال الوزير : أرسل إلى ابنته واخطبها لنفسك ، فإن رضيت بزواجك منها فقد أخذتها وملكت جزائرها ، وإن أبت فحاربها ولك الآن عذرک في قتالها ، قالت زهرة : فبعث إلى رسالة يخطبني فيها فأجبتة : ما كانت الخطبة بالرسائل دون تعارف ، ولهذا يجب عليك أن تسلك سبله ، حتى تعرفني وأعرفك ، وأطلعك على ما في نفسي كما تطلعن على ما في نفسك حتى تكون الحياة الزوجية دائمة وسعيدة ، ولا بأس من حضورك ليرى كل منا صاحبه ، ثم نهضت إلى الرصد ففركته وكلفت المارد أن يأتيني بك ويذهب بملك الظاهر إلى ميناء الإسكندرية وهذا ما فعلته ، وهذه قصتي ، وأنا بين يديك . وكان قلبها قد امتلأ بمحبتة ، والرغبة في الزواج منه ، فقال عرقوص : وماذا أردت من عملك هذا ؟ فقالت : ما أردت إلا أن تطرد هذا الملك عني ، وتكفيني شره ، ثم لى معك بعد هذا كلام ، ولكن قبل أن تخطو خطوة فيما عزم عليه خذ هذه الحلة التي صنعها أبي والبسها حتى لا يؤثر فيك سحر هذا الملك وسيفه ، وأنا ألبس هذه الحلة أيضاً حتى لا يؤثر في سحره وسيفه ، ثم

لبس كل منهما حلته .

وبعد أيام قدم الملك صافور في جنده ، لأنه توقع ألا ترضى به ،
وحينئذ يحاربها ويأخذها غضباً ، وعسكر في مكان مشرف على قصر
زهرة ، وأرسل إليها وزيره ، فلما دخل عليها لقيه عرقوص وسأله : فم
جئت ؟ فقال : إني رسول الملك صافور إلى الملكة زهرة لأخطبها إليه ،
فقال له : ارجع إلى ملكك وقل له : إن الملكة زهرة وجزائرها في يد
عرقوص صاحب مدينة الرخام ، فإن أردت الخير لنفسك فارجع أنت
وجندك إلى مدينتك في سلامة وعافية ، وإلا فالسيف بيني وبينه والله
يفعل ما يشاء . فلما رجع الوزير وأخبره بما قاله عرقوص استشاط غضباً
وأصر على قتاله .

وفي الصباح كان قد صف الجنود وانتظروا أمره بالقتال ، وأسرع
عرقوص إلى الميدان على فرس البحر وجال فيه وقال : يا معشر النصارى ،
إن صافور ملككم قد ساقكم إلى ساحة الوغى من أجل زواجه من الملكة
زهرة ، وإن سفك الدماء بغير حق محرم في جميع الأديان السماوية ، والحق
يقضى ألا يلقى بغيره إلى التهلكة من أجل نفسه ، فإن كان مصرأً على
ما أراده فليبرز هو نفسه لقتالي فإن غلبته لقي جزاءه وكان لكم الأمر
من بعده ، وإن غلبني كان جديراً بما طلبه ، فأثار هذا القول الحمية
في رأس صافور وأسرع بجواده إليه ، وقامت بينهما مبارزة عنيفة أنجلت
عن أسر الملك صافور ، فأخذ عرقوص ومضى به إلى قصر الملكة زهرة ،

وقال لها : هذا غريمك بين يديك فاحكمي فيه بما تشائين ، فقال الملك صافور : أيها الملكة الكريمة ، العفو شيمة النفوس الكبيرة ، وعهد مني إليك أن أكون في طاعتك وألا أخونك ما حييت ، فأكبرت نفسها أن تضن بالعفو على ملك ندم وأتاب وتضرع ورجا ، وقالت لعرقوص : أعتقه ليذهب إلى جنده ، فأركبه جواداً كريماً وأخلى سبيله .

وكان جنده قد أرادوا أن يقاتلوا بعد أسره ، ولكن الوزير منعهم وقال : انتظروا حتى الصباح ، فلعل الأمر يجرى في ملككم على غير ما تخشون ، وفي الثلث الأول من الليل قدم عليهم ملكهم ففرحوا به وجعل يحدّثهم عن عظمة عرقوص وكريم سجايه ، ثم أعد هدية ثمينة من الماس والجواهر الكريمة والأقمشة الفاخرة ، ومضى بها في الصباح إلى الملك عرقوص والملكة زهرة وأكد بها عهده على الولاء والسلام ، ثم ودعهما ورجع بجنده إلى دياره . أما زهرة فإنها خلت بعرقوص وقالت له : إنى قد رغبت في الإسلام وأن تكون لى زوجاً ، فهل لك أن تنقذنى من ظلمة الكفر وتكفلنى في تلك الحياة ، ويكون لك السلطان على هذه الجزائر ولعلك بهذا تكون سبباً في هداية كثير من الناس فأجابها إلى ما طلبت ، وأسلمت وتزوجها وعاش معها قرابة شهرين ، ثم رجع إلى مدينته .

• • •

كان جوان قد سرق ابن الوزير يقطمر أخى الملك الظاهر من زوجته مريم الحمقاء ، وذهب به إلى دردنيس ملك درونه وقال له إذا

أنت ربيت هذا الطفل كان قوة في يدك تدحر بها العرب والمصريين
وملكهم الظاهر وعرفه بأبيه ، فسماه دردنیش عز النصرانية ، وقام على
تربيته وتعليمه ضروب الفروسية والبطولة حتى كان بطلامغواراً تهابه الأسود
الكواسر، وبعد عشرين سنة جاءه جوان والبرتقش فرأى عز النصرانية فقال :
هذا الفتى أشبه بالملك الظاهر في خلقه ، ثم سأله : هل هو الطفل
الذى تركه عنده وأمره بتربيته ليتخذه عضداً له وقوة في التنكيل
بالمسلمين ؟ ، فقال دردنیش : إنه منحنيه المسيح وإني لراغب الآن
في أن أزوجه ، فقال له جوان إني أعرفك بامرأة جميلة هي خير زوجة
لابنك وهي مريم الحمقاء بنت عرقوص صاحب مدينة الرخام ، وهي في
مصر الآن ، فقال دردنیش : ومن الذى يستطيع إحضارها من مصر .
فقال أحد رجاله واسمه طرفة أنا آتيك بها ، فقال : إن جئتني بها رفعت
منزلتك وأعدت عليك نعمتي ، فسافر طرفة إلى مصر وأقام بها حتى
عرفها وعرف مكانها ، ثم تسلل إليها في ظلام الليل وبنجها وحملها
ورجع بها إلى الملك دردنیش ، فقال لابنه عز النصرانية : هذه مريم
الحمقاء التى اختارها لك عالم الملة جوان قد أحضرناها لك لتكون
لك زوجة ، فلما رآها أحس من نفسه ميلا إليها فأخذها ومضى بها إلى
قصره ، ولما خلا بها قالت له : ماذا تريد مني أيها الفتى ؟ فقال :
أعجبني جمالك ، وملاّت قلبي ميلاً إليك ، ولكني كلما دفعت نفسي
إلى أن أتخذك زوجة لى اضطربت وتبدد عزي في ثورة هذا الاضطراب ،

وأنا من أجل هذا في حيرة ، ولكني مع هذا لن تطاوعني نفسي على أن أفرط فيك ، أو أفارقك على أية حال ، وسأحارب من طلبك من المصريين ، ثم أسكنها بيته وأجرى عليها نعمته ، وكان يجلس إليها يتحدثان من حين إلى حين ، وكانت تحدّثه بلغة الإفرنج في قوة وفصاحة ، فسألها : أنت مسلمة ولكني أجدك تجيدين لغتنا فما سبب ذلك ، فحكّت له تاريخها وعرفته أصلها وأنها تزوجت بالوزير يقظمر أخى الملك الظاهر ثم بكت فسألها عن بكائها فقالت : رزقت منه بغلام جميل تبدو عليه ملامح البطولة ؛ فسرقه مني جوان العين ولا أعرف له مكاناً إلى الآن . فقال لها : أتصدقين أنى لا أعرف لى أمّا حتى هذه الساعة ؟ فقالت : وهل تصدق أن يولد مولود من غير أم ؟ ودار في خلدّها أن عز النصرانية هذا ابنها الذى سرقه جوان وسألت ربها أن يصدق حدسها ويحقق ظنّها! ودخل الوزير يقظمر على أخيه الملك الظاهر حزيناً وأخبره بسرقة زوجته مريم ، فابتأس الملك وأمر أن يتشر جواسيسه للبحث عنها ليطلبها حيث تكون ، فثعب كثير منهم ثم رجعوا فاشلين ، ولكن سعداً أتى به طوافه في مدينة الملك دردنيس وتنسم الأخبار في كل مكان حتى سمع سارقها وهو يقص على أصحابه قصة سرقتها مفتخراً بما فعله ، وعرف منه مكانها ، فلزمه حتى عرف بيته ، ثم انسل في الظلام ودخل عليه في حجرة نومه وعرض عليه الإسلام ، ولما أتى وامتنع قتله ولبس ثيابه وتنكر في شكله وذهب إلى ديوان الملك ليحل محله ، والتزم الصمت مدعيّاً أنه

مريض بلسانه ، فأشفق عليه عز النصرانية وقال له : تعال معي يا طرفة إلى بيتي لأعالجك حتى يشفي لسانك ، ولما أخذه وخلا به وتفرس في وجهه ساوره الشك في أمره ، فقال له : اسمع يا هذا ، بربك إلا صدقتني ، ألسنت من المسلمين وقدمت إلى هذه المدينة لحاجة في نفسك ؟ فقال سعد : بلى ، وقد جئت للبحث عن مريم الحمقاء بنت عرقوص ، زوجة الوزير يقطمر أخي الملك الظاهر ، فأحس عز النصرانية ببرد الراحة في قوله ، وقال : إنها عدى وسأجمعك بها ، ثم أخذه ودخل به عليها وقال لها : أتعرفين هذا المسلم ؟ فلما نظرت إليه قالت : أهلا بك يا سعد وهل جئت وحدك ؟ فقال : نعم ، ولكن أبطال المسلمين انتشروا في البلاد يبحثون عنك ، فقالت : ارجع إلى الملك وأخبره أنني في مكاني هذا ، والتفتت إلى عز النصرانية ، وقالت : أدخل سيبله ، ومكنه من العودة ليحضر إليك زوجي ، فإذا حضر أمكنك أن تقتله وحينئذ أخلص لك وأتزوج منك ، فقال عز النصرانية : وإني لفي شوق إلى قتال المسلمين ، ثم أطلق سراحه فانفلت سعد كأنه الريح وجاء إلى الملك وأخبره ، فأناوب عنه ابنة محمداً السعيد ، وركب هو في جيشه واتخذ سعداً دليله ورائده وسار يقطع صعب الأرض وسهلها إلى مدينة الملك دردنیش .

أما عز النصرانية فإنه لبث ينتظر قدوم المسلمين ، وفي أثناء ذلك وجد الناس يقبلون على جوان ويحتفلون به ويطيعونه فسأل الملك دردنیش وقال : من هذا يا أبي الذي يقبل الناس عليه ويحترمونه؟ فقال : هذا

جوان عالم الملة ، يعلم الناس الدين ويقول إنه خليفة المسيح ، فقال : ولكنه في رأى كذاب منافق لا يسعى إلا في الفساد والنكد ، والدليل على ذلك أنك حين استشرته في زوجة لى ، لم يشر عليك بفتاة في سنى خالية غير متزوجة ، ولكنه اختار امرأة هى منى كأمى ، وهى فى عصمة رجل من المسلمين ، ولا يريد بهذا إلا إثارة الفتنة وإشعال نار الحرب بيننا وبين المسلمين . فلما سمع البرتقش هذا قال لجوان : وجب عليك أن تهرب من هذه المدينة فإني أعتقد الآن أن عز النصرانية أبوه يقطمر وأمه مريم الحمقاء ، فقال : أنتظر حتى نرى ما سيكون .

قدم الملك الظاهر ونشبت الحرب بينه وبين دردنیش ثلاثة أيام أسر الملك دردنیش فى نهايتها ، وسأله الملك الظاهر عما دفعه إلى سرقة مريم فقال : أغرائى عالم الملة جوان ، فأمر بحبسه ووكل أمره إلى المقدم سعد ، وفى أثناء الليل نهض دردنیش من نومه يردد الشهادتين ، ويتحسر على ذلك العمر الذى قضاه فى الكفر والضلال ، فأخبر سعد إبراهيم بإسلامه ودخلا عليه وسألاه عن سبب إسلامه ، فقال : جاءنى فى المنام رجل اسمه معروف ابن حجر وقال : إنك من أهل الإسلام ، وقد آن أوان إسلامك ، وعلمنى النطق بالشهادتين ، وقال : إن عز النصرانية ابن يقطمر وأمه مريم الحمقاء التى سرقها ، وأنا معروف بن حجر ، فأخذاه ودخلا به على الملك الظاهر وأخبراه بإسلامه ، وقال دردنیش ، وسأحضر إليكم عز النصرانية وأمه ، وسأعلن فى قومي إسلامي وأدعوهم إليه فن أسلم منهم

فهو منى ومن لم يسلم طردته من مدينتى ، فأخلى الملك سبيله وعاد إلى مدينته ودعا قومه إلى الإسلام فتبعوه ، وأسلم عز النصرانية وأرسله إلى الملك وأمه ، وسماه الملك أحمد العزيز ، وانبثق نور الإسلام فى هذه المدينة بعد أن كان ينجيم عليها ظلام الكفر والضلال .

أما جوان والبرتقش فإنهما هربا إلى خرافة المجنون ملك وادى الدخان ، وشكوا له إسلام دردنيس وقومه ، وإسلام عز النصرانية الذى كان يعده لهدم الإسلام وإهلاك المسلمين ، فقال له : سأسرق لك عز النصرانية هذا ، ثم سلط عليه من لازمه حتى خلا به ، ثم بنجه وحمله إلى خرافة المجنون ، ووضع بين يديه فى مجلسه ، فأعطاه جوان شيئاً أيقظه وقال له : صبات وأسلمت فما أصابك؟ فقال : ما أصابنى إلا الحير، فقد هديت إلى الحق ، وأصبحت مثل آبائى وهم ملوك فى المسلمين ، فقال : وسأحرم عليك رؤية أحد منهم ، ثم أخذه وربطه على عمود فى دير الدخان ، وقال له : إن كان فى المسلمين سر فليخلصوك من ورطتك ولينفسوا عنك كربتك ، ثم أغلق عليه الدير وتركه ، وأودع سيفه وحلته عند بنت راهبة فيه نذرها للمسيح ملك سرادينة ، وشاء القدر أن يلقى محبته فى قلب هذه الفتاة الراهبة ، فجاءته وفكت رباطه ، وسألته عن حاله فقصها عليها ، ثم حذرت من خرافة المجنون وعتوه وظلمه ، فسألها عن مكانه فقالت : فى ذلك القصر الذى يجاور الدير ، فقال : وأين مكان السلاح ؟ فقالت لا أعرفه ، ولكن عندى سيفك وحلتك ، ونهضت فأحضرتهما إليه ، فلبس الحلة

وأمسك سيفه ومضى إلى القصر ودخل على خرافة المجنون بغتة فوجده جالساً مع جوان والبرتقش ، فابتدر الملك بضربة من سيفه شق بها رأسه ، وقال لجوان والبرتقش إن تحركتما أو نطقتما بكلمة فعلت بكما ما فعلته بهذا المجنون ، ثم أمر البرتقش أن يكتف جوان فكتفه . وأقبل هو فكتف البرتقش ، وحبسهما في مخدع بالدير ، وأخذ يجوس خلاله فسمع صوتاً يقول : إن كنت أحمد العزيز ، وإن كان يقطمر والدك ومريم الحمقاء أملك فارفع هذا اللوح الرخامي الذى أمامك ، وادخل هذه المظمورة ، وستجد الحكيم «قطعنين» ميتاً وعند رأسه سيف اسمه الصمصام فخذة ولا تأخذ شيئاً غيره ، فإنه محفوظ لك ، فدخل وأخذ السيف وخرج ، ثم سمع ضجة في الدير فضى نحوها فألقى جماعة من المسلمين أرسلهم الملك إليه لينقذوه ، وفيهم إبراهيم فسلم عليهم ، ثم أخذوا جوان والبرتقش وخرجوا من الدير إلى الملك الظاهر ، وكان ذلك في ظلام الليل ، وفي أثناء سيرهم انتحى أحمد ناحية ليريق ماء ، واستمر الجماعة في سيرهم ظناً منهم أنه سيتبعهم ، ولكنه ضل الطريق حتى بعد ، فجعل يمشى حتى وجد صومعة في ضوء الصبح فاتجه إليها ، ولما دنا منها وجد شيخاً كبيراً فيها ، فقال له أهلاً بأحمد العزيز . إن لك عندي فرساً أبوه من البحر ، وعليه سرج مرصع بالذهب وهو محفوظ لك في هذه المغارة - وأشار إليها - فاذهب إليها وخذ منها ، ولكن أجلى يا بنى قد انتهى فاصبر حتى تدفنى ، ثم شق الشيخ شهقة ومات ، فأقبل إليه ، وواراه



عبدالله

التراب ، ومضى إلى المغارة فأخذ الفرس وركبه وسار قليلا ، فسمع
المقدم لإبراهيم ينادى ، يا أحمد . . . فأسرع إليه والتقى ، وسأله أين
كنت فحكى له ما حصل . ثم ذهب إلى دردنه عند الملك الظاهر وأعاد
عليه قصته ، ثم سمى الملك الظاهر دردنيس محمداً الدرويش وتركه ورجع
إلى مصر بجيشه ، ومعهم جوان والبرتقش .

ولما اطمأن الملك واستراح من تعب السفر أحضر جوان والبرتقش
وجعل يُؤنّبهما ويبين لهما ما هما فيه من ضلال ، وأنهما إن لم يتوبا ويدخلا
في دين الإسلام قتلهما .

أما البرتقش فإنه أعلن إسلامه وتوبته وقال لجوان : إني برىء منك
من هذه الساعة ، وما صبرت على صحبتك وأنت غارق في الكفر والغى إلا
لأحافظ على عباد الله الصالحين من شرك وأذاك ، وطمعاً في أنك تعتبر
بما يقع لك من ألوان التعذيب وضروب الخزي والفضيحة ، ولكن الله طبع
على قلبك فعميت عن الهدى .

وأما جوان فإنه أصر على كفره ، فحكّم الملك الظاهر بقتله وصلبه ،
وأمر أن يذاع هذا النبأ في المدينة ليشهد الناس قتله في اليوم المعلوم .
ولما حان الوقت المعلوم جرى به مقيداً مكتفياً وصلب على عمود في
ساحة واسعة جمع لها الناس من كل صوب ، ورحمه الجنود بالنبال حتى
مات ، فأنكشفت عن الملوك غمته وذهب شؤم طلعتة ، وعاش الناس في
ظل ظليل من السلام والوئام .

رقم الإيداع	١٩٨٦ / ٤٦٥٨
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-١٧٤٩-٢

١ / ٨٦ / ١١٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

obeikandi.com